بسم الله الرحمن الرحيم

آفاق الأدب المقارن

عربياً وعالمياً



دِراساتٌ في الأدَبِ المُقارَن - ١



تأليف

د. حسام الخطيب

آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً

تأليف : الدكتور حسام الخطيب

الطبعة الأولى : دار الفكر – دار الفكر المعاصر، دمشق- بيروت **1992**

الطبعة الثانية : دار الفكر – دار الفكر المعاصر **1999** (منقحة)

الطبعة الثالثة : المؤلف ، رام الله **2018**

"الشكر موصول لكل من شارك في إنجاز وطباعة الكتب

وتحفيزنا على هذا العمل:

وأخص السيدة فاطمة عبد الحميد شقيقة الدكتور

حسام الخطيب وعائلتها على المساعدة التي قدموها،

وكذلك الأخ فؤاد والأخت ريفا وكل فريق العمل في

مركز حنين للخدمات الجامعية في رام الله."

مقدمة

يصعب اعتبار الكتاب الحالي طبعة موسعة لكتابي السابق الذي صدر عن جامعة دمشق قبل عشر سنوات بعنوان : « **الأدب المقارن** » في جزأين ، الأول في النظريَّة والمنهج والثاني في التطبيق ؛ كما يصعب الزعم بأن الكتاب الحالي ليس سليل الكتاب الأول . فبينهما ـ على الأقل ـ فصول مشتركة ، وإن تكن غير متطابقة المادة ، مثل معضلة الأدب المقارن ، وتاريخه العالمي وبعض تاريخه العربي . وقد تمّ الاستغناء عن الجزء الثاني بكامله ، ربما انسجاماً مع قناعة تولدت لدى المؤلف مع طول الممارسة بأن تطورات الأدب المقارن أصبحت تتقبل إمكان الفصل بين التنظير والتطبيق ، أو بالأحرى التركيز على شق منهما دون الآخر في التجربة التأليفيَّة الواحدة .

وممّا يؤكد صلة القرابة بين الكتابين أنّ قناعات المؤلف فيما يتعلق برسالة الأدب المقارن وأهميَّته ومستقبله لم تتغيَّر من الناحية النوعيَّة طوال السنوات العشر الماضية ، التي نال فيها الأدب المقارن من اهتمامه التأليفي و (التنظيمي أيضاً) ما طغى على الاهتمامات الأدبيَّة الأُخرى العديدة التي تؤرق المثقف الأدبي في هذا العصر وتتناهب طاقاته .

وهكذا مع الاستمرار في الموقف النوعي يمكن الحديث عن تغير في الدرجة. وليس من قبيل المبالغة التأكيد أنَّه مع تراكم تجربة المرء في عالم الثقافة والأدب يزداد إدراكه للدور الديناميّ الحيّ الذي يمكن أن يقوم به الأدب المقارن في مجالات التنوير والتفتح الذهني والاستمتاع الفكري والأدبي من جهة، وفي الموازنة من جهة أخرى بين مقتضيات الانتماء القومي والوطني واللغوي والأدبي وتطلعات الانطلاق إلى الآفاق الإنسانيَّة الرحبة والتفاعل مع المناخ العالمي المعاصر.

ويعترف المؤلفِ بأنّ الأدب المقارن بدأ يأخذ عنده صبغة قضيَّة عُمرٍ رفيعة وليس مجرَّد تخصص أكاديمي ومهنةٍ دنيويَّة يوميَّة .

وبالطبع ، يقلق المرء لأنه ، لافسحة العيش ولا علوُّ الهمَّة المرتجى تتيحان له أن يقدِّم ما كان يرجو أن يقدمه حتى يكون (في مستوى القضيَّة) ، على نحو ما يقولون في المصطلح النضالي .

ذلك أن هذا الجهد المتواضع الذي يعرض هنا يُقصِّرُ كثيراً في مجمل حصيلته عمَّا كان يأمل المرء أن يحققه بعد مضي سنوات عشر حافلات بالمعايشة العربيَّة والدوليَّة لتطورات الأدب المقارن ، وإنَّ المرء يستطيع أن يبسط بين يدي هذا التقصير عشرات الحجج التي يَمُتُّ جزء منها غير يسير إلى ما يواجه الباحث العربي من عراقيل وصعوبات وافتقارٍ إلى أبسط التسهيلات المكتبيَّة والبحثيَّة .

ومن بين كل المعاذير التي ليست كلها مفتعلة، يودُّ المرء أن يشير إلى عامل مثبِّط بل قاتل ، هو الإحباط الذي ينجم عن غياب التحدي العلمي الحقيقي في وجه الباحث العربي ؛ فليس في الوسط الثقافي العربي أيُّ حدٍّ - ولو أدنى - من المحاسبة أو التقييم أو التسآل . وكان ممكناً بسهولة أن يخضع المرء لإغراءات إعادة طباعة الكتاب السابق كما هو ، دون أن يكون في ذلك سابقة خطيرة تذكَّر مثلاً بهجمة إيتامبل على غويار - في الخمسينات - لأن الأخير أعاد طباعة كتابه « **الأدب المقارن** » بعد سنوات طوال دون إضافة أو تغيير .

على أيَّة حال ، يفضل الإنسان دائماً أن يُشعل ولو فتيلة ضئيلة بدلاً من أن يلعن الظلام ، وهذا التزام أخذ يتمكن من النفس مع مرِّ الأيام وكرّ التجارب .

وماذا بعد ؟

أفضل للكتاب أن يتحدث عن نفسه، وأعجب شيء في الدنيا أن يتحدث عنه صاحبه. وهل يجدي أن يقول المؤلف إنَّه كتاب في ثلاثة أبواب أو أربعة، وإنَّه يعالج معضلة الأدب المقارن - ربما في آخر تطوراتها ، وإنه يحاول أن يصل بين الأدب العربي المقارن والتجربة العالميَّة ، وإنَّه يقدم عرضاً للتجربة المعرفيَّة التي يباشرها المقارنون العرب منذ منتصف الثلاثينات ، وإنه يعمل على نبش وقائع أساسيَّة في نشأة الأدب العربي المقارن وتصحيح تاريخه النظري والتطبيقي ، وغير ذلك وغير ذلك ؟! لا جدوى من كل ذلك .

إذن لنترك الماضي والحاضر ولنقل كلمة واحدة في المستقبل ، الذي يُخيَّل إلينا أنه مبشِّر واعد. فهناك اهتمام متزايد بالأدب المقارن، ووعي متنامٍ لطبيعة التخصص الذي ينطوي عليه، وهناك تطلع عربي شامل إلى أن يكون للمقارنة العربيَّة هدفها وشخصيتها وطريقها إلى (مكة) هذا العلم البراق. ومع ذلك يحترس المرء فيقول إنّ هناك خشية من أن تنقلب

طاولة الأدب المقارن على أصحابها مثلما انقلبت طاولات أخرى كثيرة في الحياة العربيَّة بسبب الإسراف في مراكمة الأطباق وعرض العضلات وخلط المقبِّلات. ولقد أصبحت الثقافة العربية متخصصة في فن قلب الجرار وإفراغ كل وعاء من محتواه. وتشهد الساحة الجامعيَّة اليوم مقارنين جداً يلوحون بسيف الاختصاص. منهم من تعب وعمل واجتهد، ومنهم من عاد من إيفاده خالي الوفاض حتى من لغة أجنبيَّة يتقنها، ومنهم من وعد وباشر الإنتاج، ومنهم من أنكر وأرجأ. وإنهم ليظلون جميعاً معقد الأمل.

وهناك أيضاً علّة العلل وهي أننا جميعاً نريد أدباً مقارناً بلا باحث ولا عدَّة .

نريد ألاَّ ندفع للبحث ضريبته - ونريد مؤسساتنا لنا ألاّ نكلفها أية تكلفة معنويَّة أو ماديَّة ، وليكن بعد ذلك ما يكون .

ومشكلة الأدب المقارن أنَّه يحتاج إلى السقي لاإلى (البعل) . ويحتاج إلى كتب ودوريَّات وتسهيلات بحثيَّة ، واتصال حيّ بالعالم الخارجي ، ومنبر مفتوح للحوار . وما أبعد كل تلك الأمور عن جامعاتنا . ولكن أيضاً ما أسهل ما يمكن التغلب على العراقيل الخارجيَّة حين تصفو النفوس وتلتقي الغايات وتلتف الطاقات حول الهدف المنشود .

وفي وهمي أن قضيَّة المقارنة العربيَّة ليست أسوأ حالاً من غيرها ؛ لأنها على الأقل ما زالت في طور التوثب والشباب . والوسط من حولها يهيب بها ، والتجربة العالميَّة تحفزها ، والحقول البكر بانتظارها .

فلماذا لا نقصِّر فترة الانتظار ؟

تعز - اليمن ١٩٩٢/٣/٢٩

حسام الخطيب



الباب الأول

مسائل واتجاهات في الأدب المقارن

١ ـ مدخل عام : معضلة الأدب المقارن

٢ ـ المفهومات الرئيسية للأدب المقارن

٣ ـ نظرات أمريكية للخروج من المعضلة باتجاه الانفتاح

أ ـ رينيه ولك يحاكم التعامل الخارجي بين الآداب

ب ـ رماك يضع أسساً لنظرية أمريكية

جـ ـ رماك يبلور المصطلحات

د ـ نحو تفحص المفهومات

هـ ـ الوظيفة الحيوية للأدب المقارن

٤ ـ الأدب المقارن في منظور عربي

أ ـ خلاصة علمية

ب ـ الاتجاه المقارني والتاريخ المعرفي العربي

جـ ـ بذور وجهة نظر عربية في الأدب المقارن

الفصل الأول :

مدخل عام : معضلة الأدب المقارن

تمهيد :

يكثر الحديث عما يمكن أن يسمى معضلة الأدب المقارن . وليس هنـاك اليوم أي نسق معرفي يعاني من مشكلات النظرية والمنهج قدر ما يعانيه (الأدب المقـارن) . بل إن فهم طبيعـة معضلـة الأدب المقارن يتراوح بين باحث وآخر ، وهناك خلافات تتناول الأمور الأسـاسيـة ولا تقف عنـد حدود النواحي الثانويـة التي يجري الاختلاف بشـأنها في منـاهج المعرفـة الأدبيـة والإنسـانيـات . وسوف يحاول البحث الحالي تقديم تحليل عام لطبيعة المعضلة وللاتجاهات الحالية في نظريـة الأدب المقارن ، ثم يتبع ذلك بتقديم عرض وافٍ لبعض النظريات الحديثة ذات الأهمية الخـاصـة في الأدب المقارن مثل نظرية رماك الأمريكي ، وذلك تمهيداً للتوصل إلى بعض الخطوط العـامـة بـاتجـاه فهم (مركزي تكاملي) لنظرية الأدب المقارن ، ولا سيا من خلال وجهة نظر عربية .

عرض المعضلة :

تبدو معضلة الأدب المقارن مثلثة الوجوه :

أ ـ فهي أولاً معضلة البحث عن المنطق الخـاص للأدب المقـارن أي عن نسق **System** معرفي بحثي خـاص ، من شـأنـه أن يميز الأدب المقـارن من غيره من فروع المعرفـة الأدبيــة ، ولا سيما من تـاريـخ الأدب القـومي ، ومن الأدب العـام ، ومن الأدب العــالمي ، ومن نظريــة الأدب ، ومن النقد ، وبالتالي يعطي معنى لتسميته اختصاصاً أو فرعاً معرفياً .

ب ـ وهي ـ ثانياً ـ معضلـة تحـديـد المنطقـة النوعيـة للأدب المقـارن ، أي أين يبـدأ الأدب المقارن وأين ينتهي ؟ وما هو مجال بحثه ؟

وهل يجوز الاكتفاء بالانكباب على عملية استقصاء شواهد التأثر والتأثير التي تجنح في أحيان كثيرة إلى أن تكون عملية (أنتربول) أدبي ، وتقترب في بعض الأحيان من مفهوم السرقات في النقد الأدبي العربي القديم ؟

ثم هل يقتصر مجال الأدب المقارن على التفاعل أو التشابه الجغرافيين ، من خلال تجاوز حدود الآداب القومية ، أم يتناول كذلك مسألة التفاعل والتشابه النوعي بين الأدب وأنواع المعرفة الأخرى ، ولا سيا الفنون ؟ وإلى أي مدى وضمن أية حدود ؟

وربما كان هذا هو صلب المعضلة وهناك أسئلة أخرى كثيرة من هذا القبيل ، أما الإجابات فحدِّثْ ولا حرج عن مدى اختلافها وتباينها وفي كثير من الأحيان تضاربها وتعارضها .

جـ ـ وهي ـ ثالثاً ـ معضلة تحديد الوظيفة النوعية للأدب المقارن في نطاق المعرفة الأدبية ، بحيث يكون له مسوغ داخلي خاص وهدفية نوعية .

ذلك أن البحث في الأدب المقارن شاق ومنهك ، ويتساءل اليوم كثير من الباحثين الشباب المتحمسين : لماذا نقضي سنوات في بحث مشكلة مقارنة ما ، لنثبت في النهاية أن الشاعر الفلاني من بلد ما ، تأثر بزميل له من بلد آخر ، أو لننفي هذا التأثير ؟

وما الفائدة من عملية البحث في (التجارة الخارجية للأدب)[1] ؟ أليس من الأفضل توجيه الأبحاث المقارنية باتجاه خدمة قضية التفاهم الثقافي والفني بين الشعوب ؟ وهل يمكن ذلك دون النيل من المناهج العلمية التي يتبنّاها الأدب المقارن ؟ ثم هل يمكن الاتجاه بالأدب المقارن اتجاهاً تذوقياً بالإغضاء عن مسألة التأثر والتأثير والاطمئنان في الوقت نفسه إلى أنه لا يصبح بذلك فرعاً من فروع النقد الأدبي ؟

تضارب المصطلحات بشأن (الأدب المقارن) :

يمكن القول ـ مع ملاحظة ما في ذلك من مفارقة ـ أن الأدب المقارن نوع من البحث الأدبي ، كلما ازداد الاعتراف بأهميته في العالم المعاصر ، ازداد في الوقت نفسه تشعب الآراء حول تحديد مفهوم مصطلحه ومنطقه . ذلك أن (**الأدب المقارن**) عالج منذ نشأته التي لا ترجع إلى أبعد

(١) حقوق هذه التسمية محفوظة لرينيه ولك وأوستن وارين ، وسوف ترد إشارة مفصلة إلى هذا الأمر بعد قليل .

من قرن ونصف من الزمان ، حقولاً مختلفة من الدراسة ، ومجموعات من المشكلات ، ليست دائماً على درجة كبيرة من التجانس أو التقارب . ويعتبر مصطلح (**الأدب المقارن**) مصطلحاً خلافياً ، وهو بإجماع الآراء ضعيف الدلالة على المقصود منه . وقد فنّده كثير من الباحثين ولكنهم في النهاية آثروا الاستمرار باستعماله نظراً لشيوعه . وفي مقدمة هؤلاء شيخ الأدب المقادن بول ڤان تييغم ، الذي اعترف أن هذا المصطلح غير دقيق الدلالة على موضوعه ، وأن هناك « تعابير أخرى أصح وأوضح » . ومن التسميات التي اقترحت :

- الآداب الحديثة المقارنة ، وهو الاسم الرسمي لعدد من منابر الجامعات في التخصص الأدبي .

- تاريخ الأدب المقارن ، وقد استعمله الرائدان جوزيف تكست وج.ج. أمبير ، ويعود إلى عام ١٨٣٢[٢] .

التاريخ الأدبي المقارن ، التاريخ المقارن للآداب ، تاريخ الآداب المقارن[٣] .

- تاريخ المقارنة .

ومن المصطلحات التي اقترحت في وقت مبكر ، والتي دلت دلالة دقيقة على المقصود بهذا البحث الأدبي عند مبتكريه ، مصطلح (تاريخ العلاقات الأدبية الدولية) الذي اقترحه ماريوس فرانسوا غويار ، وسوف ترد الإشارة إلى هذا المصطلح بعد قليل .

والملاحظ أن كلمة (تاريخ أدب) هي التي تقرب المصطلح من الدقة حسب مفهومه الأصلي ، ذلك لأن الأدب المقارن هو في الأصل تاريخ أدبي ، يتتبع العلاقات بين الآداب وآليات التأثر والتأثير .

على أن تضارب المصطلحات يجب ألا يؤلف مشكلة في وجه نمو هذا الحقل المعرفي . ومنذ البدء أشار الباحثون إلى عدم وجود ضرورة للبحث عن مصطلح آخر .

---

(٢) من أجل تفصيلات هذه المناقشة انظر :
بول ڤان تييغم : الأدب المقارن ، تر . سامي مصباح الحسامي ، صيدا ـ بيروت ، بلا تاريخ ، ص ١٨ ، وقد ظهر هذا الكتاب بالفرنسية عام ١٩٣١

(٣) انظر مثلاً تعليقاً على هذه التسميات في : محمد غنيمي هلال : الأدب المقارن ، بيروت (دار العودة) ١٩٨٧ ، ص ١٠

وفيما يلي رأي بول ڤان تييغم وهو الأكثر تشدداً في المفهوم الفرنسي للأدب المقارن :

« لقد استعمل (الأدب المقارن) في فرنسا كاصطلاح متعارف عليه منذ قرن تقريباً : فمنذ عام ١٨٢٧ استعمله فيلمان في محاضراته في الصربون ، ومنذ عام ١٨٣٠ وضعه عنواناً لمحاضراته في عدة منابر أو حلقات دراسية ، وابتداء من عام ١٨٤٠ وضعه في عدة كتب ، وحوالي القرن الأخير أخذ الاسم ينتشر أكثر فأكثر حتى أصبح في أيامنا هذه واضح المعالم ، سهل الاستعمال إلى حد أن ليس هناك من داعٍ لاستبداله باسم آخر .. »[٤] .

والجدير بالذكر أن ڤان تييغم يربط بين مصطلح الأدب المقارن وبين نشأة العلوم المقارنة في القرن التاسع عشر . ويشير إلى أن لفظة (المقارن) استعملت على وجه التقريب في ذات الوقت الذي استعملت فيه في علم اللغات وعلم الإنسان وعلم الحيوان ، وتحت تأثير أفكار وآراء واحدة[٥] .

والمقصود طبعاً بالأفكار الواحدة هو البعد الإنساني والعالمي الجديد للعلوم الطبيعة والاجتماعية .

وقد انقضى الآن أكثر من قرن ونصف على الاستعمال الأول لمصطلح (الأدب المقارن) ، وتعرض هذا الحقل المعرفي خلال هذه المدة لمناقشات واتجاهات وانقسامات ، ولكن المصطلح نفسه أثبت فعاليته ، وثبت أن وضع مصطلح بديل أمر بالغ الصعوبة بسبب هذه الخلافات على الأقل .

وهكذا كان لهذا المصطلح ، ربما بنتيجة افتقاره إلى الدقة ، بعض الفضل في إبقاء مدلولاته موحدة ولو ضمن حد أدنى من التجانس ، إذ اجتمعت تحت عباءته اتجاهات شتى وأفكار متباينة وسمحت مرونته بجمعها كلها تحت تسمية (الأدب المقارن) .

ويشير بعض الدارسين قضية هذا المصطلح باللغة العربية ، كما أن جمهرة القراء تتساءل دائماً : هل هو مقارِن (بالكسر) أم مقارَن (بالفتح) ؟ والحق أن المصطلح الفرنسي الأصلي La Littérature Comparée مبني على صيغة اسم المفعول فهو مقارَن . أما التسمية الإنكليزية فربما كانت الأقرب إلى المقصود لأنها يمكن أن تترجم بكلمة مقارني Comparative إذ إنها صفة من

---

(٤) ڤان تييغم : الأدب المقارن ، ص ١٨ . وحقه أن يقول : « لاستبدال اسم آخر به » .

(٥) السابق ، ص ١٩

المقـارنـة Comparison . وقـد وهم بعضهم بـأن اعتبرهـا اسم فـاعل[٦] ، وهـي - كما تشير المعـاجم - أقرب إلى اسم المفعول ، أي إلى المصطلـح الفرنسي ، وتفسر أحيـانـاً بكلمـة Compared أي مقـارَن (اسم مفعول بفتح الراء) .

والأصح والشـائع هو استعمال صيغـة اسم المفعول (مقـارَن) . أمـا العـامـل في حقـل الأدب المقارن فهو باحث مقارِن (بالكسر) مقابل كلمة Comparatiste الفرنسيـة التي أخـذهـا الإنكليز كما هي Comparatist . وإن كان ممكناً التـدقيق في الأمر واستخـدام مصطلح (بـاحث مقـارَني) الذي هو أقرب إلى مفهوم التخصص من المصطلح العام (مقـارِن) ، وكـذلـك يمكن وصف البحث المتخصص بأنه مقارني . والعبرة بالاتفاق العام .

---

(٦) انظر المناقشة المتعجلة في :

السـيد العراقي : الأدب المقارن : **منهجاً وتطبيقاً** ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ١٩٨٥ ، حسـب تاريخ المقدمة ، ص ٢٣

الفصل الثاني :

المفهومات الرئيسية للأدب المقارن

في العرض السابق لمشكلة المصطلح في الأدب المقارن جرى تجنب نسبي للدخول في مدلولاته ، ولكن تبقى بالطبع مشكلة المصطلح هي مشكلة المدلول ، ذلك أن الخلاف المصطلحي ليس إلا انعكاساً للاتجاهات المفهومية . وإذا كانت مشكلة المصطلح قد حُلّت بالاتفاق العام على التسمية الأصلية (الأدب المقارن) ، فإن الجادلات حول مدلولاته ما زالت مستعرة . وفيما يلي أبرز الاتجاهات التي ظهرت تحت عباءة هذا المصطلح منذ نشأته في أوائل القرن التاسع عشر ، وهي مرتبة حسب تسلسلها التاريخي ، ولكنها غير معروضة بطريقة تاريخية (كرونولوجية) وإنما بطريقة مقارنية .

المفهوم الأول (الأدب الشفوي المقارن)

هو دراسة الأدب الشفوي وبخاصة موضوعات القصص الشعبي وهجرته ، وكيف ومتى دخل حقل الأدب الفني الذي يفترض أنه أكثر تطوراً من القصص الشعبي . ومن الواضح أن دراسة الأدب الشفوي هي جزء متمم لدراسة الأدب المكتوب ، إذ ليس من الممكن الفصل بينهما ، والتفاعل قائم بينهما ، وهو يكثر أو يقل حسب الظروف الاجتماعية والثقافية لكل بلد من البلدان . وهناك أصل شعبي لكثير من الأنواع والموضوعات . والشواهد كثيرة جداً على المنشأ الاجتماعي للأدب الشعبي . ولكن هذا الحكم يجب ألا يؤخذ على إطلاقه ، فكما أن كثيراً من الأفكار ، والأنواع والأذواق الأدبية انبثق عن الأدب الشعبي والفولكلور ، كذلك توجد شواهد كثيرة على أن هناك مردات شعبية كثيرة تطورت عن الأدب (الفني) أو (المدوّن) ، واتخذت شكلاً مشوّهاً ، أو أصبحت على حد تعبير أحد الباحثين المتطرفين في هذا المجال (**تراثاً ثقافياً منهاراً**) .

وكثير من قصص الجن والخرافات والأغاني الشعبية هي في الغالب قريبة العهد بنا ، كما أنها مستقاة من (الأدب الفني) .

ومهما يكن من أمر فإن الصلة الواضحة (وهي تبادلية في الغالب) بين الأدب الشعبي والأدب (المدوّن) تجعل دراسة الأدب الشعبي مفيدة للباحث الأدبي وللمقارن على السواء ، وربما كانت فائدتها تتركز في الناحيتين النوعيتين التاليتين :

الأولى : بيان الصلة بين الروح الشعبية كما تتمثل صافية في المرددات والأدب الشفوي وبين الأدب المدوّن بوصفه مرحلة متطورة من مراحل التعبير عن هذه الروح .

الثانية : بيان تلك الصلات البعيدة بين آداب المناطق المختلفة التي يمكن أن تفيد في تكوين قناعات بشأن وحدة منشأ هذه الآداب ، وكذلك وحدة التجربة الإنسانية في مجال التعبير الفني والجمالي .

على أية حال ظل هذا المفهوم للأدب المقارن محصوراً بأوربة ولا سيما الشمالية ، ولم يتجاوزها إلى المناطق الأخرى في العالم ، وكان الإقبال عليه أشد في المرحلة الأولى لنشأة الأدب المقارن ، وهو يؤلف اليوم رافداً جزئياً من روافد المفهوم المقارني .

المفهوم الثاني (التأثر والتأثير)

والحقل الثاني لدراسة الأدب المقارن هو دراسة الصلات بين أدبين أو أكثر . وهو المفهوم الأساسي الذي غلب على الأدب المقارن منذ نشأته .

وقد تشددت مدرسة المقارنين الفرنسية ، التي ازدهرت في آخر القرن التاسع عشر ، في حصر الأدب المقارن بهذا الحقل ، وأبت أن تفهمه إلا من خلال هذا التحديد الدقيق . وقد حدد بول ڤان تييغم الأدب المقارن بأنه « **دراسة آثار الآداب المختلفة من ناحية علاقاتها بعضها ببعض** » ، كما فرق جان ماريه كاريه بشدة بين المقارنات الأدبية غير القائمة على الصلات والعلاقات وبين الأدب المقارن الذي يعتمد على مفهوم التأثر والتأثير من خلال الصلات الواقعية بين الآداب أو الأدباء من بلدان مختلفة . كما رفض كاريه فكرة التطابق بين الأدب العام والأدب المقارن . وكذلك فعل م . ف . غويار الذي عدّ (الأدب العالمي) و (الأدب العام) مطمعين

غيبيين (ميتافيزيين) . وآثر أن يسمي الأدب المقارن تسمية جديدة ذات دلالة أدق على موضوعه . وهي : (تاريخ العلاقات الأدبية الدولية)[٧] .

وفيما يخص العالم الغربي يرى ڤان تييغم أن الأدب المقارن يجب أن يشمل : علاقات الأدبين اليوناني واللاتيني أحدهما بالآخر ، ثم ماتدين به الآداب الحديثة منذ العصور الوسطى للآداب القديمة ، ثم العلاقات بين الآداب الحديثة المعاصرة . لكن هذا القسم الأخير ، وهو أوسع الأقسام وأكثرها تعقيداً ، هو المقصود عادة من قولهم : « الأدب المقارن »[٨] .

وكان فرنان بالدنسبرغر Fernand Baldensperger الفرنسي هو الذي أسس هذا المفهوم الذي عملت على بثه وجلاء جوانبه (مجلة الأدب المقارن) La Revue de la Litterature Comparée .

وقد كُتب الكثير حول أسس هذا المفهوم المقارني الفرنسي الذي سيطر على الساحة الغربية حتى منتصف القرن العشرين على الأقل ، وظل هو المفهوم الوحيد في الدراسات المقارنية العربية حتى نهاية السبعينات من هذا القرن . وفي رأينا أنه يبقى أوضح ما كتب في هذا المجال : الشرح الذي قدمه الدكتور محمد غنيمي هلال مؤسس الأدب العربي المقارن ، والنصير المخلص لمفهوم التأثر والتأثير . وقد استند فيه إلى مصادر فرنسية تسمح للمرء باعتماده . وفيما يلي خطوط هذا المفهوم من خلال عبارات مجتزأة من شرحه :

---

(٧) م . ف، غويار: الأدب المقارن، ترجمة د. محمد غلاب، القاهرة، ألف كتاب، ١٩٥٦، المقدمة والمدخل بوجه خاص.

(٨) **بول ڤان تييغم**: الأدب المقارن. دار الفكر العربي. بلا تاريخ، ص. ص ٦٢ - ٦٣، وتخلو هذه الطبعة من اسم المترجم، والمعتقد أنه سامي الدروبي.

وبمقارنة هذه الفقرة مع نظيرتها في ترجمة الحسامي المشار إليها في الحاشية رقم (١) السابقة تبين عقم الاعتماد على الترجمة حتى في أبسط الأمور ، ذلك أن الفقرتين لا تخلوان من تعارض .

وفيما يلي النص الحرفي للفقرة في ترجمة الحسامي :

« وتتضمن هذه الدراسة إذا مانظر إليها من حيث خطوطها الكبرى ، وإذا لم تعتمد إلا العالم الغربي ، العلاقات بين الآداب الإغريقية والآداب اللاتينية ، ثم ماأخذت الآداب الحديثة ، منذ القرون الوسطى ، من الآداب القديمة ، وأخيراً علاقات الآداب الحديثة المتبادلة .

وهذا الترتيب الأخير للموضوعات ، الواسع الأطراف والغامض في آن واحد ، هو الذي يعتمده الأدب المقارن ... » ص ٥٢

والتباين طبعاً يقع في الحكم الأخير على الموضوع الأساسي للأدب المقارن .

١ ـ مدلول « الأدب المقارن » تاريخي . ذلك أنه يدرس مواطن التلاقي بين الآداب في لغاتها المختلفة ، وصلاتها الكثيرة المعقدة ، في حاضرها وفي ماضيها ، وما لهذه الصلات التاريخية من تأثير أو تأثر ، أيّاً كانت مظاهر ذلك التأثير أو التأثر : سواء تعلقت بالأصول الفنية العامة للأجناس والمذاهب الأدبية أو التيارات الفكرية ، أو اتصلت بطبيعة الموضوعات والمواقف والأشخاص التي تعالج أو تحاكى في الأدب ، أو كانت تمس مسائل الصياغة الفنية والأفكار الجزئية في العمل الأدبي ، أو كانت خاصة بصور البلاد المختلفة كما تنعكس في آداب الأمم الأخرى ، بوصفها صلات فنية تربط ما بين الشعوب والدول بروابط إنسانية تختلف باختلاف الصور والكتاب ، ثم ما يمت إلى ذلك بصلة من عوامل التأثير والتأثر في أدب الرحالة من الكتاب .

والحدود الفاصلة بين تلك الآداب هي اللغات ، فالكاتب أو الشاعر إذا كتب كلاهما بالعربية كان أدبه عربياً مهما كان جنسه البشري الذي انحدر منه. **فلغات الآداب هي مايعتد به الأدب** المقارن في دراسة التأثير والتأثر المتبادلين بينها.

٢ ـ والأدب المقارن جوهري لتاريخ الأدب والنقد في معناهما الحديث ، لأنه يكشف عن مصادر التيارات الفنية والفكرية للأدب القومي . وكل أدب قومي يلتقي حتماً في عصور نهضاته بالآداب العالمية ، ويتعاون معها في توجيه الوعي الإنساني أو القومي ، ويكمّلُ وينهض بهذا الالتقاء ؛ ولكن مناهج الأدب المقارن ومجالات بحثه مستقلة عن مناهج تاريخ الأدب والنقد ، لأنه يستلزم ثقافة خاصة ، بها يستطاع التعمق في مواطن تلاقي العالمية . وإنما يستعين النقد وتاريخ الأدب بنتائج بحوثه التي تأتي ثمرة التعمق في دراسة **الصلات الأدبية العالمية** في ذاتها .

ولا تقف أهمية الأدب المقارن عند حدود دراسة التيارات الفكرية والأجناس الأدبية ، والقضايا الإنسانية في الفن ، بل إنه يكشف عن جوانب تأثر الكتاب في الأدب القومي بالآداب العالمية . وما أغزر جوانب هذا التأثر ، وما أعمق معناها لدى كبار الكتاب في كل دولة . وهذا هو ما عبر عنه الناقد الفرنسي (ڤيلمان) Villemain في محاضراته في الصربون عام ١٨٢٨ م بأنه : « السرقات الأدبية الأبدية التي تتبادلها كل الدول » . على أن الأدب المقارن أرحب أفقاً وأعمق نظراً وأصدق نتائج في دراسته للصلات الأدبية الدولية من الدراسات القديمة الضيقة الأفق والقليلة الجدوى لما كانوا يسمونه : السرقات الأدبية .

٣ ـ ولا يُعد من الأدب المقارن في شيء ما يُعقد من موازنات بين كتّاب من آداب مختلفة لم

تقم بينهم صلات تاريخية حتى يؤثر أحدهم في الآخر نوعاً من التأثير ، أو يتأثر به . فمثلاً ألف الكاتب الفرنسي الكبير (ستاندال) Stendhal (١٧٨٣ ـ ١٨٤٢) كتاباً عنوانه : (راسين وشكسبير) ، لمقابلة الأصول التقليدية في مسرحيات (راسين) بوجوه الإبداع في مسرحيات (شكسبير) . ويتخذ هذه المقابلة وسيلة للإشادة بأصالة (شكسبير) وبدراسته (القلب الإنساني فيما له من قوانين إنسانية خاصة به ، وفيما يقوم أمامها من عقبات) . ويتخذ (راسين) مثالاً للشعراء عبيد القواعد ، على حين يضرب المثل للاتجاهات الفنية التي ينتصر لها من مسرحيات (شكسبير) ، وهو كتاب قيّم ولكنه ليس من الأدب المقارن لا في منهجه ، ولا في موضوعه ؛ إذ ليس بين (شكسبير) و (راسين) من صلة تاريخية . والأمر كذلك فيما يُعقد مثلاً من موازنة بين الشاعر الإنجليزي : (ملتن) Milton (١٦٠٦ ـ ١٦٧٤ م) وأبي العلاء المعري (٣٦٣ هـ = ٩٧٣ م ـ ٤٤٩ هـ = ١٠٥٧ م) لأن كليهما كان أعمى ، وأنتج خاضعاً لهذه العاهة ، ثم على الأخص لأن لكل منهما آراء متطرفة فيما يخص الدين . وذلك أن كلا الشاعرين لم يعرف الآخر ولم يتأثر به ، فتشابه آرائهما وظروفهما أو مكانتهما الاجتماعية ليست له قيمة تاريخية .

ولا يصح أن ندخل في حسابنا مجرد عرض نصوص أو حقائق تتصل بالأدب ونقده لمجرد تشابهها أو تقاربها دون أن يكون بينها صلة ما نتج عنها توالد أو تفاعل من أي نوع كان . قد يكون الجري وراء مقارنات من هذا النوع مفيداً لتقوية الملاحظة وللإحاطة بمعلومات كثيرة ؛ ولكنه ليست له قيمة تاريخية حتى يُعد في باب الأدب المقارن . على أن مثل هذه المقارنات في أغلب صورها عقيمة ، لأنها لا تشرح شيئاً ، بل تقوم على نوع من الترف العقلي ، أساسه جمع معلومات لا نظام فيها ولا قاعدة لها ، ولا يجمع بينها إلا مجرد ما يبدو من تشابه . ونربأ بالأدب المقارن أن يتناول مثل هذا النوع من الدراسات التي أساسها المصادفة والإدراك الرخيص للمشابهات ، ومجرد الإلمام بمعلومات والاطلاع على النصوص ، لأننا لا نقصد بدراسة الأدب المقارن إلا الوصول إلى شرح الحقائق عن طريق تاريخي ، وكيفية انتقالها من لغة إلى أخرى ، وصلة توالدها بعضها من بعض ، والصفات العامة التي احتفظت بها حين انتقلت إلى أدب آخر ، ثم الألوان الخاصة التي فقدتها أو كسبتها بهذا الانتقال . لمثل هذه الدراسات فليعمل العاملون ، ومنها ترجى الفوائد التي يتطلع إليها الباحثون . أما تلك الموازنات التي لا تشرح شيئاً ، والتي تبقى غامضة لا يوضحها تاريخ؛ فلا تتجاوز في ضآلة قيمتها « مجهود أستاذ في علم الأحياء ينفق وقته في شرح التقارب شكلاً ولوناً بين زهرة وحشرة ».

وكما أخرجنا من حساب الأدب المقارن ما يعقد من مقارنات بين آداب ليست بينها صلة تاريخية ؛ كذلك نود أن ننبه إلى أنه ليس من الأدب المقارن في شيء ما يساق من موازنات في داخل الأدب القومي الواحد ؛ سواء أكانت هناك صلات تاريخية بين التصوص المقارنة أم لا .

فالموازنة بين أبي تمام والبحتري أو بين حافظ وشوقي في الأدب العربي يتخلى عنها مؤرخ الأدب المقارن إلى مؤرخ الأدب القومي ، لأن مثل هذه المقارنات ـ على أهميتها وقيمتها التاريخية أحياناً ـ لا تتعدى نطاق الأدب الواحد ، في حين أن ميدان الأدب المقارن دولي يربط أدبين مختلفين أو أكثر .

٤ ـ بقي لنا أن ننبه إلى أن ميدان الأدب المقارن الذي شرحناه ـ وهو الصلات الدولية بين مختلف الآداب ـ أوسع مما يبدو لأول وهلة ، إذ هو لا يقتصر على دراسة الاستعارات الصريحة وانتقال الأفكار والموضوعات والنماذج الأدبية للأشخاص من أدب إلى آخر ، بل يشمل أيضاً دراسة نوع التأثر الذي اصطبغ به الكاتب في لغته التي يكتب بها بعد أن استفاد من أدب آخر . وهو ما نستطيع أن نطلق عليه تأويل الكاتب لما قرأه من آداب أخرى . وقد يبعد هذا التأويل كثيراً أو قليلاً من الحقيقة .

فمثلاً ، قد تأثر صوفية الفرس من المسلمين بالقرآن والدين ، ولكن بعد تأويلهما تأويلاً كبيراً ، بحيث أدخلوا في مفهومها كثيراً من فلسفة (أفلاطون) و (أفلوطين) العاطفية ، وكثيراً من مبادئ التصوف في الهند وإيران القديمة ، ولكنهم فهموا آيات القرآن وأحاديث الرسول على هذه الطريقة ، أي بعد أن أخضعوهما لآرائهم وظنوا أنهم لها خاضعون . ومع ذلك نعدهم متأثرين بالقرآن والحديث عن طريق التأويل .

٥ ـ ويندرج في الأدب المقارن نوع آخر من التأثر العكسي كأن يقاوم الكاتب أثر كاتب آخر في أدب أمة أخرى ، فينتج من هذه المقاومة أثرها في تأليفه . ولنأخذ لذلك مثلاً شاعرنا أحمد شوقي في مسرحيته : كيلوباترا ، فقد تأثر في فكرة دفاعه عن (كيلوباترا) ـ بوصفها مصرية ـ بالمسرحيات الكثيرة الأوربية في الموضوع ـ وقد ظفر موضوع (كيلوباترا) في الآداب الأوربية بما لم يكد يظفر به موضوع آخر في عدد المسرحيات التي ألفت فيه ـ وفيها جميعاً اتخذت (كيلوباترا) مثال المرأة الشرقية أو المصرية في نظرهم ، **فهي مستهترة ولوع بالملذات تتخذ إلى غايتها طرقاً**

ملتوية غير مستقيمة . وكان (أكتافيوس) مثال العقلية الغربية في رأيهم أيضاً ، في جده واستقامته وقوته ؛ ثم كان (أنطونيوس) مثال العقلية الغربية قبل تعرفه بكيلوباترا ، وبعد تعرفه بها صار مثلها ؛ ففقد ما كان يتصف به من عزم وقوة بتأثير سحرها . وقد أراد شوقي أن يدافع عن هذه النظرة الخاطئة بتصوير (كيلوباترا) وطنية مخلصة ، تقدم وطنها حتى على حبها . ولسنا بصدد الرد على آراء من كتبوا عن (كيلوباترا) ناظرين لها في الآداب الأوربية تلك النظرة ، كما أنا لسنا بصدد بيان مدى توفيق شوقي في تصويره الفني لكيلوباترا في مسرحيته كذلك ، ولكنا ـ على أية حال ـ نعد شوقي متأثراً بأولئك الكتاب أو الشعراء تأثراً عكسياً .

وعلى الأدب المقارن ـ إذا تصدى لهذااللون من البحث ـ أن يشرح شرحاً تاريخياً لماذا تعرض الكاتب في أمة إلى هذا النوع من التأثر دون ذاك ، وما مبلغ شخصيته فيما تأثر به ، وما الألوان الخاصة والطابع القومي في أدبه ، ولماذا اختلف عن الأدب الأجنبي الذي أثر فيه ؟

فالأدب المقارن ، إذن ، يرسم سير الآداب في علاقاتها بعضها ببعض ، ويشرح خطة ذلك السير ، ويساعد على إذكاء الحيوية بينها ، ويهدي إلى تفاهم الشعوب وتقاربها في تراثها الفكري . ثم هو ـ بعد كل هذا ـ يساعد على خروج الآداب القومية من عزلتها ، كي ينظر لها بوصفها أجزاء من بناء عام هو ذلك التراث الأدبي العالمي مجتمعاً . وبهذا المعنى لا يكون الأدب المقارن مكملاً لتاريخ الأدب ، ولا أساساً جديداً أقوم لدراسات النقد فحسب ، بل هو ـ مع كل ذلك ـ عامل هام في دراسة المجتمعات وتفهمها ، ودفعها إلى التعاون لخير الإنسانية جمعاء »[(٩)] .

وعند محمد غنيمي هلال أن كل دراسة تخرج عن هذه الأسس لا تعد من الأدب المقارن في شيء وتعبر عن فهم خاطئ حيناً وناقص أحياناً[(١٠)] .

لقد كانت المدرسة الفرنسية مدرسة رائدة ، وأبدت حماسة فائقة لهذا العلم الأدبي الجديد الذي أسسته . وفي محاولة لتقييم حصيلتها يمكن القول : إنها تناولت أحياناً بنجاح وحذق ، وأحياناً بآلية

(٩) اختصرنا هذا الكلام من مرافعة طويلة عن الأدب المقارن للدكتور غنيمي هلال وآثرنا التقيد بالصياغة الأصلية حتى تكون الفكرة دقيقة من ناحيتين : أولاهما صلابة المدرسة الفرنسية في تحديد مفهوم الأدب المقارن . وثانيهما التشبث التام بهذه الصلابة لدى أبرز أتباع هذه المدرسة .

انظر النص الكامل في : د . هلال : (الأدب المقارن) ، ص.ص ٩ ـ ١٩

(١٠) السابق ، ص ١٩

واضحة ، مسائل مثل الشهرة والنفوذ ، فعالجت مثلاً موضوع غوته في فرنسا ، وإنكلز وأوسيان وكارلايل وشيلر في فرنسا ، وقد طورت منهجاً يذهب إلى أبعد من جمع المعلومات التي تتعلق بالمراجعات والترجمات والتأثيرات ليتفحص بإمعان الصورة الفنية ، ومفهوم كاتب معين في وقت معين ، بالإضافة إلى عوامل النقل المتعددة كالحوليات والمترجمين والصالونات والمسافرين ، كذلك وجهت انتباهها الى (عوامل التلقي) والجو الخاص والوضع الأدبي الذي أُدخل فيه الكاتب الأجنبي . وبالإجمال ، كما يقول مؤلف كتاب (نظرية الأدب) :

« فقد جمع كثير من الشواهد عن الوحدة الصميمة بين الآداب الأوربية خاصة . كما ازدادت معرفتنا (**بالتجارة الخارجية**) للأدب »[11] .

اعتراضات على المفهوم الثاني :

وهناك اعتراضات كثيرة ومن اتجاهات متنوعة على هذا المفهوم للأدب المقارن أهمها :

أ ـ صعوبة بزوغ نسق واحد من تراكم هذه الدراسات المقارنية ، أي إن منهج هذه الدراسات المعنية بالتأثر والتأثير لا يوصل إلى غاية معينة من جهة ، ولا يتصف بخصوصية ما من جهة أخرى ، أي ليس لهذا المنهج مميزات تفرده عن غيره من مناهج البحث الأدبي . إذ ما الفرق في المنهج بين دراسة تأثير إرنست همنغواي مثلاً في الولايات المتحدة الأميركية وتأثيره في أوربة ؟ وما الفرق المنهجي كذلك بين دراسة تأثير طاغور في الشعر الهندي الحديث وبين دراسة تأثيره في الشعر العربي أو الفارسي ؟ وإلى أين يمكن أن توصل هذه الدراسات ؟.

ب ـ هناك مشكلات تنجم عن موضوع التأثيرات والعلاقات المتبادلة ولا سيما حين لا تكون المطابقة متوافرة بين الحدود السياسية والحدود اللغوية .

فمثلاً كيف نعالج العلاقة بين الأدب الفرنسي والأدب البلجيكي المكتوب باللغة الفرنسية ؟ هل نعتبرهما أدبين غريبين أم متجانسين ؟ وكيف نعالج التأثيرات بين آداب أميركا الجنوبية المكتوبة بالإسبانية أو البرتغالية وهي آداب قومية ذات بيئات خاصة ، وإن كانت تشترك في اللغة والتراث الأدبي ؟ وأين نصنف الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية والمفعم بالروح الوطنية

---

(١١) رينيه ولك وأوستن وارن : **نظرية الأدب** ، ترجمة محيي الدين صبحي ، مراجعة د . حسام الخطيب ، دمشق ١٩٧٢ . المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعية ، ص ٥٩ . وقد ظهرت لهذه الترجمة طبعات عديدة فيما بعد .

الجزائرية مثل أدب كاتب ياسين ومحمد ديب ؟ إن الحجج المتعلقة بإدخال هذه الآداب المختلفة في الأدب الذي تنتمي إليه جغرافياً والأدب الذي تنتمي إليه لغوياً تكاد تكون متساوية تقريباً .

جـ ـ مافائدة نتائج الأدب المقارن في المجال الذوقي والجمالي ؟ وإلى أي مدى تؤثر معرفة العلاقات الأدبية في تذوقنا للنصوص والأعمال الأدبية ؟ وهل يمكن أن يتقدم إدراكنا للظاهرة الأدبية بمجرد متابعتنا للسرقات الأدبية أو استقصائنا لخطوط التجارة الخارجية للأدب ؟ وكذلك ماهي الحصيلة الإنسانية لمثل هذه الدراسات الآلية ؟

وبالطبع لايعجز دُعاة نظرية (العلاقات الأدبية) عن إعطاء أجوبة معقولة لهذه الاعتراضات ومثيلاتها ، وليس من أغراض العرض الحالي أن يدخل في تفصيلات المناظرات المتعلقة بمنطق الأدب المقارن ومنطقته ، ولا سيا بعد أن أصبح جانب كبير منها وديعة تاريخية نتيجة تطور الأبحاث المقارنية . ولكن ربما كان من المفيد أن يصغي المرء إلى المناقشة التالية المستوحاة من الاعتراضات السابقة ، والمبنية على اجتهادات مؤلف الكتاب الحالي من خلال تجربته الحديثة العملية (لا التاريخية النظرية) في مجال الأدب المقارن :

أ ـ إن منهج الأدب المقارن هو فرع من منهج البحث الأدبي . ما في ذلك شك . ولكنه يقترب كثيراً من منهج البحث التاريخي ، ويراعي الدقة العلمية المتناهية ، ويُعنى بالنتائج الملموسة ، ويبتعد عن الأحكام العامة ، وهو يتطلب إلى ذلك كله معرفة واسعة بالآداب والأفكار واللغات والأذواق ، وإذا كانت معرفة هذه الأمور تُعد مزايا إضافية للمؤرخ الأدبي فإنها تشكل شروطاً أساسية عند الباحث المقارن ، ومن هنا يختلف (تأهيل) الباحث المقارن عن المؤرخ الأدبي ، وربما صعب أن يقوم أحدهما مقام الآخر على الرغم من تداخل منطقتهما وحاجة كل منهما إلى جهود الآخر .

على أن باحثاً مثل هنري رماك قد لا يرى أية ضرورة لتأصيل منهجية خاصة بالأدب المقارن ، وكذلك لا يرى ضيراً في توسيع نطاق اهتمامات الأدب المقارن والخروج به عن دائرته النوعية ، كما سنرى بعد قليل .

وبالإشارة إلى مخاوف المدرسة الفرنسية من أن اتساع نطاق اختصاص الأدب المقارن قد يعرض الباحث للسطحية فإن المرء يمكن أن يتساءل مع البروفسور هاري ليفن أستاذ الأدب

المقارن في جامعة هارڤرد : ومتى كان ضيق نطاق الاختصاص ضمانة للعمق ؟ إن الأدب المقارن ، بما يتطلبه من شمولية في الدراسة واتساع في الأفق ، يمكن أن يكون رداً على الدعوة إلى الإمعان في تحديد الاختصاص وتضييقه ، وأن مداه المتسع هو الذي يوفر له نصيباً أقوى من العمق والصحة[١٢] .

ب ـ حين تكون المسألة مسألة تداخل بين الحدود السياسية واللغوية ، فإن طبيعة البحث الميداني هي التي تحدد عملية الفرز ، أي هي التي تقرر إذا كانت العلاقة بين الآداب المشتركة لغةً ، المنفصلة حدوداً أو قومية ، هي علاقة محلية أم علاقة خارجية . وليس من الضروري في هذا المجال ولا من المفيد تطبيق معايير جامدة أو مرسومة سلفاً . ولعلَّ أبرز مثال على ذلك استمرار المناقشات حتى يومنا هذا حول الصلة المقارنة بين الأدبين الإنكليزي والأمريكي . وعلى الرغم من كثرة الدراسات المتعلقة بهذا الموضوع فإنه ما زال من أشد المسائل خلافية ، وتبدو مناهج الأدب المقارن هي الأكثر جدوى في معالجة هذا الموضوع[١٣] . يضاف إلى ذلك أن هذه المشكلة ليست مشكلة الأدب المقارن وحده ، ولكنها أيضاً مشكلة الآداب القومية المتصلة بها . فليس الأديب المقارن وحده هو المطالب بحلِّ هذه المشكلة ، لأن موقفه منها مرتبط أيضاً بموقف الباحثين في الأدب القومي منها . فإذا كان مؤرخو الأدب الجزائري مثلاً يجدون من الأسباب ما يسمح لهم باعتبار الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية جزءاً من تاريخ أدبهم الوطني ، فإنه يترتب على الأديب المقارن أن يأخذ ذلك بعين الاعتبار وأن ينطلق منه . ويتضح ذلك تماماً في موقف مؤرخي الأدب الأمريكي الذين يصرون على اعتبار أدبهم ظاهرة مستقلة ويرفضون معاملته بوصفه امتداداً للأدب الإنكليزي .

ومن فضول القول أن نشير إلى أن (الجنسية الأصلية) للكاتب لا تؤلف مشكلة . فإذا اجتمع عاملا (اللغة والوطن) معاً كان الانتماء واضحاً على الرغم من أن الكاتب قد يكون من أصل قومي مختلف . فمثلاً هناك كتّاب من جنسيات مختلفة يهاجرون إلى فرنسا أو إلى أمريكا ويندمجون في

---

(١٢) من محاضرة بعنوان (الأدب الإنكليزي والأمريكي المقارن) ألقاها بروفسور ليڤن Levin في جامعة كامبردج سنة ١٩٦٧ ، ونشر حسام الخطيب خلاصة لها بالعربية في مجلة المعرفة الدمشقية ع ٦٥ ، ص ٦ ، تموز ١٩٦٧

(١٣) المصدر السابق . وفي هذه المحاضرة تفصيلات وافية وآراء جريئة حول موضوع العلاقة بين الأدبين الإنكليزي والأمريكي ، وبالتحديد حول التأكيد على استقلال الأدب الأمريكي ، واعتبار « تاريخ الأدب الأمريكي شيئاً مختلفاً تماماً عن تاريخ الأدب الإنكليزي » .

الحياة العامة هناك ويكتبون بلغة وطنهم الجديد . وهؤلاء يؤلفون جزءاً من تاريخ الأدب القومي للبلدان التي يعيشون فيها ويكتبون بلغتها ، ومن أمثال هؤلاء في فرنسا هنري ترويا الروسي الأصل . وجوليان غرين الإرلندي الأصل ، وكذلك يعيش في الولايات المتحدة الأمريكية مئات الكتّاب من أصول غير أمريكية ، ولا حاجة بالمرء إلى تسمية بعضهم دون بعض ، ولكن ربما كان وارداً هنا أن يُشار إلى واحدٍ من أبرز أعلام النقد الأدبي في أمريكا وهو (رينيه ولك) الذي ينحدر من أصل تشيكي ، وهناك أيضاً هنري رماك ، العلم البارز في الأدب المقارن ، الذي هاجر من ألمانيا إلى أمريكا في فترة الحرب العالمية .

جـ - إن نتائج الأدب المقارن قد لاتكون ذات صلة مباشرة بالنواحي الجمالية والذوقية . ولكن حيثما اقتضى المقام البحثَ في هذه النواحي فمن واجب الأدب المقارن أن يخوض فيها . وإن الحصيلة التي تتمخض عن ذلك تكون ذات فائدة ثمينة للناقد والمتذوق على السواء . واعتماداً على نتائج الأدب المقارن يستطيع الناقد أن يحدد مدى الابتكار والأصالة في الأعمال الفنية أو مدى اعتمادها على التقليد .

ويستطيع كذلك أن يعلل وجود ظواهر فكرية أو فنية غير متوقعة في أعمال معينة ، كما أنه يستطيع الإفادة من سلاح المقارنة في تحديد القيمة الجمالية للأعمال المدروسة والتوصل إلى سرِّ تأثيرها أو شيوعها . وقد كانت المقارنة وما تزال أقوى برهان في مجال التذوق . كما أن الربط بين التجارب الأدبية المحلية والخارجية يعين الناقد كثيراً على حسن التذوق ويَقيهِ من المبالغة في تقدير قيمة أعمال محلية قد لاتصل إلى مستوى أعمال مماثلة لدى أمم أخرى ، وقد تكون شهرتها مبنية على مناسبات وملابسات إطارية ضعيفة الصلة بالقيمة الجمالية الخالصة .

وفي العصر الحديث بالذات تزداد كثيراً قيمة النتائج التي يقدمها الأدب المقارن للنقد . وذلك تبعاً لازدياد التفاعل الثقافي في العالم المعاصر وما نجم عنه من اشتراك في الأفكار والأذواق وطرز التعبير ، بحيث أصبح من غير المعقول إقدام الناقد على إصدار أحكام جمالية وذوقية على الأعمال المحلية دون الاستنارة بموجة الأذواق العالمية . ولا شك أن الاطلاع على كل هذه الأمور هو من صميم عمل الناقد المتبصر ، ولكن عمل الناقد يسهل جداً حين يقدم الأدب المقارن بين يديه نتائج دقيقة وثابتة علمياً [١٤] .

(١٤) تعرضت النظرية الفرنسية لاعتراضات أخرى ذات طابع سياسي وأيديولوجي ، ستجري الإشارة إليها من خلال شرح المفهوم الرابع بعد قليل .

المفهوم الثالث (الأدب العالمي والعام)

يحاول المفهوم الثالث أن يتجنب الاعتراضات السابقة بوساطة مطابقة الأدب المقارن مع دراسة الأدب في شموله أي مطابقته مع (**الأدب العالمي**) أو (**الأدب العام**) ولكن هذه المطابقة نفسها ملأى بالصعوبات ، وهي تتفادى صعوبات معينة لتقع في نوع آخر من الصعوبات . فالأدب العالمي weltliteratur هو مصطلح من وضع الشاعر الألماني (غوته) يتضمن تفخيماً شديداً ويعني ضمناً أن الأدب ينبغي أن يدرس على اتساع القارات الخمس كلها . إلا أن غوته لم يكن يدور في خلده مثل هذا المعنى الواسع . واستعمل المصطلح ليبشر بزمان تصبح فيه كل الآداب أدباً واحداً . ويحمل هذا المصطلح طموحاً غيبياً باتجاه توحيد الآداب جميعها في تركيب عظيم تلعب فيه كل أمة دورها ضمن ائتلاف عالمي[(١٥)] . وبالطبع يبدو هذا الطموح بعيداً جداً وإن كانت تجارب التفاعل الثقافي في العصر الحديث تشير إلى وجود خطوط كثيرة مشتركة بين الأمم ، أو على الأقل بين مناطق شاسعة من العالم المعاصر . وفي الواقع يميل العصر الحالي إلى تشجيع المحلية الشديدة والعالمية الشديدة ، فثقافته أشبه بحديقة واسعة منسقة جيداً ، ولكنها متنوعة تنوعاً شديداً . وهناك معنى آخر لمصطلح (الأدب العالمي) وهو الروائع العظيمة أي تلك السلسلة الأدبية ذات السحر المستمر التي تجمع آثار هومر ودانتي وسرفانتس وشكسبير وغوته وتولستوي ودوستويفسكي وطاغور وغارسيا لوركا وماركز . إن هذه الآثار وما في مستواها مقروءة في كل أنحاء العالم ، وفي كل عصر ، ومعترف بقيمتها الفنية والفكرية ، وهي التي تؤلف عند الكثيرين مفهوم (الأدب العالمي) ، كما هو مستخدم في أيامنا هذه ..

ومن الواضح أن الأدب المقارن يعني شيئاً آخر غير الأدب العالمي بجملته أو الروائع العالمية . وكذلك يمكن أن يقال الشيء نفسه عن مصطلح (الأدب العام) الذي يعني في الأصل نظرية الأدب ومبادئه ، أو ما كان يعرف سابقاً بالشعرية . ويكون مثل هذا البحث في الغالب متجاوزاً للحدود القومية والإقليمية ، بل لا يعنى إلا بالأفكار والأنماط الأدبية التي استطاعت أن تتجاوز الحدود المحلية إلى الآفاق العالمية الأوسع . وهذا بالضبط هو ما دفع بول فان تييغم إلى اعتبار مفهوم

(١٥) ولك ووارين، نظرية الأدب، ص ٦٠.

الأدب العام مناقضاً لمفهوم الأدب المقارن . إذ إن منطقة الأدب العام عنده هي العالم على رحبه وعلى تجاوزه للحدود في حين أن منطقة الأدب المقارن هي العلاقة بين أدب وآخر ، أي العلاقة من خلال طرفيها المحليين ..

والحقيقة أن تفريق فان تييغم بين الأدب العام والأدب المقارن بدا أحياناً أقرب إلى الشكلية والرقمية ، فالأدب المقارن اثنيني ، في حين أن الأدب العام يتجاوز الاثنين . وفيما يلي تصوره للأدب العام :

« وإننا نعني بتاريخ الأدب العام أو بالاختصار ، بالأدب العام ، نطاقاً من الأبحاث يتناول الأحداث المشتركة بين عدة آداب ، إما في علاقاتها المتبادلة وإما في مطابقتها . والأدب العام يختلف عن مختلف الآداب القومية ، وعن الأدب المقارن ..

وإن أبحاثه ، لما كانت هنا لاتتعلق بدراسات الآداب دراسة جمالية أو نفسية مجردة عن تطورها التاريخي ، ولما كانت تتخذ كذلك وجهة النظر العالمية الواسعة إلى حدٍّ بعيد .. كان بإمكانها أن تدرس المواضيع المحددة خلال الفترات القصيرة »[١٦] .

وعلى الرغم من الاختلاف بدا له أن الأدب العام « تتمة طبيعية » للأدب المقارن ، وفي حالات أخرى نجده يقرر أن تعبير « تاريخ الأدب العالمي هو التعبير الأفضل » من تعبير الأدب العام[١٧] .. على أنه ، بمعنى من المعاني ، يمكن أن تبحث مثلاً نظرية الأنواع الأدبية والمذاهب المختلفة كالرومنتية والرمزية والواقعية تحت عنوان (الأدب العام) ، وهذا بالطبع يقربه من الأدب المقارن ، ولكن يظل للأدب المقارن منطق آخر ومنطقة أخرى . ولعلّه يحسن بنا أن نشير إلى أنه في حين يبحث كل من الأدب العالمي والأدب العام عن نواحي التوافق المشتركة ، يبحث الأدب المقارن في التأثيرات المتبادلة التي نشأت في الأصل عن التباين ، لأنه لولا افتراض عدم وجود التوافق ، لما وجدت حاجة للتأثيرات ، فالأدب المقارن فنٌّ المختلف ، في حين أن الأدب العالمي والأدب العام يقومان على المؤتلف ..

ويكاد يتوافر اليوم شبه إجماع على التفريق الواضح بين الأدب المقارن والأدب العام والأدب

---

(١٦) ڤان تييغم ، ص ١٤٦

(١٧) السابق ، ص ١٤٦

العالمي ، كما سيتضح بعد قليل من تحديدات رماك ، وربما كان مصطلح (الأدب العام) يزداد اليوم غموضاً ، وبالتالي يختفي تدريجياً من القاموس البحثي ، وإن كانت الجامعات التقليدية تربط بينه وبين الأدب المقارن في تقسيماتها المعرفية والتنظيمية . فهناك أقسام كثيرة في الجامعات الغربية تحمل اسماً مشتركاً هو : « قسم الأدب العام والمقارن »[١٨] وهناك منشورات جامعية كثيرة تحمل الاسم المشترك نفسه[١٩] ، وإن كان المضمون عادة مشحوناً بالأدب المقارن ..

والخلاصة : أن المطابقة بين الأدب المقارن والأدب العام والأدب العالمي حدثت في فترات مختلفة ، وما زالت تحتفظ بآثار كثيرة حتى اليوم ، ولكن اتجه كل من الأدب المقارن والأدب العالمي إلى التبلور ، في حين ظلّ الأدب العام مصطلحاً غائماً ..

ومما يجدر ذكره أن تعريف ڤان تييغم (الوارد آنفاً) للأدب العام يكاد ينطبق على المفهوم الأمريكي المعاصر لمصطلح الأدب المقارن ..

المفهوم الرابع (اتجاهات معاصرة)

في العصر الحديث ارتفعت أصوات عديدة معترضة على ما يمكن أن يسمى بالتزمت في منهجية (الأدب المقارن) . وقد رأينا سابقاً كيف أن الاعتراضات الرئيسية كانت قائمة على التشكيك في حقيقة وجود شخصية خاصة لمنهج الأدب المقارن ونسقه وهدفه من بين حقول البحث الأدبي الأخرى .

وتتجه المدرسة الأمريكية اليوم إلى التوسع الشديد في مفهوم الأدب المقارن ليشمل المقارنة بين الآداب المختلفة مع التجاوز عن شرط وجود علاقة تبادلية بينها ، كما أن في الأمريكيين من يسند إلى الأدب المقارن مهمة دراسة العلاقات بين الأدب وفروع المعرفة الأخرى ولا سيما في مجال الفنون والعلوم الإنسانية . فعند هـ . هـ . هـ . رماك Remak مثلاً يمكن تعريف الأدب المقارن أنه :

---

(١٨) مثال ذلك جامعة أوترخت في هولندا ، وجامعة ولاية تكساس في أمريكا ، والأمثلة كثيرة ..

(١٩) أوضح مثال لذلك « الكتاب السنوي للأدب العام والمقارن » الذي يعد المرجع الأساسي لتطورات الأدب المقارن في أمريكا ، ويسهم في إصداره مسؤولون في الرابطة الدولية للأدب المقارن ، ويشرف عليه اليوم (حتى أوائل التسعينات) هنري رماك من جامعة إنديانا ..

Yearbook of General and Comparative Literature, Indiana University.

والأرجح أنه سينقل إلى جامعة أمريكية أخرى بعد أن انتقل من إنديانا محرر الكتاب أُلرش ڤايشتاين .

« مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخرى ، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني »[٢٠] .

ولكن برزت مجدداً اعتراضات من نوع آخر مفادها أن المقارنين الأوائل - وهم أوربيون - كانوا أسرى النظرة الاستعمارية الأوربية واعتبروا آداب العالم كلها إما منبثقة عن ، أو منصبة في ، بحر الآداب الأوربية ، ولم يعطوا الآداب الآسيوية والإفريقية والأمريكية الجنوبية حقها من البحث والاستقصاء ، وإنما سمحوا لأنفسهم في أن يغرقوا في دوامة العلاقات فقط .

ويطالب هؤلاء بأن تتوسع نظرة الأدب المقارن لتشمل البحث عن المشابهات في الأفكار الأدبية وفي الذوق الجمالي ، لأنه بغير ذلك لايكون الأدب المقارن فعالية حية مرتبطة بقضايا العصر . وهم لا يشترطون وجود علاقة تاريخية أو تأثر وتأثير في منطقة الأدب المقارن ، إنما يعتبرون المشابهات الجمالية والذوقية أساساً للبحث ووسيلة لاكتشاف العنصر المشترك على مستوى الإنسانية .

وقد برزت هذه الاتجاهات قوية خلال المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للأدب المقارن (بودابست ١٩٧٦) .

وهناك عدد من اليساريين ، الفرنسيين دعوا بقوة إلى هذا المفهوم الذي لم تتبلور ملامحه بعد . ومن أبرز هؤلاء رينيه إيتامبل الذي : يعطي الأولوية لعنصر الأدب في المقارنة وليس العكس ... وهو الخطأ الذي وقعت فيه المدرسة التقليدية الفرنسية في الأدب المقارن ... كما أن الثقافة الموسوعية لإيتامبل طبعت نزعته في الأدب المقارن بطابع الشمولية والكونية التي لا تحتقر مسبقاً أية ثقافة أو أي شعب ، لأنها تقاوم كل شوفينية وعنصرية بدءاً بالفوقية الأوربية »[٢١] .

وقد هاجم إتامبل مواطنه ماريوس - فرانسوا غويار ، واتهمه بالتعصب الإقليمي والقومي ، وبتركيز كل أضواء التأثير على الأدب الفرنسي ، وأيّد معارضيه من الأمريكيين وغيرهم ، وسخر منه حين أعاد طباعة كتابه (الأدب المقارن) عام ١٩٥٨ ، واستغرب كيف أن غويار لم يشعر بالتطورات الكبرى التي حدثت في مفهوم الأدب المقارن في الخمسينات ، سواء في أوربة الغربية أم

(٢٠) يعتبر رماك من أبرز الباحثين الأمريكيين في الأدب المقارن اليوم ، وسوف نعرض نظريته بالتفصيل بعد قليل .

(٢١) الكلام للدكتور جمال شحيد من مقال له بعنوان : « **رينيه إيتامبل** : من أعلام المدرسة الفرنسية الحديثة في الأدب المقارن » ، **ملحق الثورة الثقافي** ، دمشق ، س ٢ ، ع ٢٧ ، في ١٩٧٧/١٢/١

الشرقية ، وجرؤ على إعادة طباعة كتابه الذي نشر للمرة الأولى عام ١٩٥١ دون أن يغير أية كلمة مما قاله في ذلك الحين[٢٢] .

وأعلن إيتامبل بوضوح :

« أن أولى المهمات المطلوبة من المقارنين هي أن ينحوا جانباً من الآن فصاعداً كل شكل من أشكال الشوفينية والإقليمية ، وأن يعترفوا أخيراً أن حضارة الإنسانية التي جرى في سياقها تبادل القيم على مدى آلاف السنين ، لا يمكن أن تفهم أو تُتذوق دون إشارات متواصلة إلى هذه التبادلات ، التي تقتضي تركيبيتها منا ألا نركز نظام بحثنا حول لغة واحدة معينة أو بلد واحد معيّن »[٢٣] .

ودعا إيتامبل زملاءه الفرنسيين إلى الخروج من الحلقة الضيقة للآداب الأوربية ، وإلى الاتصال بآداب الشرق الأقصى كالصين واليابان ، والاهتمام بحقول جديدة من المعرفة الأدبية مثل (الأسلوبيات Stylistics) والعلوم البلاغية الأخرى كالاستعارة والبديع ، وعلم البنية الأدبية ، كما لفت النظر إلى أهمية علم الترجمة الذي يعدّ العصب الحساس للتبادلات الأدبية وبالتالي للأدب المقارن .

ومن الموضوعات التي اقترحها إيتامبل مثلاً لتكون موضوع بحث للأدب المقارن في المستقبل : تأثير الوضعية الفرنسية في أمريكا اللاتينية ، والعلاقات بين اليهود والمسلمين والمسيحيين في الأندلس ، والمؤثرات الغربية في الأدب الياباني بعد ثورة الميجي ، وتطور الأفكار العنصرية في أوربة منذ اكتشاف أمريكا وإفريقية السوداء .

وبعد أن هدأت تلك الضجة الكبرى التي أثارها إيتامبل يستطيع دارس الأدب المقارن اليوم ، أن يعترف أن المنطلقات العامة لاعتراضات إيتامبل وأتباعه صحيحة ، ولكنها انساقت إلى شطط كبير من الناحية العلمية ، كاد يعصف بالأدب المقارن ويلغي أية خصوصية له تحت ذريعة الانفتاح الإنساني ، والثورة على المركزية الأوربية ، وهي شعارات صحيحة ومغرية ، إلا أنها عرفت بطريقة تبشيرية وعاصفية . وقد يكون لهذا الموقف مسوغ تاريخي في إبانه إذ كان

(٢٢) انظر مناقشته المتعة لهذا الأمر في ص ٥ من كتابه المترجم إلى الإنكليزية :

René Etiemble: The Crisis in Comparative Literature, Michigan State University Press, 1966

(٢٣) السابق ، ص ٦

« النقيض » الطبيعي للمركزية الأوربية . على أن الإنصاف يقتضي أن يعترف المرء أن المقارنين الفرنسيين الأوائل كانوا رواد علم أدبي جديد ، وكانت لهم حماستهم العلمية المشروعة أيضاً . وكذلك كانت المرحلة التاريخية التي نشأ تفكيرهم المقارني في إطارها مرحلة سيادة كاملة لأوربة على عالم (ثالث) غارق في التخلف ، ولم يكن هناك أي أساس للتبادل الثقافي .

وفي أبسط الأحوال كان من الطبيعي أن يبدأ هؤلاء بمقارنات آدابهم التي يعرفونها قبل غيرها . وهناك ما يشير إلى أنهم من الناحية النظرية على الأقل ، لم يكونوا غافلين عن رسالة الأدب المقارن في الانفتاح الإنساني ، وفي تبديد سحب النرجسية القومية والمحلية التي كانت ـ وما زالت ـ تسيطر على أذهان الناس في كل بلد وأذواقهم . وها هو م. ف. غويار ، الذي تعرّض لأعنف هجوم من إيتامبل، يكتب عن (أمنية المستقبل) في نهاية كتابه (**الأدب المقارن**) :

« ففي الواقع إن كل امرئ يشعر شعوراً كافياً أن المبادلات الثقافية هي إحدى الآمال الإنسانية الراهنة . وكذلك المقارنية ـ حين تكتب تاريخ العلاقات الأدبية الدولية ـ تُبين أن أي أدب لم يستطع قط أن ينعزل دون أن يضعف ، وأن أجمل أنواع النجح القومي قد اعتمد اعتماداً دائماً على مجتلبات الأجانب ، سواء أكان ذلك النجح يهضمها ، أم كان يبرز ضدها ويفضلها في صورة أكثر وضوحاً . وفي الوقت ذاته نشاهد أن المقارنية تساعد كل شعب على أن يتتبع في نفسه نشأة سرابه ، الذي يُتخذ غالباً على أنه صور أمينة ، وذلك درس في الاستنارة والتواضع ، له من القيمة ما للدروس التاريخ التي هي مجحودة ، لكنها يقينية ، وإرادة فهمها من شأن كل شعب وكل فرد »[٢٤] .

وقد جاء هذا الكلام من كاتب أثار ضجة في أوربة وأمريكا لشدة تركيزه على التأثيرات الخاصة للأدب الفرنسي . والحقيقة أن الإنسان ـ بقدر ما يتعاطف مع دعوة إيتامبل الجريئة ـ لا يستطيع إلا أن يقدر الظروف التاريخية لنشأة المدرسة الفرنسية .

وأخيراً لا بدَّ أن نلاحظ أن الاعتراضات على المدرسة التقليدية الفرنسية انصبت من اتجاهات متعددة ومن زوايا نظر متباينة وأحياناً متعاكسة ، وأدت بمجملها في النتيجة إلى الاتجاه بالأدب المقارن نحو المرونة والتوسع في المنطقة والمنطق ، والسعي نحو الأفق الإنساني الأرحب ، وخدمة قيم التفاهم بين الشعوب .

(٢٤) غويار : الأدب المقارن ، ص ص ١٨٠ - ١٨١

الفصل الثالث :

نظرات أمريكية للخروج من المعضلة باتجاه الانفتاح

أ ـ رينيه ولك يحاكم التعامل الخارجي بين الآداب

منذ أن دخل الأمريكيون عالم الأدب المقارن أظهروا عزوفاً شديداً عن التقيد بتشديدات المدرسة الفرنسية ، وأحبوا دائماً أن يوسعوا باب الأدب المقارن لتدخل فيه مختلف النزعات العالمية والفنية والأدبية الخالصة . ولا بدّ للمرء من أن يأخذ النظرية الأمريكية بجدية كافية ، وما ذاك بسبب ما تقدمه من حلٍّ ذي قيمة ذاتية فحسب ، بل لأن الأمريكيين أبدوا بالتدريج ، ولا سيما خلال ربع القرن الماضي من الاهتمام بالأدب المقارن والانصراف إليه وتنظيم دراسته في الجامعات ، ما أهّلهم لأن يناطحوا مناكب الفرنسيين في مجال زعامة هذا الحقل المعقد من البحث الأدبي ، وأن يزحزحوهم عن مواقعهم ، وربما في النهاية لأن يبرزوا قوةً فائقة (سوبر باور) مرهوبة الجانب في هذا المجال .

وإذا كان هذا النمو المتصاعد في الدراسات المقارنية عند الأمريكيين يفسر في الجانب الظاهر منه بضخامة الإمكانات التي تضعها الجامعات الأمريكية بين يدي الباحثين من مثل التمويل ، والتسهيلات المكتبية المختلفة ، وفرق البحث المشترك ، فإنه في الجانب غير الظاهر منه ، ربما يرجع إلى رغبة خفية لدى القائمين على الجامعات في فتح النوافذ الأمريكية على نتاج الآداب العالمية في وسط مجتمع دينامي كبير غارق في مشكلاته الخاصة ، ضعيف التأثر أو الإحساس بما يجري في مناطق أخرى من العالم ، مشغول بالعلاقات الغريبة بين ولايات القارة الأمريكية أكثر مما هو مشغول بالعلاقات بين البلدان والقارات . بل ربما كانت هذه الانعطافة الأدبية تتضافر مع غيرها من البوادر لتشكل نذير عصر أمريكي مطلٍّ على المستوى العالمي الحضاري ـ الثقافي مثلما هو مطلّ على المستوى السياسي ـ العسكري ـ الاقتصادي .

وبعيداً عن التفصيلات التاريخية ، التي قد لا تهم سوى المتخصصين في الأدب المقارن الأمريكي ، يمكن القول إن الفضل في بلورة التفكير الأمريكي في الأدب المقارن يعود بوجه خاص إلى العلمَيْن البارزين : رينيه ولك ، وهـ . هـ . هـ . رماك . وقد وضع ولك أسس هذا التفكير ولكنه لم يتابع الشوط بسبب انشغاله بتخصصه الأساسي في النقد والتاريخ الأدبي . أما نظيره رماك فقد تابع قضية الأدب المقارن متابعة تخصصية تتصف بالدأب والحماسة المتوهجة ، سواء من خلال التدريس الجامعي في جامعة إنديانا ، أم من خلال إسهاماته النظرية والتطبيقية الغزيرة ، أم من خلال مشاركاته المتواصلة في مؤتمرات الأدب المقارن ، ولا سيا في نشاطات الرابطة الدولية للأدب المقارن . ومن هنا سوف تكون لنا وقفة طويلة عند رماك . أما (ولك) فسنحاول أن نلمّ بالنقاط البارزة من تفكيره المقارني بإيجاز[٢٥] .

١ ـ مصطلح الأدب المقارن كما فهمه الفرنسيون متعب وشامل لمجالات مختلفة من الدراسة الأدبية ، ولذلك تطور هذا النظام المعرفي ببطء .

٢ ـ اقتصر المفهوم الفرنسي على المشكلات الخارجية مثل المصادر والتأثيرات والشهرة . وخطورة هذه المشكلات أنها قد تركز الاهتمام على كتاب الدرجة الثانية أو على الوسط الزمني التاريخي وتهمل الجوهر الأدبي للظاهرة المدروسة ، وبذلك تكون نوعاً من (التجارة الخارجية) للآداب متعاملة مع أجزاء متقطعة من النتاج الأدبي وليس على العمل المحدد بكليته المعقدة .

٣ ـ أفضل دفاع عن الأدب يكون بالتركيز على منظوره وروحه ، أي بدراسة الأدب من منظور دولي ، ومن هنا يكون الأدب دراسة مستقلة عن حواجز السياسة والجنس واللغة ، كما أنه لا يمكن أن ينحصر في منهج واحد ، فالوصف ، والتشخيص ، والتفسير ، والقصُّ ، والتوضيح ، والتقويم ، كلها تستخدم في معالجته ، كما تستخدم المقارنة تماماً ، وتشمل المقارنة ـ كذلك ـ اللغات والأجناس الأدبية التي لا ترتبط تاريخياً ، كما أنه لا يمكن أن ينحصر في تاريخ الأدب ويستبعد النقد والأدب المعاصر ، إذ لا يمكن أن يُعدّ المنهج التاريخي هو المنهج الممكن الوحيد حتى بالنسبة لدراسة الماضي ، لأن الأعمال الفنية آثار وليست وثائق .

٤ ـ هناك ثلاثة أفرع أساسيّة للدراسة الأدبية هي : التاريخ الأدبي والنظرية والنقد ، وكل

(٢٥) يمكن أن نلفت النظر هنا إلى أن معظم الدارسين العرب تحدثوا عن النظرية الأمريكية من خلال (ولك) ولم يشيروا إلى رماك .

منها يتضمن الآخر . والأدب المقارن ، شأنه شأن الأدب القومي ، لا يستطيع أن ينفصل عن دراسة الأدب في جملته ، ولن يستطيع الأدب المقارن أن يفيد ويخصب إلا إذا تخلص من الحدود المصطنعة وأصبح مجرد دراسة للأدب .

٥ ـ من مهمات الأدب المقارن إعادة كتابة التاريخ الأدبي بوصفه تركيباً وعلى مستوى فوق القوميات ، ودراسة الأدب المقارن بهذا المعنى تتطلب كفاءات لغوية ومنظورات واسعة وإخماداً للعواطف المحلية والإقليمية ، وهي أمور ليست سهلة ، ويجب النظر إلى الأدب على أنه كلٌّ واحد على المستويين الفني والإنساني(٢٦) .

ومن الواضح أن ولك يمثل اتجاهاً أمريكياً إطلاقياً ، لا يرى للدراسة المقارنية أية حدود ويدخل فيها المقارنة المفتوحة وعلاقة الأدب بالفنون والمعارف الأخرى .

ب ـ رماك يضع أسساً لنظرية أمريكية

في مقالته التأسيسية :« الأدب المقارن ، تعريفه ووظيفته » ، يبسط هنري هـ . هـ . رماك مجمل النظرية الأمريكية في الأدب المقارن .

إن رماك منهجي ومباشر ومتجاوز للمقدمات ، مثله مثل سائر الكتاب الأمريكيين ، وهاهو يبدأ دراسته ، التي أصبحت فيما بعد مرجعاً ثقةً ، بمنتهى الوضوح والتحديد :

الأدب المقارن هو دراسة الأدب خلف حدود بلد معين ، ودراسة العلاقات بين الأدب من جهة ومناطق أخرى من المعرفة والاعتقاد من جهة أخرى ، وذلك من مثل الفنون (كالرسم والنحت والعمارة والموسيقا) والفلسفة ، والتاريخ ، والعلوم الاجتماعية (كالسياسة والاقتصاد والاجتماع) ، والعلوم والديانة ، وغير ذلك . وباختصار هو مقارنة أدب معين مع أدب آخر أو آداب أخرى ، ومقارنة الأدب بمناطق أخرى من التعبير الإنساني »(٢٧) .

---

(٢٦) ظهرت بذور هذه الأفكار بشكل مبكر في كتاب نظرية الأدب (الطبعة الأولى ١٩٤٩) الذي سبقت الإشارة إليه ، ثم تبلورت فيما بعد من خلال مرافعات ولك في مؤتمرات الرابطة الدولية للأدب المقارن . من أجل التصور الأساسي راجع : نظرية الأدب ، ص ص ٥٧ ـ ٦٦ ، ولا سيما الصفحات الخمس الأولى .

(٢٧) ظهرت هذه المقالة أولاً سنة ١٩٦١ ثم أعاد رماك نشرها سنة ١٩٧١ منقحة ومزيدة ومفصلة دون أن يغير من منطلقاتها الرئيسية . ويمكن مراجعتها في كتاب : « الأدب المقارن : طريقته وأفقه » . عنوان المقالة : « الأدب المقارن : تعريفه ووظيفته » . =

ويؤكد رماك أن تعريفه هذا مقبول لدى معظم دارسي الأدب المقارن ولكن ليس لديهم جميعاً . وهو يدرك تماماً الفرق الشاسع بين هذا التعريف وبين تعريف مدرسة المقارنين الفرنسية ، ولا سيا فيا يتعلق بالنواحي التالية :

أ ـ صحيح أن القسم الأول من التعريف يتماشى على نحو عام مع مفهوم المدرسة الفرنسية الأصلي للأدب المقارن ، ولكن هناك اختلافاً شديداً في نقطة التركيز ولا سيا في مجال المسائل العملية . ذلك أن المدرسة الفرنسية تفضل الخوض في المسائل التي يمكن أن تحلّ على أساس البيّنات الملموسة ، المستندة غالباً إلى الوثائق الشخصية . **وهي تحاول أن تستبعد النقد الأدبي من منطقة الأدب المقارن** . وتنظر شزراً إلى الدراسات التي تعتمد على مجرد المقارنة ، مجرد بيان أوجه الشبه وأوجه الخلاف . وحتى مسائل التأثير كان يجري تناولها بحذر ، وقد دعا كل من كاريه وغويار إلى التركيز على مسائل مثل الاستقبال والوسطاء والسفر إلى الخارج ، أي وسائط انتقال المادة الأدبية . وكذلك اهتمّا بدراسة المواقف تجاه بلد معين في أدب بلد آخر خلال فترة محددة . وخلافاً لڤان تييغم كان هذان الباحثان يستريبان في مصطلح (الأدب الأوربي) لما ينطوي عليه في رأيها من تبسيط خطير ومزالق غيبية (ميتافيزية) .

على أي حال كان هناك انهماك فرنسي في دراسة التأثيرات واجتناب لمسائل التذوق الفني والتقييم ، مع أنه ـ في رأي رماك ـ يمكن للدراسة المقارنة غير القائمة على أساس التأثير أن تفسح مجالاً أكبر لإيضاح جوهر النتاج الأدبي ، فكأنما الانهماك في مسألة التأثير حجب هذا الجوهر .

ويأخذ رماك على كل من كاريه وغويار ، شدة الحذر التي نَأتْ بها عن التوصل إلى تركيبات واسعة النطاق وشاملة في الأدب المقارن (كابتعادهما عن مفهوم « الأدب الأوربي » مثلاً) . وهو يشير بحق إلى أن الباحث لا يستطيع أن ينتظر إلى الأبد حتى تتجمع لديه كل حقائق أجزاء التركيب وتثبت صحتها .

وفي رأيه أنه :

= «Comparative Literature: Its Definition and Function» by Henry H. H. Remak, in: **Comparative Literature: Method and Perspective,** edited by Newton B. Stalknecht and Horst **Frenz, Arcturus Books, October 1973, U.S.A.**

« حتى لو نجح جيل مفرد في تجميع كل المعلومات حول كاتب بعينـه أو موضوع بعينـه ، فإن هذه الحقائق نفسها سوف تخضع ـ ولا بدّ لها من أن تخضع ـ لتفسيرات مختلفة على يد أجيال مختلفة . إن البحث يجب أن يأخذ قسطاً معقولاً من الحذر ، ولكن لا ينبغي له أن يُصاب بـالشلل نتيجة وهم الكمال » .

وهكذا ، إذن ، لا يشترط رماك ثبوت التأثر والتأثير أساساً للدراسة المقارنة ، وبذلك يفرغ المدرسة الفرنسية من منطقها وفلسفتها ، ويجازف بتقريب الأدب المقارن من النقد الأدبي ، ذلك أنه ما لم تتوصل المقارنة المقصودة إلى نتائج معينة خارج نطاق التذوق الأدبي فإنها تتعرض لأن تغدو عملاً خاصاً لحساب النقد الأدبي . ومن المعروف أنه من بين الأسلحة التي استعملها النقد الأدبي عبر العصور ثبت أن سلاح (المقارنة) هو الأشد مضاء والأكبر قدرة على الإقناع . ويرتبط التذوق الجمالي عادة ارتباطاً وثيقاً بالمقارنة ، ولا سيما في ممارسته اليومية . إن المقارنة هي الأداة النوعية للتذوق الجمالي ، والمدرسة الفرنسية لا تطمئن كثيراً إلى هذا السلاح ذي القابلية الفنية الكبرى ، وإن كان غير فني بالضرورة ، لأن ميدانها هو البحث العلمي لا التذوق الفني .

ب ـ وبالنسبة للقسم الثاني من التعريف الذي يدور حول **العلاقة بين الأدب وحقول المعرفة الأخرى** ، يوجد في رأي رماك اختلاف جذري بين المدرستين الأمريكية والفرنسية . إذ نادراً ما أبدى الفرنسيون من مثل ڤان تييغم وغويار وإيتامبل التفاتاً نحو هذه العلاقة ، واستمر ذلك لدى الأجيال اللاحقة ، في حين جرى تركيز شديد على هذه المسألة من قبل الباحثين الأمريكيين ، وإن كان بعضهم يصرُّ على أن تتمَّ المقارنة من خلال اختلاف جنسيات الآداب . وبالطبع يهتم الفرنسيون بالمقارنة بين الفنون المختلفة ، ولكنهم لا يعتقدون أنها تدخل في نطاق الأدب المقارن .

على أن رماك لا يحب أن يظهر بمظهر المدافع عن النظريات الأمريكية ، وهو يتقبل الملاحظات والتحفظات على هذه النظريات بشيء من الاقتناع ، فمثلاً يشير إلى أن مجرد دراسة الأدب القومي خارج حدوده ترتب على الباحث المقارني عبئاً مضاعفاً ، فما بالك إذن بالتصدي لعلاقة الأدب نفسه بما هو خارج حدوده الأدبية ؟ ألا يقود ذلك إلى البهلوانية والاستعراضية ؟ ويعترف رماك باعتراض آخر يمس الجوهر ، مفاده أن إدخال هذا الموضوع في نطاق الأدب المقارن ، لا بد من أن يسوق إلى الخوض في موضوعات أخرى كثيرة ، ربما ينضوي بعضها تحت

عنوان (الأدب العام) ، بحيث يتسع مفهوم الأدب المقارن إلى درجة أنه يمكن أن يشمل كل ما يتصل بالأدب ، ومثل هذا الاتساع يجرد الأدب المقارن من منطقه ومعناه .

وعند رماك هناك فرق واضح بين القول بأن مهمة الأدب المقارن هي دراسة الأدب القومي خارج حدوده الجغرافية ، وبين القول بأن مهمته هي دراسة امتدادات الأدب خارج حدود الأدب الخاصة . وفي حين أن التحديد الجغرافي لمصطلح الأدب المقارن بالمعنى الأول واضح وملموس بشكل كاف ، فإن الامتدادات النوعية للأدب وفقاً للمفهوم الأمريكي تثير مسائل خطيرة حول تخطيط حدود الأدب المقارن ، ويعترف (رماك) أن الباحثين الأمريكيين رغبوا حتى الآن عن التصدي لهذه المسائل في إطار أدب قومي واحد . ويتساءل رماك : هل يمكن أن يكون عامل المقارنة المشترك بين هذه الموضوعات فكرة (اللازمة) المتكررة هنا وهناك . ولكن (اللازمة) هي جزء عضوي من العمل الأدبي ، وهي شيء في صميمه لا زيادة خارجة عنه . وتحت عنوانات مثل (الأنواع الأدبية) و (التيارات الأدبية) نجد دراسات حول الرواية الأمريكية ، والجيل الإسباني لعام ١٨٩٨ وغير ذلك . **ويشير رماك بحق إلى أن التيارات والحركات الأدبية ضمن أدب قومي واحد لا يمكن بأي حال أن تكون (أدباً مقارناً) ولو التمسنا لها المعاذير . إن احتواء فهارس بالدينسبرغر وفريدريش على كل هذا التنوع يؤدي إلى مفهوم كاذب للأدب المقارن ، وإن إفساح المجال لاحتواء الأدب المقارن على كل شيء يتصل بالأدب يجعل منه مصطلحاً غير ذي معنى تقريباً .**

ويدعو رماك إلى مزيد من الدقة في المستقبل إزاء تحديد (مقارنية) أي موضوع معطى بحيث لا يدخل في نطاق الأدب المقارن من الموضوعات إلا ما كان مناسباً ومسوَّغاً . فمثلاً ينبغي التأكد من أن المقارنات بين الأدب وبين حقول أخرى غير أدبية لا تدخل في نطاق الأدب المقارن إلا إذا كانت نسقية Systematic وإلا إذا جرت دراستها باعتبارها نظاماً Discipline غير أدبي قابلاً للانفصال ومستقلاً . إن رماك يشعر تماماً بدقة المشكلة ، وفي أعماقه يدرك جيداً أن توسعه في تحديد مجال الأدب المقارن يحمل خطر انزلاق هذا النسق العام للدراسة الأدبية ، وبالتالي فقدانه لخصوصيته ولمسوِّغ وجوده ، ولذلك يحاول أن يلجأ إلى التحديد الدقيق :

« ولا نستطيع أن نصنف الجهود البحثية تحت عنوان (الأدب المقارن) لمجرد أنها تعالج تلك الجوانب الداخلية للحياة والفن التي لا بد من أن تنعكس حتماً في كل أدب ، وإلا فما الذي يمكن أن

يتناوله الأدب سوى هذه الجوانب ؟ إن بحثاً حول المصادر التاريخية للمسرحية الشكسبيرية لا يمكن أن يكون من (الأدب المقارن) إلاّ إذا كان مركزاً حول بلد آخر ، أو كان التأريخ والأدب فيه القطبين الرئيسيين للبحث ، وكانت الحقائق والأخبار التاريخية وتمثلاتها الأدبية قد أخضعت لتقييم ومقارنة نسقيين ، وكانت النتائج التي تمّ التوصل إليها ذات صلة بكل من المنطقتين المعنيتين . إن معالجة لموضوع دور النقود في رواية بلزاك (الأب غوريو) لا يمكن أن تكون مقارنة إلا إذا كانت معنية بشكل رئيسي (لا لمجرد سبب عرضي) بعملية التشرب الأدبي لنسق مالي متماسك أو لمجموعة من الأفكار . وإن البحث في الأفكار الدينية والأخلاقية لهوثورن أو (ملفيل) لا يمكن أن يعتبر مقارنياً إلا إذا تناول بالمعالجة حركة دينية منظمة مثل (الكلفينية) أو مجموعة من المعتقدات . وإن تتبع شخصية ما في رواية لهنري جيمس لا يمكن أن يكون ضمن حدود الأدب المقارن إلا إذا طور نظرة منهجية لهذه الشخصية في ضوء النظريات النفسية لفرويد ـ أو إدلر أو يونغ ، أو غيرهم ـ » .

ويعترف رماك أنه ، من خلال هذا الاحتراز ، يميل إلى تفضيل المفهوم الأمريكي للأدب المقارن . ويشدّد رماك على ضرورة العمل الجاهد من أجل التوصل إلى حد أدنى من المعايير المترابطة التي ترسي حدوداً واضحة لأي حقل مقترح ، ولكن في الوقت نفسه يحذر من المبالغة في التأكيد على الوحدة النظرية لئلا تؤدي إلى إهمال الجانب الوظيفي الهام للأدب المقارن . ويقول رماك تحديداً :

« مهما يكن من أمر طبيعة الخلاف حول الجوانب النظرية للأدب المقارن فهناك اتفاق على مهمته : أن يعطي الدارسين والمعلمين والطلاب ، وأخيراً وليس آخراً القراء ، فهماً للأدب بكليته أفضل وأكثر شمولاً وأقدر على تجاوز جزئية أدبية منفصلة أو عدة جزئيات معزولة . وإنه يستطيع أن يفعل ذلك لا عن طريق إقامة الصلة بين آداب متعددة فحسب ، بل كذلك عن طريق الوصل ما بين الأدب وما بين حقول أخرى من المعرفة والنشاط الإنساني ، ولا سيما الحقول الفنية والأيديولوجية ، وذلك بتحديد الاستقصاء الأدبي على النطاقين الجغرافي والنوعي » .

بين الأدب المقارن والأدب القومي :

هناك مناطق ومصطلحات كثيرة تتجاور وتتداخل مع (الأدب المقارن) : الأدب القومي والأدب العالمي والأدب العام . ولا بد من إيضاح معاني هذه المصطلحات حتى يصبح ممكناً تحديد مصطلحات الأدب المقارن .

ليس ثمة فرق جوهري بين مناهج البحث في الأدب القومي وفي الأدب المقارن ، ولا تختلف مثلاً مقارنة راسين مع كورني عن مقارنة راسين مع غوتة . على أن هناك من الموضوعات التي يواجهها البحث في الأدب المقارن ما يتجاوز حدود دراسة الأدب القومي : التماس والتصادم بين الثقافات المختلفة بوجه عام ، والمسائل المتعلقة بالترجمة بوجه خاص . وهناك موضوعات أساسية واردة في دراسة الأدب القومي ترد في الأدب المقارن من خلال أنماط مختلفة نوعاً ما ، وتميل إلى احتلال منزلة أكثر أهمية فيه : الزي ، والنجاح ، والاستقبال ، وتأثير الأدب ، وكذلك السفر والوساطات .

وحتى من الناحية الجغرافية يصعب أحياناً وضع تمييز محكم بين الأدب القومي والأدب المقارن . وكيف يمكن أن نتعامل مع مؤلفين يكتبون لغة واحدة ولكنهم ينتمون إلى أمم مختلفة ؟ وربما كان علينا ألا نتردد في عقد مقارنة لصالح الأدب المقارن بين جورج برناردشو و هـ.ل. منكن Mencken ، أو بين سين أوكيزي Sean OCasey وتنيسي ويليامز ، ولكن حين نرتد إلى الأدب الإنكليزي والأمريكي في فترة الاستعمار الاستيطاني ، فإن القضية تصبح ، كما أشار ولك Wellek ، أقل قابلية للتحديد . وقد كان ماترلينك Maeterlink وفيرهايرن بلجيكيين يكتبان بالفرنسية ؛ فهل تُعد دراسة لعلاقتهما الحميمة مع الرمزية الفرنسية دراسة مقارنة ؟ » .

ويعطي رماك أمثلة كثيرة على التداخل اللغوي للآداب القومية ، وبعد ذلك يثير نقطة شديدة الأهمية تتعلق بالتغيير القانوني الذي يطرأ على جنسية بعض الأدباء أحياناً . ويؤكد وجود فرق بين ما أسفر عنه من تأثير في الإنتاج الأدبي انتقال ت.س.إليوت إلى المواطنة البريطانية ، وانتقال توماس مان إلى المواطنة الأمريكية .

وبالمقابل هناك مؤلفون ينتمون إلى أمة واحدة ولكن يكتبون بلغات أو بلهجات مختلفة . هناك مشكلة علاقة الأدب الويلزي بالأدب الإنكليزي ، وعلاقة الأدب الفلمنكي بالفرنسي (في بلجيكا) ، وعلاقة الأدب الصقلي بالإيطالي ، والأدب الأوكراني بالروسي ، والأدب الباسكي والكاتالاني بالأدبين الإسباني والفرنسي ، وهذه العلاقات تثير مسائل لا بد من معالجتها حالة فحالة . ويحدد رماك القاعدة هنا على النحو التالي :

« كل باحث يؤكد أن موضوعاً تداخلياً من هذا النوع هو موضوع مقارن ، يجب أن يأخذ

على عاتقه عبء تقديم برهان إيجابي على أنه يتعامل مع فروق ذات شأن في اللغة القومية والتقليد » .

على أن رماك يميل إلى عدم تضخيم هذه المسألة :

« ومعظم المقارنين ، إذ يقرون وجود التعقيد والتداخل ، يوافقون على أن هذه الصعوبات ليست من الكثرة ولا من الخطورة بحيث تضعف التمييز بين دراسة الأدب داخل الحدود القومية وبين دراسته عبر هذه الحدود » .

جـ ـ رماك يبلور المصطلحات(☆)

الأدب المقارن والأدب العالمي :

بين (الأدب المقارن) و (الأدب العالمي) هناك اختلاف في الدرجة إلى جانب اختلافات أخرى أكثر اتصالاً بالجوهر . ويشمل (الأدب المقارن) عناصر من المكان والزمان والنوع والكثافة ، وهو ـ من الناحية الجغرافية ـ يشتمل ، شأنه شأن الأدب العالمي ، على عنصر المكان ولكن في الأغلب ، وإن لم يكن بالضرورة ، ضمن رقعة أضيق . إن الأدب المقارن يتناول غالباً العلاقة بين بلدين أو مؤلفين من جنسيتين مختلفتين ، أو بين مؤلف واحد وبلد أجنبي (مثلاً العلاقات الأجنبية الألمانية الفرنسية) ، علاقة (بو Poe مع بودلير) ، (إيطاليا في أعمال غوته) . أما المصطلح الأكثر ادعاء (الأدب العالمي) فهو يعني ضمناً بالتطابق ، وهو ما هاجمه إيتامبل Etiémble بضراوة .

كذلك يستدعي (الأدب العالمي) عنصر الزمان . فالقاعدة هي أن اكتساب الشهرة العالمية يستغرق زمناً ، والأدب العالمي يتعامل عامة مع الأدب الذي نال إجماعاً على عظمته بفضل اختبار الزمن . ولذلك يكون الأدب المعاصر أقل نصيباً في نطاق الأدب العالمي ، في حين أن الأدب المقارن ، ولو نظرياً ، يستطيع أن يقارن أي شيء تمكن مقارنته بصرف النظر عن مدى قدم

(☆) أوضحنا في القسم السابق من هذه الدراسة آراء (رماك) في الخروج من معضلة المنهج والنطاق والهدف في الأدب المقارن . وفي هذا القسم من مقالته ينتقل رماك إلى تحديد دقيق لوجهة نظره في أهم المصطلحات والمفهومات التي تدخل في نطاق الأدب المقارن ، ونظراً لدقة الموضوع وحفاظاً على منحاه المنهجي فقد عمدت إلى الترجمة الدقيقة ابتداء من هذا الجزء وحتى نهاية المقالة .

أو حداثة الموضوع أو الموضوعات المقارنة . وعلى أي حال يجب الاعتراف بوضوح أن معظم الدراسات الأدبية المقارنة ربما تنصب ، من الناحية العملية ، على تناول شخصيات الماضي التي أحرزت شهرة عالمية ، وإن كثيراً مما فعلناه ، وما سوف نفعله ، هو في واقع الأمر (أدب عالمي مقارن) . وإذن يتعامل الأدب العالمي بشكل رئيسي مع الإنتاج الأدبي الذي نال تقديراً عالمياً على مدى الزمن ، وأثبت مقدرة على الصمود (من مثل الكوميديا الإلهية ، ودون كيشوت ، والفردوس المفقود ، وكانديد ، وفيرتر) ، كما يتعامل ولكن بشكل أقل تميزاً مع مؤلفي عصرنا الذين نالوا حظوة كبرى خارج بلادهم (مثل فوكنر وكامي وتوماس مان) ، ولكن هذا الأمر يكون في حالات عديدة ذا طبيعة عابرة (كما هو شأن غولزوورثي ، ومارغريت ميتشل ومورافيا) . والأدب المقارن غير مقيد إلى المدى نفسه **بمعايير النوعية** و ـ أو ـ **القوة** . وإن الدراسات المقارنة المضيئة ما زالت تنصب ـ وسوف تستمر في ذلك ـ **على مؤلفي الدرجة الثانية** ـ وهؤلاء يكونون غالباً أكثر من كتاب الدرجة الأولى تمثيلاً لملامح عصرهم المرتبطة بالزمن ، ومثل هذه الدراسات يمكن أن تتناول مؤلفين سبق أن اعتبروا من العظماء ، أو عرفوا بأنهم ناجحون جداً مثل (ليلو ، وغسنر ، وكوتزبيو ، وديما الأب والابن ، وسكرايب ، وسودرمان ، وبينرو) ، كما يمكن أن تتناول كتاباً أقل مرتبة ممن لم تبلغ سمعتهم آذان العالم الخارجي ، ولكن إنتاجهم يمكن أن يمثل اتجاهات ذوقية على النطاق الأوربي -(في ألمانيا وحدها يمكن أن يذكر كتاب مثل فريدريك دولاموت فوكيه ، وزكريا فرنر ، وفريتش سبيلهاغن ، وماكس كرتزر) .

يضاف إلى ذلك أن هناك كتاباً معينين ممن بلغوا المرتبة الأولى في بلادهم دون أن ينالوا اعتراف الأدب العالمي يكونون بشكل بارز أهلاً للدراسات الأدبية المقارنة . وهذه الدراسات بدورها يمكن أن تسهم في إدخالهم محراب الأدب العالمي . ومن بين الأدباء والمفكرين القدامى الذين جرى بعثهم أو إعادة تقييمهم بشكل رئيسي في العالم الغربي يمكن أن يذكر : دون Donne ، بليك ، هولدرلين ، بوخنر ، جيرار دو نيرفال ، ملفيل ، كيركغارد ، وهس . وهناك آخرون ممن يستحقون الاعتبار نفسه على مستوى الانتباه العالمي ، ما زالوا ينتظرون الاعتراف الشامل خارج بلدانهم ومنهم في إسبانيا : إسبرونسيدا ، ولارا ، أزورين ، باروخا .

وفي ألمانيا والنمسا وسويسرا : هيردر ، هبل ، كيلر ، فونتين ، تراكل ، هوفمانستال .. وهناك بتوفي في هنغاريا ، وكريانغا وإيمينكو وسادوميانو في رومانيا .

ويؤكد رماك أن قائمة الأسماء هذه لا تنتهي ، ويشير بوجه خاص إلى الكتاب الأوربيين من خارج نطاق التقليد الغربي الذين يمكن أن تتمخض دراستهم عن مفاجآت كبرى[٢٨] .

إن عناصر **المكان والزمان والنوعية والقوة** تكون اختلافات في الدرجة بين الأدب العالمي والأدب المقارن . ولكن هناك تمييزات أكثر صلة بالجوهر . وفي المقام الأول يتضمن المفهوم الأمريكي للأدب المقارن استقصاء حول العلاقة بين الأدب والمدارات الأخرى ، في حين أن الأدب العالمي لا يتضمن ذلك .

وفي المقام الثاني حتى التعريف الفرنسي الأكثر تزمتاً للأدب المقارن (حيث المادة المدروسة تكون بالضرورة أدبية مثلها مثل مادة الأدب العالمي) ينص على تخصيص المنهج في حين أن الأدب العالمي لا يفعل ذلك .

ويتطلب الأدب المقارن أن تجري مقارنة المؤلف أو الموضوع أو العمل الأدبي أو الاتجاه في بلد آخر أو محيط آخر . ولكن مجموعة من المقالات مثلاً حول تورغينيف أو هوثورن أو ثاكري أو موباسان بين دفتي كتاب يمكن أن تسمى ببساطة (شخصيات من الأدب العالمي) دون أن تضم أية مقارنات أو ربما مقارنات عرضية فقط . ويعرف معجم وبستر صفة (مقارن) بأنها « دراسة نسقية أو مقارنة للظواهر ... كما في الأدب المقارن » .

وهناك مقررات كثيرة في الكليات الأمريكية تتناول روائع أدبية من مختلف البلدان ، يقرؤها الطلبة غالباً عن طريق الترجمة ، وقد نشرت مجموعات كثيرة مصممة خصيصاً لمثل هذه المقررات . وهذه المقررات وتلك الكتب الجامعية يجب أن توسم بمصطلح (الأدب العالمي) كما هو المعتاد ، لا بمصطلح (الأدب المقارن) ما دامت هذه الروائع تدرس باعتبارها أعمالاً فردية ، وليس على أنها خاضعة للمقارنة المنهجية (ضمن الحد الأدنى على الأقل) . ويبقى في يد المعلم أو المحرر أن يجعل من مثل هذا المقرر أو الكتاب دراسة مقارنة إذا كانت النصوص المختارة طبعاً قابلة للمعالجة المقارنة .

---

(٢٨) بالطبع يتحدث رماك عن الكتاب الغربيين ، ولكن يجب ألا ننسى وجود عشرات الأدباء خارج منطقة الغرب ممن يستحقون العالمية . وفي السنوات الأخيرة ، على أية حال ، قفز إلى العالمية بفضل جائزة نوبل بعض الكتاب من العالم النامي ، وظفر عربي لأول مرة في تاريخ الجائزة باعتراف عالمي وهو نجيب محفوظ . على أنه لا يوجد أدباء عرب آخرون على قائمة الانتظار . (المؤلف) .

وليس من الضروري أن تكون الدراسة المقارنة في كل صفحة بل حتى في كل فصل ، ولكن المقارنة تتأتى من خلال القصد الشامل والتوكيد وطريقة التنفيذ . وإن اختبار هذه الأمور يتطلب محاكمة موضوعية وكذلك شخصية . ولذلك لا يجوز توطيد قواعد جازمة تتحكم بهذه المعايير .

الأدب المقارن والأدب العام :

إن مصطلح (الأدب العام) استخدم لوسم المقررات والمنشورات المعنية بالآداب الأجنبية من خلال الترجمة الإنكليزية ، أو بشكل أوسع لوسم تلك الكتابات التي يصعب أن تصنف تحت أي عنوان من عنوانات الدراسات الأدبية ، ويبدو أن لها عند الدارسين أهمية تتجاوز الأدب القومي . وهي أحياناً تشير إلى الاتجاهات الأدبية ، أو المشكلات ، أو النظريات ذات الاهتمام العام ، أو الجماليات . وإن مجموعات النصوص والدراسات النقدية أو التعليقات التي تتناول عدة آداب قد صُنفت ضمن هذا النوع ومثالها العديد من المجموعات ، وأيضاً تلك الأعمال النقدية والتاريخية التي منها :

- العالم من خلال الأدب : تصنيف ليرد Laird .
- معجم الأدب العالمي وموسوعة الأدب من تصنيف شبلي Shipley .

ويجب أن نتذكر أن مصطلح الأدب العام ـ شأنه شأن مصطلح الأدب العالمي ـ يخفق في تحقيق مواصفات منهج للتقرب مقارن . وفي حين أن مقررات الأدب تمد الدراسات الأدبية بقاعدة ممتازة ، فإنها ليست بالضرورة داخلة في الأدب المقارن .

ويبدو أن هذه الضبابية في مصطلح (الأدب العام) قد خدمته في أمريكا . وعلى أي حال يجدر أن نوجه اهتمامنا إلى تعريف (للأدب المقارن) دقيق جداً وضعه الباحث الفرنسي بول ڤان تييغم (الصربون) . **وعند ڤان تييغم يمثل الأدب القومي والأدب المقارن والأدب العام ثلاثة مستويات متتابعة** . فالأدب القومي يعالج مسائل محصورة ضمن نطاق أدب قومي ، والأدب المقارن يعالج مسائل يتداخل فيها أدبان مختلفان ، والأدب العام مخصص لمعالجة تطورات في عدد أكبر من البلدان التي تشكل وحدة عضوية مثل أوربة الغربية ، أوربة الشرقية ، أمريكا الشمالية ، أوربة وأمريكا الشمالية ، إسبانيا وأمريكا الجنوبية ، الشرق ، وغيرها . وباستعارة تعبيرات

بصريـة ، يمكن القول : إن الأدب القومي هو دراسـة الأدب داخل الجـدران ، والأدب المقـارن هو دراسة الأدب عبر الجدران ، والأدب العام فوق الجدران[٢٩] .

وفي دراسة أدبية مقارنة تبقى الآداب القوميـة ركائز أوليـة بوصفهـا مراسي للاستقصـاء ، وفي دراسة للأدب العام تكون الآداب القومية ببسـاطة أمثلة للاتجاهات الدوليـة . ووفقـاً لڤـان تييغم فإن دراسة للمكانة الأدبية (لهيلوئيز الجديـدة) لروسـو ، لابـد أن تكون جزءاً من الأدب القومي ، في حين أن دراسـة حول تـأثير ريتشـاردسـون في (هيلـوئيز الجـديـدة) لابـد أن تنتمي إلى الأدب المقارن ، أما الدراسة الْمَسْحية للرواية العاطفية الأوربية فلا بد أن تكون من (الأدب العام) .

وقد كتب ڤان تييغم نفسه عدداً من الأعمال التي توضح نظرته إلى (الأدب العام) ، مثـل :

الأدب اللاتيني في عصر النهضة ، التاريخ الأدبي لأوربة وأمريكا منذ عصر النهضـة ، مـا قبل الرومنتية ، الرومنتية الأوربية ، واكتشاف شكسبير في القارة الأوربية .

ومن الدراسات التركيبية المشابهة هناك :

- الأدب الأوربي والعصور الوسطى اللاتينية ، تأليف كورتيوس Curtius .
- اللاتينية والعالم الرومنتي ، تأليف فارينيلي Farinelli .
- ملخص الأدب المقارن ، تأليف فريدريك ومالون .
- العقل الأوربي (١٦٨٠ ـ ١٧١٥) .
- الفكر الأوربي في القرن الثامن عشر . وهما كتابان توأمان متقنان لهازار Hazard .

إن تعريفات ڤان تييغم تثير على الأقل سؤالاً واحداً :

أليس من قبيل القسرية والميكانيَّة أن تُحصر دراسة الأدب المقارن في الصلـة بين قطرين ـ كما فعل ـ وأن تُسند إلى (الأدب العام) دراسة الصلة بين عدة أقطار ؟

لـماذا يجب أن تصنف المقـارنـة بين ريتشـاردسون وروسـو ضمن (الأدب المقـارن) على حين تصنف في عداد (الأدب العالمي) المقارنة بين ريتشاردسون وروسو وغوتـه (كتلـك الـدراسـة التي

(٢٩) سبق أن تعرضنا لمفهوم ڤان تييغم للأدب العام وأوردنا تعريفه بحرفيته . (المؤلف) .

قام بها إريك شميث منذ سنوات) ؟ أليس مصطلح (الأدب المقارن كافياً لتغطية دراسات تركيبية تشمل أي عدد من البلدان (كما هو الشأن في كتاب فريدريك ومالون : ملخص الأدب المقارن) .

وهذا التصنيف الواضح الحدود عند ڤان تييغم ربما يكون صادراً عن ضرورة تقسيم العمل أكثر من ضرورة التوصل إلى وحدات منطقية متماسكة . إن عدد الأعمال الإبداعية والتاريخية والنقدية التي يجب أن يستوعبها الباحث قبل أن يطمح إلى تقديم صورة واقعية حتى فيما يتعلق بفترة محددة أو جانب أو أدب معين ، أصبحت من الاتساع بحيث لا نتوقع من الباحث نفسه أن يتولى دراسة أدب واحد إضافي أو عدة آداب .

ويخشى ڤان تييغم بدوره ، ولأسباب تتصل بالميل والمقدرة والمدة ، ألاّ يتمكن الباحثون المختصون بالأدب المقارن من تجميع وتأليف الأبحاث التي تتناول أكثر من أدبين قوميين . ومن هنا تبرز الحاجة إلى مجموعة ثالثة من الباحثين لتجمع شمل موجودات الأدب القومي والأدب المقارن وتمزجها بالأدب العام .

وبالإضافة إلى كون هذا التدبير فرضياً من حيث إمكان تطبيقه ، فإن أخطاره في إطار الفردية المشروعة لمهنة الباحث شديدة الوضوح .

وعلى الباحثين في الأدب المقارن والأدب العام أن يقنعوا بتنظيم موجودات الآخرين (وهي مهمة هرقلية[☆] بحد ذاتها) ، وذلك عمل من شأنه أن يعرضهم لفقدان التماس مع النص الأدبي ، كما أنه يحمل بذور مكننة الأدب وتسطيحه وتجريده من الإنسانية . وإن كتب ڤان تييغم نفسه لم تنج بالتأكيد من مثل هذه الأخطار . ومن جهة أخرى فإن هازار نجح نجاحاً باهراً من خلال بحثيه المركبين في تقديم روح العصر (ماقبل التنوير والعقلانية) دون أن يعرق اللحم عن العظم .

ونحن نميل إلى الاعتقاد بأن تقسيماً جازماً للعمل بين الأدب القومي والأدب المقارن والأدب العام غير قابل للتطبيق وغير مرغوب فيه كذلك . إن باحثي الأدب القومي يجب أن يدركوا ويتصرفوا من خلال التزامهم بتوسيع آفاقهم ويجب تشجيعهم ليقوموا بين حين وآخر بنزهات في آداب تتصل بالأدب وأجواء أخرى .

(☆) هرقلية : نسبة إلى هرقل ، أي شاقة وخارقة . (المؤلف) .

وعلى باحثي الأدب المقارن أن يعودوا ، من وقت لآخر ، لمناطق أدبهم القومي الأضيق مجالاً حتى يطمئنوا إلى أن قدماً واحدة لهم على الأقل تنغرس في أرض صلبة . وهذا بالضبط ماقعله باستمرار أفضل الباحثين في حقل الأدب المقارن هنا وفي البلدان الأجنبية .

☆ ☆ ☆

ليس ثمة حدّ فاصل بين المصطلحات التي ناقشناها ، والتداخل بينها قائم . على أن تعريف الأدب القومي والأدب المقارن والتميز بينهما واضحان إلى حدٍّ يمكن الاستفادة منه . وفي حين أننا نشارك في المفهوم الأمريكي الأكثر اتساعاً للأدب المقارن نحث على أن تخضع الموضوعات التي يزعمون أنها تدخل في هذا الحقل إلى تفحص أكثر دقة على أساس معيار أشد حسماً مما هو عليه الأمر حتى الآن .

و (الأدب العالمي) ، بمعنى الأدب الذي يحظى باستحقاق ونجاح بارزين يؤهلانه لأن يجلب انتباهاً دولياً ، هو مصطلح ذو جدوى ، على ألا يستخدم بتهاون ليكون نوعاً من البديل للأدب المقارن أو للأدب العام . ومن المأمول كذلك أن يجري تجنُّب مصطلح (الأدب العام) حيثما أمكن ذلك ، لأنه يعني ـ في الوقت الحاضر على الأقل ـ أشياء عديدة مختلفة جداً عند أناس عديدين . ويجب أن نستخدم مكانه مرادفاً يفيد الدلالة المقصودة : أدب مقارن ، أو أدب عالمي ، أو أدب مترجم ، أو أدب غربي ، أو نظرية أدبية ، أو بنية الأدب ، أو أدب فحسب ، وفقاً لما قد تقتضيه كل حالة .



د ـ نحو تفحُّص المفهومات(☆)

النظرية والتطبيق :

هناك شكاوى متعددة مفادها أننا نتحدث كثيراً حول ما تجوز مقارنته في الأدب ، وما لا تجوز ، وكيفية ذلك ، ولكننا لا نقارن الأدب بما فيه الكفاية . وهناك مطالبة بمزيد من التطبيق وبتقليل من النظرية .

(☆) من هنا يبدأ القسم الرئيسي الذي أضافه رماك إلى مقالته الأصلية ، وهو يتألف من تحديد واضح ومركز لمفهومات كثيرة تدخل في صلب نظرية الأدب المقارن .

وهنـاك ردود كافيـة على هـذه الشكاوى ربـا لا تقل عنهـا عـدداً ، ومفـادهـا أن حقلاً كهـذا الحقل ، تتعرض مهمته ومنهجيته لمثل هذا الاضطراب والخصـام ، هو في مـأزق ، وإن غنى الجـدال المتعلق بتعريف الأدب المقارن ومنهجيته ، لم يظهر في المدة الأخيرة أيـة دلالـة على التضـاؤل ، بل كشف عن اهتمام أصيل ووطيد .

والحقيقة البسيطة هي أننا نحتاج إلى النظرية والتطبيق معـاً . ومـا دمنـا نـدعي الاحتراف فلا بدَّ لنـا من الاهتمام بـالنظريـة والتعريف والبنيـة والوظيفـة . ولكن النظريـة يجب أن تتـابع وتعدل من قبل الممارسة ، والعكس صحيح .

النقد والتاريخ :

يبدو أننا نحظى اليوم بقدر من الاتفاق أكبر مما كان عليه الشأن في السنوات العشر السابقة في الغرب والشرق معـاً ، على أن التـاريـخ والنقـد يستطيعـان وينبغي لهما أن يجتمعـا معـاً للوفـاء باحتياجـات الأدب المقـارن . إن الشرق (شرق أوربـة) مـازال أكثر من الغرب تعرضـاً للتوجيـه الأيديولوجي والتاريخي ، وكذلك استعمال القارة الأوربية (بما في ذلـك فرنســا) لمصطلح الأدب المقارن ما زال يميل إلى التاريخ أكثر مما هو الشأن عملياً في أمريكا . وما زال الأدب المقارن الأوربي أشـدّ التصـاقـاً بـالأدب القومي من قرينـه الأمريكي . ولكن الثغرة ضـاقت بشكل واضح . بل من المنتظر أن تضيق أكثر ، سواء للأفضل أو للأسوأ ، تبعاً لازديـاد ظهور الأزمـة الأيـديولوجيـة التي تجتـاح الجـامعـات الغربيـة في الأدب المقـارن تعليمـاً وبحثـاً . وفي واقـع الأمر فـإن تكييف البحث العلمي ، سواء في الأدب المقارن أم في غيره من الحقول ، للأهداف الاجتماعية للإنسانيـة دون إفسـاد التماسك الجوهري للبحث العلمي ، قد يكون واحداً من القضايا اللاهبة في السبعينات .

المدارس الأمريكية والفرنسية :

أعتقد أن التطورات الراهنة وكذلك الكامنة أشدّ أهمية من الخلافات التي احتدمت المناقشات حـولهـا بين المـدرسـة الفرنسيـة في الأدب المقـارن ، وبين المـدرسـة الأمريكيـة نظريـة وتطبيقـاً . وبصرف النظر عن ذلك لاأدري إذا كان عليّ أن أحزن أم أُسَرّ لما يقال من أن مقالتي التي كتبت عام ١٩٦١ ساعدت على تدعيم ما يعتقد أنه ثنائية قومية مؤسفـة وموهومـة بين فرنسـا وأمريكا في الجهـد المشترك .

ومن الغريب أن مثل هذا النقد ، باستثناء واحد بسيط ، صدر عن الولايات المتحدة لا عن أوربة ، وأقله على الإطلاق صدر عن زملائنا الفرنسيين الذين هم على أي حال أشد الناس معرفة بدورهم الخاص في هذا المضمار . وأن مجرد تسجيل واقعة ما لا يعني أن المسجل مسؤول عنها أو سعيد بوجودها .

وكما هو مذكور في مقالة عام ١٩٦١ (بما في ذلك هوامشها) وفي مقالة عام ١٩٦٠ للكتاب السنوي « الأدب المقارن على مفترق الطرق » ، وهما متكاملتان (وأتمنى أن تقرأا معاً) ، كان هناك بالتأكيد تقليد فرنسي قوي النفوذ جداً في دراسات الأدب المقارن ، ومختلف في منطلقاته اختلافاً واضحاً عن قرينه في الولايات المتحدة . وإنه لإغضاء عن الحقيقة أن يجري الادعاء بأن هذا كله من قبيل الوهم ، لأنه لا الأمريكيون (كلهم) ولا الفرنسيون (كلهم) يتفقون على هذه القابليات (وهي حقيقة نبهت إليها لدى الطرفين كليهما) . إن الباحثين من أمم أخرى أيضاً يقبلون بهذا التقليد أو ذاك .

وهذه الحقيقة تفيد أن فرنسا والولايات المتحدة تتمتعان بزعامة غير قابلة للشك في حقل الأدب المقارن تعليماً وبحثاً . وتفيد هذه الحقيقة أيضاً أن التعليم الجامعي الفرنسي يتصف بطابع المركزية ولا سيما من حيث سيطرة دور الصربون . وتفيد أيضاً بروز ومتانة ما يسميه معظم الباحثين الأوربيين وبعض الأمريكيين (المدرسة الفرنسية) في الأدب المقارن ، مع أنني أفضل أن أضع كلمة مدرسة بين قوسين حيثما كان ذلك ممكناً . وتشمل هذه الحقيقة أيضاً الشخصية غير المجانسة للتعليم الأمريكي العالي الذي يجعل مصطلح (المدرسة) أقل نجوعاً مع أنه من المسوغ بالتأكيد الكلام على اتجاهات أمريكية سائدة ـ ولو أنها بعيدة عن أن تكون شاملة ـ ومختلفة عن الاتجاهات الدارجة في فرنسا . على أن أياً من هذه الاتجاهات لم يظهر في فرنسا وأمريكا ، من بين جميع المناطق الأخرى ، بفعل المصادفة المحض .

وفي مقالتيَّ كلتيهما حاولت أن أتناول هذه الاختلافات بروح الإنصاف ، وأشرت إلى أن الممارسة هي أكثر تعرضاً للمغامرة والاختلاف من النظرية .

وقد اقترحت طرقاً للمصالحة والتضافر . وأنا سعيد أن أسجل أن التطور الذي تلا قد سلك بالفعل الاتجاه المأمول ، ولو أنه لم يتمكن بعد من إزالة الخلافات بما فيه الكفاية .

تعددية المناهج :

إن الأدب المقارن ، كما هو شأن كل دراسة للأدب ، يجب أن يفسح صدره لجميع مناهج التقرب . ومن شأن الباحث الفرد أن يثبت أن التقرب المختار لمقصد أدبي خاص أو موضوع هو التقرب الصحيح . وإذا أسفر عن نتائج قادرة على إقناع غير المؤلف نفسه من ذوي الذكاء والشخصية أمكن عند ذاك اعتباره وارداً . وهناك إغراء للمرء شديد بوضع مؤشرات تقريبية ، من مثل التوصية بالانطلاق من الاعتبار الاجتماعي في القصة لا في الأدب الوجداني ، والانطلاق من الاعتبار الموسيقي في الأدب الوجداني لا في القصة . ومن الممكن الانطلاق من هذه المؤشرات لتحديد بعض التصورات غير الدقيقة تماماً ، ولكن البحث الأدبي حافل بالمفاجآت ، وربَّ فهم اجتماعي لأشعار ريكله ، وربَّ تحليل موسيقي لتونيو كروجر لا يكونان بالضرورة عملين عابثين . وبعض أشكال التقرب قد تحظى بقبول أوسع من غيرها لدى تحديد المقصد . وليس في مقدور المرء أن يذهب إلى أبعد من ذلك .

المنهجية وتماسك الأدب المقارن :

ليس للأدب المقارن منهجية خاصة محصورة به ، ولا حاجة به لذلك أصلاً ، والقوانين الأساسية التي تحكم العمل الأدبي مثل جمع البينات ونخلها وتفسيرها هي نفسها تنطبق هنا وتنطبق في كل مكان . ولكن ذلك لا يعني أن الأدب المقارن يجب أن ينغمس بلا زيادة ولا نقصان في بحر الأدب الممتد امتداداً غير مريح ، على نحو ما طالب (ولك) باستمرار . إن هذا المطلب غير واقعي . وإن كل تحديد للخط الفاصل يحمل في طياته شيئاً من الاصطناع ، ولكن ذلك لا يجعل التحديد وتقسيم العمل أقل حتمية وغير تعسفي بالضرورة . يضاف إلى ذلك أن الأدب المقارن له مشكلاته الخاصة التي تتطلب كفاءات خاصة وطائفة خاصة من المناهج . فدراسة الترجمة ـ كما سبق أن ذكرت ـ لا غنى عنها في الأدب المقارن وهي تتطلب منهجية متطورة . كما أن التصادم أو التداخل بين الثقافات والتقاليد المختلفة يتطلب استعداداً لغوياً وثقافياً وتنوعاً من مستوى غير مطلوب من الباحثين الأدبيين (العاديين) وغير متوافر لديهم في الأحوال العادية . وقد تحلُّ الكفاءات الأفقية جزئياً محلَّ الكفاءات الشاقولية .

والباحث المقارن لا يتطابق مع غير المقارن في أفقه أو بصيرته ومغرياته ، على الرغم من وجود تداخل كثير طبعاً . وإذا قدر للتقصي في مجال الفنون المقارنة وللميل نحو الدراسة التقاطعية

أن يستمرا في نيل الحظوة لدى الغيورين فسيصبح من اللازم جداً اعتماد منهجية أكثر صفاء من ذي قبل .

« المقارن » في الأدب المقارن :

هناك اتفاق تام على أن مصطلح (الأدب المقارَن) ، أصبحت له حقوقه المكتسبة على الرغم من أنه غير دقيق فعلاً في تعبيره عما نفعله . وهناك إجماع أقل بكثير ـ على الرغم من أنه يفوق ما كان قائماً بسنة ١٩٦١ ـ أن (المقارَن) في الأدب المقارن يجب أن ينظر إليه باعتباره **أكثر من مصادفة تاريخية** وأن الإنعاش المنهجي (للمقارَن) يوفر أشد الطرق طبيعية وفعالية في تقريب النقد الأدبي والتقييم إلى الأدب المقارَن من خلال المقارنة ، وعن طريق المشابهة أو التقابل ، بين الأعمال التي تربط بينها صلة ما (ليس ضرورياً أن تكون صلة سببية) ، أي الأعمال القابلة للمقارنة بسبب القرابة الانتخابية في الموضوع أو المشكلة أو الجنس الأدبي أو الأسلوب ، أو التزامن أو مجاراة روح العصر ، أو مرحلة التطور الثقافي ، إلخ ...

الفنون المقارنة والدراسات المتقاطعة :

إن القوة المتزايدة لمفهوم الأدب المقارن والاستعمال المتزايد للمقارنة في الأدب المقارن يكونان أيضاً أقوى الحجج لصالح إدخال الفنون المقارنة ومقارنة الأدب (بالمشابهة أو بالتباين) في الحقل الذي نسمّيه (الأدب المقارن) جنباً إلى جنب مع المناطق الأخرى من المعرفة الإنسانية . وإن هذا الامتداد لمفهوم (الأدب المقارن) إلى (اللاأدب) هو الذي استثار بعض أقسى أشكال النقد التي جابهتها مقالتي لعام ١٩٦١ ، على الرغم من حيطتي في صياغتها . وفي الوقت نفسه تدلُّ البيِّنات التي توافرت منذ عام ١٩٦١ أن مزيداً من المنظرين والممارسين للأدب المقارن أخذوا يتحركون في هذا الاتجاه .

ومن المنتظر أن يتسارع هذا التيار بسبب الاتجاه في أيامنا هذه إلى التوسع والمغامرة ومناهضة القاعدة وازدراء القيود . ويمكن بوجه خاص للانهماك الحالي في المسائل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية والمسرحية وغير ذلك أن يؤدي إلى تقوية التيار الأمريكي نحو مفهوم تقاطعي للأدب المقارن وأن يثير حركة أوربية في الاتجاه نفسه . وإني لأجد لهذا التيار التقاطعي ، على أي حال ، درجة كافية من التسويغ الداخلي البنيوي الفني تفسح الأمل لتفحص أوسع للمقارنات التقاطعية مع الأدب نظرية وممارسة .

العالمية والفردية :

إن التشديد على (المقارن) خلال ممارسة الأدب المقارن كفيل بأن يبرز تفرد أعمال الفن الأدبي موضع البحث ، وذلك من خلال تطبيقه على مقارنة تيارين في أدبين قوميين أو أكثر ، مع التشديد على الفروق والتلوينات الخاصة أكثر من المشابهات . وهذا بديع من أجل التوصل إلى معرفة التفرد الغني أو القومي الذي ننشده كلنا ، أما من أجل ترتيب التاريخ الأدبي على أسس فوق قومية فإن الأمر يكتسي أحياناً شيئاً من الخطورة بما يقود إليه من تشجيع لاسمية سهلة . وبمقدار ما يوغل التقرب باتجاه (الأدب العام) أو مجرد (الأدب) يقل خطر تعرضه لوطأة الفردية الشخصية أو القومية ، ولكن يبقى الابتعاد عن الحقيقة القومية والفردية أشد خطراً . وإن (رينيه ولك) الذي عمل بثبات وفعالية ـ ربما أكثر من أي إنسان آخر ـ لتحطيم الحواجز التي تعترض تناول الأدب بوصفه جملة شاملة ، أثبت من خلال ممارسته أن وجهتي النظر كلتيهما ضروريتان لتأليف صورة كاملة . وأن مناقشاته لصالح النظر إلى الرومنتية باعتبارها حركة أوربية مقنعة بقدر ما هو مقنع تفريقه بين « الرومنتية الألمانية والإنكليزية : مواجهة » (سنة ١٩٦٤) .

مشروعات العمل المشترك :

خلال العقدين الأخيرين ونيف ، قام باحثو الأدب المقارن بموازنة الإيجابيات والسلبيات المتعلقة بالتأليف المشترك لتاريخ أدبي فوق قومي ، وجرى التعبير عن مخاوف مفادها أن فردية البحث في الإنسانيات قد تتعرض للخطر في مثل هذا العمل ، وأن المحافظة على استمرارية المعالجة في موضوع معين لن تكون ممكنة . يضاف إلى ذلك أن هناك صعوبات عملية في أية محاولة لتنظيم الباحثين . وبصرف النظر عن ذلك كله فإنه من الواضح جداً أننا لانستطيع أن نتوصل إلى تواريخ ودراسات فوق قومية إلا باللجوء إلى عمل الزمرة (مع استثناءات نادرة من مثل أعمال ولك) . ذلك أن كمية المراجع الأساسية والثانوية فائقة بدرجة لم تعد تتيح لأي فرد أن يتدبر مثل هذا النوع من الدراسة . ومن هنا علينا أن نكرم وندعم مشروعات من مثل مشروع « تاريخ مقارن للأدب الأوربي » الذي ترعاه الرابطة الدولية للأدب المقارن . وأن الإسهام المشترك في هذا المشروع لباحثين من الشرق والغرب ومن الشمال والجنوب كفيل بأن يوفر فوائد إضافية من خلال تبادل منتج للآراء وتقارب بين الباحثين المجتمعين على المهات نفسها والمنفصلين في الوقت نفسه لعدد من الأسباب .

هـ ـ الوظيفة الحيوية للأدب المقارن

ومن المفيد الإشارة إلى أن رماك أكمل آراءه وطوَّرها من خلال البحث الجريء العميق الصريح الذي قدمه في (المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للأدب المقارن) ـ بودابست ١٩٧٦ .

وفي هذا البحث طالب رماك بمراجعة مفهومات الأدب المقارن من الداخل على ضوء موقف نقدي يحاول كشف مدى ماقدمه الأدب المقارن في خدمة جوهر القريحة الأدبية . واستشهد بقول لرينيه ولك يحذر فيه من الانخداع بالتقدم الظاهري للأدب المقارن . وأوضح رماك أن الأدب المقارن بدأ ينتعش مجدداً من خلال المؤتمرات ، وأن عام ١٩٥٨ كان نقطة انعطاف إذ بدأ الأدب المقارن يتجه الوجهة الصحيحة **بانتقاله من القومي إلى العالمي ومن الفردي إلى العام ، ويتطلع إلى إحداث تغيرات أساسية في مناهجه وأهدافه** . وهناك بالطبع مشكلات كثيرة ، تعترض التغير المنشود ولكن تظل المشكلة الأساسية هي عدم قدرة الفرد على الإحاطة بالاختصاصات الأدبية المختلفة التي يتطلبها الأدب المقارن . وهناك طبعاً مشكلات أخرى لا يستهان بها ، أظهرُها اليوم مشكلة التعددية في المناهج والاجتهادات التي تنبثق عن الطبيعة المركبة للمسائل التي يعالجها الأدب المقارن . وقد بدا رماك متفائلاً إزاء هذه التعددية آملاً أن تتمخض عن وجهة نظر متكاملة ووافية بالغرض ، ولكنه في الوقت نفسه أشار إشارة بارعة إلى أن إيماننا بأن التغيرات المنتجة كانت دائماً حصيلة خلافات كثيرة عند مبدأ ظهورها يجب ألاَّ يقودنا إلى الاعتقاد بأن كل ما يثير الخلاف هو تغيُّر منتج .

ومن المشكلات الأخرى التي أشار إليها رماك بوضوح ذهني يدعو للإعجاب أن دراسة الأدب ليست مجرد تطبيق للمعايير النظرية للمعرفة الأدبية ، بل هناك دائماً الجانب الآخر الفردي التذوقي ، وفي هذا المجال يصعب على الباحث أن يكون منهجياً جداً ، كما لا يجوز له أن يكون فردياً جداً . ثم إن المعرفة الأدبية ذاتها معقدة إلى أبعد حدٍّ ، وتزداد تعقيداً يوماً بعد يوم ؛ فمن علم النفس إلى الفلسفة إلى علم الاجتماع إلى العلوم الأخرى إلى اللغويات ، تمتد سلسلة من التبادلات مع المعرفة الأدبية ، حتى أصبح على الباحث الأدبي أن يجمع كل العوامل المعرفية الممكنة حتى يتوصل إلى قابلية التصديق .. فإذا أضفنا ذلك إلى مشكلة تعدد الاختصاصات الأدبية نفسها ، علمنا أية مهمات معقدة يضطلع بها الباحث المقارن اليوم .

وعلى مبدأ : مامن مشكلة إلا ولها حل ، أخذ رماك يستعرض نواحي التقدم التي أحرزها الأدب المقارن في هذا الصدد أو التي يمكن له أن يحرزها .

ففيما يتعلق بالمدارس الأدبية المختلفة أظهر رماك أن تعدد هذه المدارس وتباين نزعاتها يجب ألاّ يخيفنا ، صحيح أن الفروق واضحة وقوية بين هذه المدارس ، ولكن الأقنية المشتركة في المادة التي تتعامل معها هذه المدارس واضحة وقوية أيضاً . إن هذه المادة خليط من الفردية والموضوعية ، ومن الواقع والخيال ، ومن التأمل والعلم ؛ والمسألة تكون في الأغلب مسألة نسب .

إن الاتجاه العام للدراسة الأدبية اليوم يوحي بالتآلف لا التخالف . فبعد الرومنتية تفجرت عدة اتجاهات لدراسة الأدب ؛ ولكن الاتجاهات التي تبدو اليوم أكثر رسوخاً هي الماركسية والبنيوية ، ومجدداً الاستقبالية Receptionalism . وحتى الستينات ظلت الموضوعية النقدية مسيطرة على شبيبة الجامعات في الدول الغربية ، وبالمقابل استمرت قبضة الالتزام الأيديولوجي في مناطق أخرى كثيرة . ويشهد العالم اليوم اتجاهاً إلى الانفتاح والمرونة على الرغم من أن كل طرف لم يتخلَّ عن موقفه الأساسي . وهناك مجال كبير لتعاون كل من الأيديولوجية والمنهجية ، إذ تعين كل منهما على اكتشاف شيء معيَّن لا تستطيعه الأخرى . والأدب المقارن هو الذي يستطيع أن يقدم الأرضية المناسبة للمصالحة بينهما .

ويشير رماك بحماسة ـ وهو القادم من أمريكا ـ إلى أن النظرية الواقعية الاشتراكية أعطت الأدب دوافع جديدة وسلم قيم جديداً ، وإلى أن الأفكار الواقعية أصبحت ميسورة للقراء في الغرب من خلال طبعات كثيرة ، وأصبحت عناصر كثيرة من هذه النظرية مقبولة لدى الدارسين الأدبيين في الغرب ، ولا سيما من ناحية ارتباط الإنتاج الأدبي بالظرف الاجتماعي . وبالمقابل تنفلت قبضة التزمتية (الدوغمائية) عن الأدب الملتزم الذي يفسح صدره أكثر فأكثر للرياح الجديدة وللقيم الجمالية . إن البنيوية مثلاً مدرسة موضوعية تعالج هدفاً ثابتاً وتنشد التوصل إلى تحديد معيار الجودة في الأدب .

وما أكثر ما يمكن أن تستفيده الواقعية الاشتراكية من البنيوية ، وما أكثر ما يمكن أن تستفيده البنيوية من الواقعية الاشتراكية . وإن التفاعل بين هذه النظامين من التفكير يمكن أن يؤدي إلى نتيجة أكثر اجتماعية وأكثر علمية وأكثر جمالية .

ويعرّج رماك على (التاريخية) ويصرُّ على التفريق بين (النزعة التاريخانية

Historicism) وبين الاعتماد على الدراسة التاريخية للتوصل إلى نتائج أفضل ، ويعتبر الاتجاه المضاد للتاريخ في الدراسة الأدبية مؤامرة ، كما يشير بحق إلى ما يمكن أن تسهم به الاستعانة بالتاريخ المقارن في مجال اكتشاف نسبية الظاهرة القومية من خلال المقارنة مع القوميات الأخرى . **ويؤكد أن استخدام التاريخ على نطاق واسع والانكباب على التاريخ الأدبي لأمة من الأمم دون مقارنة يوصل إلى النرجسية ، وفي حين أن المقارنة توصل إلى اكتشاف ما هو خاص وما هو عام . ومن هنا يفيد الأدب المقارن في إخراج الأمم من حصارها الداخلي التاريخي .**

إن التاريخ أيضاً يشير إلى أن المدارس الجديدة انبثقت عن أصول قديمة . والأدب المقارن في القرنين السابع عشر والثامن عشر أنتج دراسات مقارنة من نوع (الاستقبالية) ، ولكن بدون منهجها طبعاً ، وإنه لمن المفيد أن تربط الاستقبالية بالتجارب الماضية .

ولقد أشار رماك بقوة إلى **أن الأدب المقارن يجب أن يكون الأساس لأية نظرية أدبية جديدة** ، وشاملة ، وأنه هو الكفيل بإعطاء المدارس المختلفة **مفهوماتها النسبية** ومجال حقلها الخاص الذي تصلح فيه أكثر من غيرها ، بل إن الفروق بين هذه المدارس لا يمكن أن تتضح إلا من خلال الأدب المقارن . كما أن الأدب المقارن يعلمنا أن مجال التجديد في المنهجية مفتوح دائماً ، ويجب ألا يعني بالضرورة إلغاء المنهجيات القائمة .

إن الحلّ الوحيد لمشكلات الأدب المقارن هو العمل الجماعي من خلال التفاعل بين الأنظمة الفكرية والأدبية المختلفة ، وقد آن الأوان لتحقيق منجزات كبرى في مجال الدراسة الأدبية المقارنة .

الفصل الرابع :

الأدب المقارن في منظور عربي

أ ـ خلاصة علمية

من خلال استعراض الآراء السابقة في نظرية الأدب المقارن ، واستحضار مناقشات أخرى كثيرة حول هذا الموضوع يمكن للمرء أن ينتهي إلى استخلاص النقاط التالية :

١ ـ إن الأدب المقارن نشأ أصلاً على أساس الاهتمام بالأدب الشعبي والفلكلوري ، أي بالبنية الأكثر تعبيراً عن الروح المشتركة للمناطق اللغوية من جهة ، وعن التطلعات الرومنتية لاكتشاف أصالة الروح الشعبية من جهة أخرى . ولكن تمّ تجاوز هذا الاتجاه بسرعة .

٢ ـ حين أخذ مصطلح (الأدب المقارن) يتبلور في الربع الأخير من القرن التاسع عشر اتضح تماماً اتجاهه إلى البحث في تاريخ العلاقات الأدبية الدولية ، أي تركيزه على موضوع التأثيرات وقد كان هذا التركيز واعياً وله فلسفته الخاصة . وقد أبرز ـ على الأقل ـ رغبة الأدب في مجاراة الاتجاه الحضاري العام ، نحو تجاوز الحدود باتجاه العالمية ، وتطلعه كذلك إلى مجاراة النزعات العلمية إلى المقارنة والخروج على الشرنقة المحلية .

٣ ـ ظلّ الأدب المقارن فترة طويلة متقيداً بمفهوم التأثر والتأثير ، وفي أحيان كثيرة أشاح بوجهه عن النواحي الجمالية ، وبدا كما لو أن منطقه منطق بحث تاريخي خالص مجرد من النواحي الجمالية ، ومنطقته هي التماسّ الثقافي والأدبي بين الأمم . أي إنه حدَّد منهجه بما يطابق المنهج التاريخي من حيث التجرد والاستقصاء والدقة والبحث عن البيانات والوثائق ، وهذا ما سبب نفور الكثيرين منه . إذ اعتبروه معنيّاً بالدرجة الأولى بالنواحي الخارجية للأدب لا بجوهر الأدب ومعناه ، وبعضهم وصل إلى التندر عليه بتشبيهه بالشرطة الدولية (أنتربول) .

كذلك ارتفعت أصوات عديدة معترضة على ما يمكن أن يسمى بالتزمت في منهجية (الأدب

المقارن) ، على حين انصبَّت اعتراضات أخرى على التشكيك في حقيقة وجود شخصية خاصة لمنهج الأدب المقارن ونسقه وهدفه من بين حقول البحث الأدبي الأخرى ، أي أن الاعتراضات تناولته من خلال زاويتين متعاكستين إحداهما تصمه بالتزمت المنهجي والتنكر للأفق الإنساني ، والأخرى تفتقد فيه ملامح منهج خاص وشخصية مستقلة .

وبرزت بعد الحرب العالمية الثانية وجهة نظر ثالثة ، تتهم المدرسة الفرنسية التقليدية بأنها كانت أسيرة المركزية الثقافية الأوربية ، وأنها حاولت أن تسخر الأدب المقارن من أجل التركيز على التأثيرات الثقافية الأوربية في آداب العالم الثالث ، وبالتالي تبعية هذه الآداب لأوربة .

٤ ـ معظم الحلول التي طرحت للخروج من المعضلة كانت تعني ضمنياً إلغاءً لفكرة الأدب المقارن أو تحويلاً لها حتى تطابق أنساقاً أخرى من البحث الأدبي ، ليست بالضرورة مجانسة لها تماماً مثل (الأدب العالمي) و (الأدب العام) وهما مصطلحان مائعان بعيدان عن التحديد ، وليس من المعقول أن يتخلى الإنسان عن نسق بحثي عميق وجاد ومتجه إلى التبلور كالأدب المقارن ، ليتعلق بمفهومات غامضة ومختلف عليها من أساسها . وكان الباحث الأمريكي رماك أكثر الباحثين وعياً لمعضلة الأدب المقارن ، ولهشاشة الحلول التي طرحت للخروج من المعضلة ، ولذلك رأيناه يطوِّر نظرته باستمرار ويضيف إليها إضافات كثيرة ، ولكن من ينظر في صلب آرائه يجد أنها تضرب جذورها في المفهوم الأساسي للأدب المقارن وهو التأثر والتأثير ومنه تنطلق إلى المرونة والآفاق الأرحب ؛ كما أنها تؤكد أهمية الأدب المقارن وعدم إمكان التضحية بثماره لمجرد وجود اختلافات منهجية بشأنه ، بل تدعو إلى البحث عن الحلول الإيجابية الناجعة . وهذا الموقف يمثل اتجاه الغالبية العظمى من العاملين في حقل الأدب المقارن .

٥ ـ من الحق أن نعترف أن الانفتاح الإنساني الذي يتحدث عنه كثيراً خصوم المدرسة التقليدية الفرنسية لم يكن قط غائباً عن أذهان كبار المقارنين ، ولكن تدقيقهم في منهجية البحث وتركيزهم في البدء على الامتدادات الخاصة لآدابهم القومية (الأدب الفرنسي بوجه خاص) هما اللذان هيأا النفوس لقبول الانطباع العام بأنهم متزمتون ومتعصبون وضيقو الأفق . وربما كان في استمرار تمركزهم الأوربي ، وعدم تطور نظرياتهم حتى بعد مرور سنوات طوال على تجربتهم ، ما استدعى ذلك الهجوم الحاد على مواقفهم . واليوم جرى تجاوز كل هذه المواقف ، وهناك إجماع على ضرورة الانفتاح والمرونة ومراعاة الأفق الإنساني في الأدب المقارن .

ب ـ الاتجاه المقارني والتاريخ المعرفي العربي

من الواضح أن نظرية الأدب المقارن هي نظرية حديثة جداً ، من حيث كونه فرعاً من فروع المعرفة الأدبية يُعنى بالعلاقات الأدبية الدولية وهجرة الأفكار والأذواق والمبادلات المختلفة بين الأدب والفنون الأخرى . ولسنا نعرف في الماضي أي باب من أبواب البحث الأدبي شبيه بما يضمه اليوم مفهوم الأدب المقارن ، أي البحث في الصلات والمؤثرات ، وإن كنا نجد لمحات أو إشارات إلى بعض التأثيرات . ومن أهم أسباب ضمور مثل هذه اللمحات اتجاه معظم آداب الأمم في الماضي إلى الاعتداد الشديد بذاتها والاعتقاد بأن موهبتها الإبداعية ذات خصوصية متميزة جداً بحيث يصعب تصوّر تأثرها أو تلاقحها مع الآداب الأخرى . والاستثناء شبه الوحيد تقريباً من هذا الحكم هو حال الأدب الروماني في عصوره الأولى ، إذ كان أدباؤه شديدي التأثر بالأدب اليوناني ، وظلوا على وفاء لقيم الإبداع اليونانية وللنماذج الإغريقية الأولى ، وبالطبع هناك أسباب أخرى لضمور البحث في العلاقات الأدبية قديماً منها قلة انتشار الإلمام باللغات الأجنبية ، وضعف الترجمة ، لأنه بغير هاتين الوسيلتين النوعيتين يصعب التقرب من قضية التبادل الأدبي بالذات .

وكان لدى العرب في الماضي من الأسباب والمعتقدات ما جعل نشاطهم في حقل التبادل الأدبي أقل من نشاطهم في الحقول المعرفية الأخرى كالعلوم والفلسفة ، وترتّبَ على ذلك عدم ظهور أية اتجاهات واضحة للبحث في الصلات الأدبية أي للأصول الأولى للأدب المقارن(٣٠) . ولقد كان شائعاً بين العرب أن اللغة العربية هي أم اللغات وأن رسالة العرب إلى الآخرين تتضمن بشكل بارز (إعجاز القرآن الكريم) لا مضمونه فحسب ، وأن العرب أهل الشعر والأدب ، حتى إنه كان يصعب على بعضهم تصور وجود شعر لدى الأقوام الأخرى ، وكان اعتداد العرب بفصاحتهم ولسنهم يدفعهم إلى التعلق بقيم النقاء اللغوي ، وكان من أساسيات التدريب الأدبي (والخطابي والسياسي) لديهم إرسال أبنائهم إلى البادية ليتقنوا اللسان العربي في أنقى حالات صفائه ، ونحن نعرف أن هذا التقليد ظلَّ متبعاً حتى القرون المتأخرة ، وكان واضحاً في حالة بشار بن برد (وإذا

---

(٣٠) يلاحظ قسطاكي الحمصي في مقدمة كتابه (**منهل الوراد في علم الانتقاد**) أنه أمضى ستة عشر عاماً ينقب في كتب الأدب العربي القديمة والحديثة (١٩٠٦) : « لعلي أظفر بشيءٍ مترجم عن اليونان أو بكنز فكر في بعض الزوايا احتجب ، فلم أفُزْ بالضالة المنشودة » .

دخلت إلى نسائهم فنساؤهم أفصح) ، وفي حالة المتنبي الذي نشأ نشأة بدوية خالصة ، وكذلك من تلاهما من الشعراء .. ولم يكن الإقبال على اللغات الأجنبية ومعرفة آدابها أمرين واردَيْن في ظلّ هذا الاعتداد الأدبي اللغوي الشديد ، بل كان (الدخيل) لغة وأدباً هو المحذور الذي يخشاه الشعراء والأدباء ، وكان كاتب عظيم واسع الأفق مثل الجاحظ يقرر أن معرفة لغتين لا بدّ من أن تؤدي إلى أن (تدخل إحداهما الضيم على الأخرى)[٣١] . وبالطبع مثل هذه المواقف يصعب أن تؤدي إلى نشوء بذرة الدراسات الأدبية المقارنة . على أنّ هذا الاعتداد اللغوي الأدبي عند العرب في الماضي ، يجب ألا يوحي بوجود اتجاه انغلاقي في المعرفة ، بل إن الدرس الأساسي المستفاد من تطور الحضارة العربية هو درس الانفتاح والتبادل . ولذلك رأينا الشعر العربي نفسه (كشعر المتنبي) يستفيد من الحكم اليونانية ، (لا من اللغة ولا من الأدب) ، على أن هذا النوع من الاستفادة لم يضعف النظرة الاعتدادية ، وفي أيام المتنبي حتى يومنا هذا وجد أناس معتذرون لتأثره بالأفكار اليونانية والفارسية والهندية ، مصرّون على أن ما يذكر من مشابهات في أبياته الحكمية بوجه خاص مع أرسطو أو غيره ، ليس إلا من قبيل التشابه الطبيعي ووقع الحافر على الحافر .

وفي عصرنا الحاضر ما زال هذا التيار من الاعتداد الخاص بالأدب واللغة مستمراً وفاعلاً . وحتى اليوم نجد رأياً عاماً لا يستريح إطلاقاً للمقارنات مع الآداب الأخرى ، وينكر موضوع التأثر العربي بالآداب الغربية ، أو يحاول التقليل من شأنه أو طمسه بدافع من الاعتداد الأدبي ـ اللغوي الذي تقويه عادة نزعة المحافظة الدينية أو القومية . ونجد كذلك كتّاباً يركبون موجة هذه المشاعر ويحاولون أن يجدوا أصلاً عربياً للفنون الأدبية الحديثة كالقصة والرواية ، ويتعمّلون في ذلك أشدّ التعمّل ، ويصطنعون من الصلة بين مقامات الهمذاني والحريري والسير الشعبية وفن القصة الحديث ، ما لم يحسّ به أبداً رواد القصة الحديثة من المتعلمين المتأثرين بالغرب وثقافته وأدبه . ومثل هؤلاء نفر من الدارسين الذين يحاولون إيجاد أصلٍ لغوي عربي لكثير من الكلمات غير العربية التي تدرج في الاستعمال اليومي ، بل إن بعضهم يفسّر أي تشابه لفظي بسيط بين أية كلمة عربية وكلمة أجنبية بوجود أصلٍ عربي لهذه الكلمات .

---

(٣١) كشفت أبحاث اللغويات الحديثة عن وحدة الملكة اللغوية ، أي عدم اقتصار الموهبة اللغوية على لغة واحدة ، ولذلك يجري الآن في أوربة الشرقية وبلدان أخرى كثيرة إعداد المترجمين للعمل في نطاق عدة لغات أجنبية لا لغة واحدة فقط .

إن الإقرار بما كان للغرب من تأثير كبير في انبثاق النهضة العربية الحديثة ، وفي تطور المرحلة الحالية من حياة المجتمع العربي ، شيء ، والدعوة إلى استمرار العيش في مظلته وتحت لواء تأثيره شيء آخر . كذلك الاعتزاز المشروع بما كان للعرب من تأثير فعّال خلال القرون الوسطى في انبثاق عصر النهضة الأوربية شيء ، وافتعال التأثيرات والتفسيرات شيء آخر . والدراسات المقارنة في مختلف أبواب المعرفة تشير إلى أنه من المصلحة القومية للعرب أن يكونوا علميين ، لأن العلم إلى جانبهم ، إذ يظهر أنه في مرحلة الازدهار العربي والتخلف الأوربي ، أقبل العرب على العطاء وأقبل الأوربيون على الأخذ ، وأنه في مرحلة التخلف العربي في العصور الحديثة لم يمنع الماضي التليد العرب من الإقبال على اقتباس ما يساعدهم في النهوض والشروع في الانتماء إلى العالم المعاصر .

وهكذا يكون في المسلك العربي التاريخي من التفاعل الحضاري حافز قوي للإيمان بجدوى الاتجاه المقارني في المعرفة ، لأنه يساعد أية أمة على معرفة ذاتها ، وما يمكن أن يكون خواصها النوعية من جهة ، وعلى معرفة موقعها في خريطة الحضارة الإنسانية الشاملة . وفيما يتعلق بالأدب المقارن بالذات يلاحظ أن العوائق تزول تدريجياً من وجهه بعد أن تطورت نزعة التفاخر اللغوي الأدبي القديمة إلى نوع من الثقة القومية بالنفس ، ومحبة أصيلة للغة والأدب بمقدار مشروع لا يطغى على الحقيقة الإنسانية الشاملة القائمة على الاحترام المتبادل بين الأمم ، وما يتبع ذلك من ضرورات التفاعل والتعاون الدولي ، والانفتاح على مناخ الثقافة العالمية المشتركة بوعي وتبصر ، من خلال التمسك بالهوية التاريخية والتراث الخاص ، وليس من خلال التبعية أو الذوبان أو التخلي عن الملامح الخاصة للثقافة القومية .

جـ - بذور وجهة نظر عربية في الأدب المقارن

على الرغم من كل الاعتراضات يسير الأدب المقارن بخطوات حثيثة في اتجاه التعرف على نفسه من جهة ، والتوصل إلى نتائج ذات نفع فكري عام من جهة أخرى . ويمكن القول : إنه ابتداء من خمسينات هذا القرن بدأ نطاق المشاركة في البحث المقارن يتوسع ليتجاوز أوربة جغرافياً ، وليجد مجالاً خصباً للنشاط في الجامعات الأمريكية ، وكذلك ليجد اهتماماً - ولو مبدئياً - في جامعات العالم الثالث . إنه على الرغم من كثرة الاعتراضات ، يصادف هوى في نفوس الباحثين ، وعلى الرغم من تعلقه أصلاً بمفهوم التأثُّر والتأثير والعلاقات الخارجية فإنه يصبح بالتدريج أوسع أفقاً بفضل رحابة تلك المنطقة من العالم التي يجري مسحها أدبياً ، وكذلك بفضل مرونة منطقه التي سمحت له

أن يتناول قطاعاً كبيراً مما يقع تحت عنوان (الأدب العام) وكذلك (الأدب العالمي) دون أن يفقد هويته .

وعلى الرغم من الميل الواضح لدى الأساتذة الكبار في الأدب المقارن إلى الانطلاق من مفهوم التأثر والتأثير ، فإن نتائج الأدب المقارن ـ على اختلاف اتجاهاته ـ أصبحت ذات جدوى واضحة بالنسبة للناقد الأدبي الذي يتمتع بأفق إنساني ، وكذلك بالنسبة للمؤرخ الأدبي المتجاوز للتحزب المحلي والإقليمي . بل يمكن القول : إن مؤتمرات الأدب المقارن اليوم ، ولا سيما تلك التي تعقدها (الرابطة الدولية للأدب المقارن) تُسْهم في وضع مناخ لتلاقح التجربة الأدبية الإنسانية والأفكار البحثية والنقدية بشكل لم يعرف العالم مثيلاً له من قبل ، ذلك أن الأدب كان من الأنظمة المعرفية المغلقة قومياً ولغوياً في القديم .

ويبدو لنا أنه من الممكن القول : إن الأدب المقارن منهج خاص في المعرفة الأدبية يشترك مع سائر مناهج التقرب الأدبي كالتاريخ الأدبي والنقد في منطقة واسعة وفي منطق عام ، ولكنه يتميز عنها بما يؤهله لأن يكون فرعاً من المعرفة الأدبية ذا شخصية واضحة تقترب من المناهج العلمية الموضوعية وتتطلب إعداداً متكاملاً وله منطقة خاصة ، هي منطقة التبادلات والامتدادات خارج الحدود المحلية سواء من ناحية المناطق الجغرافية واللغوية والقومية ، وهذا هو الأصل ، أم من ناحية المناطق الخاصة بأشكال الإبداع الفني وأنساق المعرفة ذات الصلة بالظاهرة الأدبية ، بوصف ذلك نوعاً من البحث المكمل . وبذلك يتيح للباحثين الإحاطة بالظاهرة الأدبية من خلال أبعادها اللغوية والثقافية والمعرفية المتجاوزة للحدود .

ويبدو من التجربة الأدبية العربية في الماضي والحاضر أن التركيز على مسألة التأثر والتأثير لا يعني بالضرورة بثاً لأفكار المركزية الأوربية ، ولا خنقاً للأفق الإنساني ، وقد عالج الباحثون الأوربيون الأوائل ما كان ذا أولوية خاصة لهم ، ولا سيما من ناحية العلاقات الأوربية ـ الأوربية (فرنسا ، بريطانيا ، ألمانيا ، إسبانيا ، اليونان إلخ ..) وكانوا أكثر اهتماماً بالحاضر لأن التبادلات في عصرنا الحاضر تكتسب أهمية خاصة في تشكل الآداب القومية .

وإذا أردنا أن نتجاوز النظرة الضيقة التقليدية ، فإننا لا نتجاوزها بالخروج عن نظرية الأدب المقارن أو إلغائها ، ولكن بتوسيع منطقة البحث تاريخياً لتشمل العصور الماضية التي كانت فيها أوربة مستوردة للأفكار الأدبية والعلمية على السواء . فمثلاً إذا ركزنا البحث على التأثيرات

العربية الإسلامية في الكوميديا الإلهية لدانتي ، أو في الشعر البروفنسالي (تروبا دور) ، نجد أن حركة التأثر والتأثير ذات اتجاهات متعددة خاضعة لقانون تاريخي ، وليست وقفاً على عملية التصدير الأوروبية السائدة في العصر الحديث . ونحن العرب مؤهلون أكثر من غيرنا لأن ندرك أن التاريخ الثقافي الأدبي للعالم هو - في جانب كبير منه ، أي الجانب الذي يعنى به الأدب المقارن - تاريخ تفاعل وتبادل وتلاقح . ويكفينا باتجاه أوربة تجربة الأدب العربي في الأندلس الذي قدم حالة فريدة في تاريخ الآداب العالمية من ناحية المقدرة على تجاوز الشروط المكانية بوجه خاص ، ذلك أنه كان نبتة نمت في أرض بعيدة جداً عن الأصل والمنبت (الجزيرة العربية) ، واستطاع في وقت واحد أن يظلّ وفياً لتراثه وشخصيته ومنبته من جهة ، وأن يتفاعل من جهة أخرى مع شروط بيئته الجديدة جغرافياً وثقافياً ، مما أهّله لأن يكون خير وسيط بين تجربتي الشرق والغرب في الأدب ، وكان أبرز منتجات هذه التجربة بزوغ شعر الموشحات العربي وشعر التروبادور والشعر البروفنسالي الغربي . وإذا تركنا العلاقة مع أوربة جانباً واتجهنا بأبصارنا إلى المشرق سنجد أن تجربة الأدب الإسلامي ، أو آداب الدول الإسلامية ، من أغنى التجارب في تاريخ التفاعلات الأدبية العالمية ، إذ ولّد التلاقح بين الثقافة العربية وثقافات البلدان الآسيوية والإفريقية المسلمة آداباً جديدة مزدوجة الشخصية ، كانت بصمات الأدب العربي فيها شديدة الوضوح من ناحية الموقف الفكري والنفسي ، والخيال الأدبي ، والشكل الفني ، والاستعمال اللغوي ، مما يوفر تربة خصبة شديدة الغنى لدارسي الأدب المقارن . ويكفي أن يتذكر الإنسان تجارب التفاعل المدهشة بين الأدب العربي والآداب الفارسية والأوردية (باكستان) والماليزية ، وآداب بلدان آسية الوسطى ، وآداب حزام البلدان الإفريقية المحاذية للشمال الإفريقي (تشاد ومالي ونيجيريا إلخ ...) . وإن البحث المقارني هو الكفيل بإضاءة كل هذه الجوانب المتلئة بالدروس الغنية في مجال التلاقح والتفاعل بين الأدب العربي والآداب المجاورة . وهذه الدروس تؤهل الأدب المقارن العربي لأن يكون الأكثر انفتاحاً والأكثر ثقة بالنفس ، وتضع أمامه ثروات بحثية عامرة بكنوز الإدهاش الفني والعبر الإنسانية .

ومرة أخرى يتضح من تجربة الأدب العربي ، ماضياً وحاضراً ، أن منهج البحث المقارن هو الذي يستطيع أن يفسّر لنا مثل هذه الجوانب المهمة من تطورات أدبنا وغيره من الآداب القومية ، وأن يضيء لنا أسباب الانبثاقات المفاجئة أو الوهدات غير المتوقعة في مجرى تاريخها ، وأن يؤكد

لنا كذلك المنطقة المشتركة بين الآداب القومية من خلال إبرازه للتمايز والاختلاف اللذين ينجم عنهما التأثير والتأثر عادة ، وبالتالي أن يوطد مفهوم إنسانية الإنسان وإنسانية ثقافته ؛ وينطبق كل ذلك على الأدب العربي الذي كان تاريخه حافلاً على الدوام بتطورات مثيرة وقفزات مدهشة .

ومن الطبيعي أنه كلما أمكن التوصل إلى مثل هذه النتائج من خلال منهجية بحثية واثقة من نفسها أمكن الابتعاد بفكرة التواصل الإنساني ـ الثقافي على الأقل ـ عن العاطفية والرومنتية ، وشطحات التفكير الرغبي ، ونزوات التبجح القومي والاعتداد اللغوي والإقليمي ، وادعاءات السرقات الأدبية .

ومن خلال نظرة مرنة غير متزمتة ، لا شيء يمنع من دخول الأدب المقارن في حدائق التذوق الجمالي والاستمتاع الفني ، والبحث في الصورة الأدبية والخيال والأسلوب والمعجم اللغوي للكاتب وموسيقا النص ، وما قد يوجد من أوزان عروضية أو أنساق خاصة في ترتيب الكلام ، وكذلك البحث في الشخصية الروائية وفي قيمها وفي البناء الفني للأعمال القصصية وفي كل ما يمتُّ إلى ذلك بصلة ، حيثما اقتضت ضرورات البحث المقارني ذلك ، ومن زاوية إظهار منطقة التأثر والتأثير ، وبشرط ألا يحلّ الأدب المقارن محلّ النقد الأدبي ، كما يحدث في كثير من الدراسات المقارنية التي يكاد فيها الأدب المقارن يشمل كل شيء .

ولا يستطيع المرء أن يتجاهل هنا بالطبع العبارات المتشددة لأساتذة المدرسة الفرنسية التقليدية ، ولا سيما جان ـ ماريه كاريه ، التي أكدوا فيها ما يمكن أن يكون تحريم مثل هذه الأبحاث الجمالية على الباحث المقارن حرصاً منهم على علمية المنهج ، ونعتقد أن مثل هذا التشديد قد فات أوانه ، وما ذاك فحسب لأن تطورات الأدب المقارن قد تجاوزته ، وما ذاك فحسب لأن تجريد الأدب المقارن من التذوق والجماليات يبعده عن أن يكون أدباً ، بل كذلك لأن تطورات التذوق الأدبي نفسه أخذت تبتعد به عن مناخ التأثرية المطلقة التي كانت سائدة في فرنسا في نهاية القرن التاسع عشر وأول القرن العشرين ، وتتجه إلى الوقوف على أرضية صلبة من خلال مناهج أدبية وأنظمة في التقرب والبحث تستفيد من المناهج العلمية العامة ، وتحتفظ لنفسها بخصوصية المعرفة الأدبية ، وذلك من مثل (الأسلوبيات) و (اللغويات الحديثة) و (السيمائية) و (البنيوية) وغيرها .

ولقد قطع الأدب المقارن حتى الآن شوطاً مبدئياً في هذا المجال ، ولكن الخلافات المنهجية مازالت تعرقل مسيرته ، وما زالت تفتح ميداناً خصباً لمبارزات ذهنية ، يمكن أن تكون أكثر فائدة ، لو أنها وجهت من أجل اكتشاف تلك الحقول الغنية من التبادل الثقافي الإنساني التي مازالت إما مجهولة أو أسيرة نظريات غير مستندة إلى تفحص منهجي سليم .

ويمكن أن يلاحظ المرء بسهولة أن جانباً كبيراً من الخلافات المنهجية في الأدب المقارن يمثل إسقاطات أيديولوجية ومبدئية وإنسانوية أحياناً ، تتمثل تمثلاً مباشراً ومتفجراً ، وأحياناً تتخذ طابع مساجلة منهجية . ويلاحظ في كثير من المساجلات وجود تداخل ، يكثر أو يقل ، بين نسقين معرفيين متقاربَيْن ولكنهما غير متطابقين بالضرورة ، وهما النقد الأدبي والأدب المقارن . وتدلُّ التجربة العربية القديمة والحديثة ، والتجربة الإنسانية كذلك ، أن النقد الأدبي هو النسق المعرفي الأكثر انفتاحاً على الأيديولوجية والتشريع من جهة ، وعلى الذاتية والتذوقية من جهة أخرى ، ونظرياته قادرة على استيعاب كل هذه الامتدادات بل مهيّأة لها ، معرفياً وتاريخياً . أما الأدب المقارن فيظل نسقاً بحثياً رائدُه الوصول إلى الحقيقة الموضوعية بقدر ماتسمح بها طبيعة العلوم الإنسانية ، وسوف يفسده كثيراً أن تُلوى نتائجه مسبقاً لتستجيب لتصورات قَبْلية apriori ، مسقطة أيديولوجياً أو قومياً ، مما لا يخدم الحقيقة ولا العلم .

☆ ☆ ☆

ومرة أخرى نستطيع القول إن التجربة العربية القديمة في التفاعل الثقافي والحضاري ، وكذلك التجربة الحية المعاصرة ، لاتتضمنان مايمكن أن يشكل أي تحفظ على تمسك الأدب المقارن بالعلمية والمنهجية من جهة ، وعلى تطلعه لتوسيع منطقه ومنطقته ، من جهة أخرى ، ليستطيع أن يضم إلى دراسة الظاهرة الأدبية خلف حدودها الجغرافية واللغوية - وهو الأساس - دراسة هذه الظاهرة خلف حدودها المعرفية أي في اتصالها بالمعارف الإنسانية والفنون الأخرى ، على مافي هذه المهمة من صعوبات وتداخلات ومزالق .

والمهم - بعد هذا كله - أن يستطيع الأدب المقارن المحافظة على تماسكه الداخلي بوصفه نسقاً معرفياً ذا شخصية خاصة تظهر مؤشرات واضحة باتجاه التجاوب مع روح العصر ومناخ الثقافة الإنسانية المشتركة .

الباب الثاني

الأدب المقارن في العالم :
النشأة والتطور وخارطة الحاضر

الفصل الأول :

١ ـ البداءات الأولى في القرن التاسع عشر .
٢ ـ تطور الدراسات المقارنية في القرن العشرين .
٣ ـ ازدهار الأدب المقارن في أمريكا .
٤ ـ امتدادات أُخرى :
- أوربة الشرقية .
- آسية ، واليابان بوجه خاص .

الفصل الثاني :

اهتمامات معاصرة للأدب المقارن .
أ ـ الرابطة الدولية للأدب المقارن .
ب ـ المؤتمر الثامن أساس للتطورات المعاصرة .
جـ ـ مؤتمرات لاحقة واهتمامات مستجدة .
د ـ أنموذج لنشاط مقارني خارج الرابطة (باريس وظاهرة العواصم الأدبية) .



الفصل الأول :

١ ـ البداءات الأولى في القرن التاسع عشر

ترجع نشأة (الأدب المقارن) إلى العقد الثالث من القرن التاسع عشر وربما إلى سنة ١٨٢٧ بالضبط ، حين بدأ الفرنسي آبل ڤيلمان Abel Villemain يلقي محاضرات في الصوربون بباريس تدور حول علاقات الأدب الفرنسي مع الآداب الأوربية الأخرى ، إذ تناول مثلاً التأثيرات المتبادلة بين الأدبين الفرنسي والإنكليزي ، وكذلك أثر الأدب الفرنسي في إيطاليا في القرن الثامن عشر . والجدير بالذكر أن ڤيلمان استعمل مصطلح (الأدب المقارن) وإليه يعود الفضل في وضع الأسس الأولى لمنطق هذا النوع من الدراسة الأدبية ومنطقته .

إلا أن محاولات المقارنة بين الآداب الأوربية ودراسة العلاقات المتبادلة فيما بينها ظهرت قبل ڤيلمان بسنوات عديدة ، وقد شهد القرن الثامن عشر بعض المحاولات من هذا النوع نتيجة لعوامل مختلفة من أهمها :

١ ـ اتساع الأفق الأدبي لدى الباحثين نتيجة ازدياد الصلات الثقافية بين الشعوب الأوربية ، وبدء تعرف كل شعب بآداب الآخر ، عن طريق الترجمات أو المعرفة المباشرة للغات الأجنبية ، وفي هذا القرن مثلاً بدأت فرنسا تحسّ بتأثير الأدبين الألماني والإنكليزي بعد أن كانت الأذهان منصرفة إلى الأدبين الإيطالي والإسباني ، بالإضافة إلى تأثير العصور القديمة الكلاسيّة (الأدبين اليوناني والروماني) .

٢ ـ ظهور اتجاه قوي إلى (العالمية) متجاوز لحدود الأمم ولنزعات التفرد والانعزالية ، وقد تجلى هذا الاتجاه في فكرة التخلي عن ادعاء تفوق أدب ما ، على الآداب الأخرى ، لصالح الاعتقاد بأن الآداب الأوربية هي حصيلة تفاعلات مشتركة عميقة ، وأن الإبداع الأدبي تجربة مشتركة غير مقصورة على أدب دون أدب . ويعتبر ڤولتير وروسو وديدرو وغوته من أوائل المبشرين بالروح العالمية في مجال الثقافة والأدب . وبالطبع تعتبر الدراسات الأدبية المقارنة أفضل تعبير عن هذه الروح .

٣ ـ تبلور الاتجاه الرومنتي (الابتداعي) في الأدب وتطوره إلى اتجاه إنساني شامل معني بالتجربة الإنسانية أينما كانت ، ومتجاوز لحدود الأمم واللغات ، ومتطلع باتجاه لون جديد في التجربة الأدبية يتخطى المفهومات الأوربية ويتطلع باتجاه التجربة الشرقية العريقة .

وفي البدء ظهر الاتجاه الرومنتي كما لو أنه مناوئ لمفهوم الأدب المقارن ، لأنه أصرّ على الفردية والتراث الشعبي والخصائص النوعية ، وأظهر ريبة في كل ما هو مشترك بين الآداب ، باعتباره مضاداً لمفهوم الأصالة الفردية والقومية . ولكن اتساع المفهوم الرومنتي فيما بعد وانتشاره على مدى القارة الأوربية وتبرم كثير من الأدباء والشعراء الرومنتيين بالحدود القومية والسياسية (شلي وبايرون مثلاً ، وقبلهما مدام دوستال) ، كل ذلك أدى إلى خلق تربة مناسبة للدراسات الأدبية المقارنة ، ولا سيما فيما بين الآداب الأوربية أولاً ثم بين آداب الغرب وآداب الشرق .

٤ ـ اتساع تأثير المناهج العلمية في فهم الأدب ودراسته ، وازدياد إيمان الباحثين الأدبيين بضرورة إخضاع المادة الأدبية لمعطيات العلم المعاصر ، وفيما يتعلق بالأدب المقارن بالذات تمثل هذا التأثير في ناحيتين أساسيتين :

الأولى : انتشار المقارنات العلمية بين الأمم ومحاولة العلماء الاستفادة مما وصل إليه التطور العلمي خارج حدود بلدانهم ، مما نجم عنه نشأة فروع جديدة من المعرفة تعتمد على المقارنة مثل : (علم الحياة المقارن) و (علم التشريع المقارن) و (علم اللغة المقارن) و (علم الميثولوجية المقارن) . وقد انتشرت العدوى بسرعة إلى حقول الدراسة الأدبية وأخذ بعض الباحثين الأدبيين يشيرون إلى ضرورة ظهور (علم أدبي مقارن) ، وكان في مقدمتهم (ادجار كينيه Edgar Quinet) الفرنسي الذي كان أول من اقترح ظهور (الأدب المقارن) على قياس العلوم الأخرى المقارنة مثل (التشريع المقارن) ، وذلك في كتاب له إلى جامعة الصوربون :

« ... لقد قالوا : (تشريع مقارن) ؟ ألا يمكن أن يقال (أدب مقارن) أو شيء آخر قريب منه يندرج في هذا السبيل ؟ » .

الثانية : تأثير المكتشفات العلمية في حقل علم الاجتماع وعلم النفس والتاريخ وغيرها من أنواع المعرفة ، التي أكدت أن الإنسان حصيلة عوامل مختلفة بيئية واجتماعية ونفسية ، وأنه محكوم إلى حد كبير بهذه العوامل ، مما دفع الباحثين الأدبيين إلى محاولة تجاوز التبسيط السابق في فهم

النفس الإنسانية والإنتاج الأدبي ، وربط الإبداع الأدبي والفني بوجه خاص بعوامل العرق والبيئة والتاريخ الثقافي وغير ذلك ، أي فهم الأدب من خلال دراسة الأدباء وظروف نشأتهم ومحيطهم . وقد بالغ باحثو القرن التاسع عشر في هذه الناحية حتى أرجعوا الإبداع إلى تصنيفات عامة ، وأكثروا من الكلام حول الحتمية والجبرية ، وفي مقدمتهم إرنست رينان ، وسانت بوف ، وهيبوليت تين . وكان من نتيجة ذلك بالطبع الاتجاه إلى تأسيس علم يحاول البحث في أصول الأفكار وعوامل التكون الثقافي لدى الأفراد والأمم ، ولعل كتاب الباحث الإنكليزي بوسنت الذي حمل اسم (**الأدب المقارن**) عام ١٨٨١ يوضح هذا الاتجاه العام إلى دراسة ظاهرة الأدب في تأثرها بالعوامل الاجتماعية وتجاوبها مع مرحلة التطور الاجتماعي لكل مجتمع من المجتمعات .

(فرنسا) **وتعتبر فرنسا المهد الأول للأدب المقارن ولذلك عوامل لغوية وسياسية واجتماعية وثقافية أهمها** : أن فرنسا احتضنت منذ البدء الدراسات الخاصة باللغات الرومانسية وهي لغات أقطار أوربة الجنوبية التي تفرعت عن اللاتينية واستقلت عنها ، وأخذت منها بالتدريج امتيازها الخاص ، بحيث لم تعد اللاتينية لغة اللاهوت والثقافة والسياسة والطبقات الراقية كما كانت في العصور الوسطى . ونظراً لاهتمام فرنسا بهذه اللغات الرومانسية ونظراً لأن ثورة فرنسا على اللغات اللاتينية تبلورت في شكل اتجاه أدبي فكري (شعراء الثريا pléaide)[1] فإن الفرنسيين كانوا أول من تنبه إلى قيمة التراث المشترك بينهم وبين المناطق الأوربية الأخرى ، مما خلق الأساس الأول للتفكير في الأدب المقارن . وكان المناخ الثقافي الفرنسي منذ عصر الاتباعية الجديدة (القرنان السابع عشر والثامن عشر) مواتياً لممارسة البحث الأدبي المعمّق ولا سيما بعد أن تعاقب على فرنسا حكام اهتموا بأن تكون باريس مركز إشعاع ثقافي فني للقارة الأوربية بأكملها .

ومن المؤرخين من يرجع نشأة الاهتمام بالأدب المقارن في فرنسا إلى القرن التاسع الميلادي ويتابع هذا الاهتمام في القرن الثاني عشر والسادس عشر والسابع عشر . والواقع أننا لو أخذنا نبحث عن بداءات كل علم من خلال التلميحات الغامضة القديمة له لوجدنا أن جميع العلوم قديمة جداً ، لأن أصولها المبدئية موجودة في التجربة الإنسانية والحاجة الإنسانية إلى العلم . ولكن ما نحن بصدده الآن هو تتبع النشأة الأولى للأدب المقارن بوصفه علماً حديثاً . وربما كانت البذرة الأولى لهذه

---

(١) من أجل أخذ فكرة مركزة عن دور شعراء (الثريا) في إحياء اللغة الفرنسية تمكن مراجعة :

د . حسام الخطيب : « **محاضرات في تطور الأدب الأوربي** .. » جامعة دمشق ، ١٩٧٥ ، ص ص ١٠٠ ـ ١٠١

النشأة في كتاب (عن ألمانيا) لمدام دوستال DeStaal الذي نشرته عام ١٨١٠ بعد رحلة غنية إلى ألمانيا ، والذي ترك تأثيراً كبيراً في الرأي الفرنسي المثقف ، لأنه مدّ واحداً من أوائل الجسور الفكرية والاجتماعية بين بلدين أوربيين متجاورين ، لم تكن العلاقة بينهما دائماً على ما يرام ، وفي هذا الكتاب تقول مدام دوستال :

« لا بد للأمم أن تتواصل فيما بينها وتهدي إحداها غيرها ، ومن الخير للأمة أن ترحب بالأفكار التي ترد إليها من الخارج ، فإن الأمة المضياف في هذا الخصوص هي التي تغنم أكبر الغنم » .

وبالطبع ليس هذا الكلام هو المقصود بالأدب المقارن ، ولكن روح الموقف التبادلي المنفتح هي التي حملت البذرة الأولى للدراسات الأدبية المقارنة .

وعلى أي حال كان على الأدب المقارن أن ينتظر مرور عقدين آخرين من الزمن على كتاب مدام دوستال ليظهر على شكل دراسة جادة بدأها الأستاذ آبل ڤيلمان عام ١٨٢٧ بمحاضرات في جامعة الصربون حول التأثير والتأثر في الأدب ، وكان من جملة موضوعاته : « فحص الأثر الذي تركه كتاب فرنسا في القرن الثامن عشر على الآداب الأخرى وعلى العقلية الأوربية عموماً » .

ومن الواضح أن التربة كانت قد تهيأت لذلك نسبياً ، إذ ظهر جان جاك آمبير J.J.Ampére سنة ١٨٣٠ في مارسيليا ، وألقى محاضرات في الأدب المقارن لفتت إليه الأنظار ، وأتاحت له أن ينتقل بعد ذلك بسنتين إلى باريس ليلقي محاضرات في الصربون عن الأدب الفرنسي وعلاقاته بالآداب الأجنبية إبان العصور الوسطى . وفي عام ١٨٣٥ ظهرت مقالات (فيلاريت شال Ph.Chales) في (**مجلة باريس**) مؤكدة متانة العلاقات بين الآداب الأوربية .

وكان جوزيف تكست Texte أول من تولى منبر ليون الذي أسس عام ١٨٩٦ ، وسار على خطا أستاذه برونتيير ، وكتب دراسات عميقة في الأدب المقارن جمعها تحت اسم (**دراسات في الأدب الأوربي**) سنة ١٨٩٨ ، وكان لها أثر قوي في نمو الأدب المقارن ، وكان تكست شديد الحماسة للأدب المقارن ، ومن أسف أنه مات في الخامسة والثلاثين (سنة ١٩٠٠) ، ولم يتح له أن يستكمل تأثيره .

ويقول فيه غنيمي هلال : « وقد وفِّيت كل وجوه التقصي ، واكتمل بحق معنى الأدب المقارن على يد البحاثة الفرنسي جوزيف تكست ... وهو يعد حقاً أباً للأدب المقارن الحديث ... وتمتاز دراسته بالأفق الواسع والنظرة الشاملة في بيان تطور الأفكار واختلافها على حسب تطور الشعوب واختلاف أحوالها الاجتماعية ... »[٢] .

وقد خلفه على منبر ليون الباحث فرنان بالدنسبرغيه الذي ألف كتابه (**غوته في فرنسا**) سنة ١٩٠٤ . ثم سمي أستاذاً في (الصربون) حينما أحدث كرسي للأدب المقارن فيها سنة ١٩١٠ . وفي الوقت نفسه ظهرت أول فهرسة لمصادر الأدب المقارن على يد (بتز) الفرنسي سنة ١٩٠٠ ، ولما توفي عام ١٩٠٣ أتمّ بالدنسبرغيه عمله وجمع أبحاثاً كثيرة مفيدة . وتشير بعض المصادر إلى أن فهرسة بتز ظهرت عام ١٨٩٧ .

وكان بتز قد اختار الأستاذ تكست ليكتب مقدمة هذه الفهرسة ، وقد جاء في المقدمة بيان لأنواع المباحث التي يتناولها الأدب المقارن ، وهي أولاً مسائل نظرية ومشاكل عامة ، وثانياً الفولكلور أو التراث الشعبي المقارن ، وثالثاً الدراسة المقارنة للآداب الحديثة ، ورابعاً تاريخ شامل للأدب في كل زمان ومكان .

وفي تلك السنة أيضاً انعقد في باريس مؤتمر عالمي جمع أساتذة الأدب في فرنسا وخارجها حيث بحثوا فيما سمي إذ ذاك بالتاريخ المقارن للآداب ، وقد دعوا في هذا المؤتمر لدراسة التراث الشعبي والأساطير والخرافات جنباً إلى جنب مع الأدب ، كما أكدوا على ضرورة المقارنة بين مختلف الآداب الأوربية ، واعتبروا دراستها مقدمة لدراسة الآداب العالمية الأخرى .

وهكذا كانت فرنسا سباقة إلى إنشاء هذا المنحى الجديد في الدراسة الأدبية ، وإن كانت بعض البلدان الأخرى قد سجّلت بعض الإسهام فيه . وأهم هذه البلدان **بريطانيا** التي نشر فيها أول كتاب في الأدب المقارن ما بين عامي ١٨٣٧ ـ ١٨٣٩ في أربعة مجلدات للأستاذ هنري هالام Henry Hallam بعنوان :

(بريطانيا)

« مقدمة لدراسة الأدب الأوربي في القرن الخامس عشر والقرن السادس عشر والقرن السابع عشر » . وقد أعيدت طباعة هذا الكتاب للمرة الرابعة في نيويورك عام ١٨٨٠ .

---

(٢) هلال : الأدب المقارن ، ص ص ٧٥ ـ ٧٦

ويعتبر الأديب الإنكليزي الناقد الشاعر ماثيو أرنولد Mathew Arnold أول من جارى الفرنسيين في استخدام تعبير الأدب المقارن وأذاعه بين القرّاء ، وذلك بعد ظهور كتاب هالام بعشر سنوات ، ودعا أرنولد إلى دراسة الأدب بغير قيود أو حدود ، ونعى على بريطانيا أنها ما زالت متخلفة في هذا المجال عن سائر بلاد القارة الأوربية .

(نيوزيلندة) وما إن حلّت سنة ١٨٨٦ حتى ظهر في (**نيوزيلندة**) كتاب عن الأدب المقارن ألفه هتشيصن ماكولي بوسنت Hutcheson Macaulay Posnett ، ويعتبر هذا الكتاب[٣] أول محاولة منهجية شاملة في الأدب المقارن ، وفيه إصرارٌ على أن تاريخ الأدب فرعٌ من فروع علم الاجتماع ، وهو أمر لا يستغرب صدوره في عهد غلبت عليه الفلسفة الوضعية . وقد وصف بوسنت منهجه بأنه تطبيق لقواعد التاريخ في مجال الأدب ، ونعى على دارسي الأدب المقارن إهمالهم للمنهج التاريخي في تناول المسائل الأدبية ، واعتبر النقد الأدبي ونظريات الأدب خروجاً مذموماً على ذلك المنهج ، بل إنه أعلن الحرب على المتخصصين فيهما متمنياً على الله ألا تترك دراسة الأدب في أيديهم .

ولم يكن بوزنت راضياً عن مصطلح (الأدب المقارن) ، ومع ذلك فإنه استخدم هذا المصطلح ، وساعد على نشره بين القراء ، كما فعل سلفه ماثيو أرنولد ، وقد أكد ڤان تييغم عام ١٩٣٠ أن هذا الكتاب هو أول كتاب موقوف على نظرية الأدب المقارن ، وأنه لا يزال شيقاً « على كونه لا يحقق كل الظن فيه » .

(ألمانيا) وفي (**ألمانيا**) كان الأدب المقارن ، يعتبر دائماً ومنذ البداية فرعاً من تاريخ الأدب ، وكان الأستاذ كاسبر دانيال مورهوف Kasper Daniel Morhof أول من تنبه إلى أهمية الأدب المقارن في الدراسات الجامعية ، وأول من أدخله في المناهج تحت اسم تاريخ الأدب العام ، وظل الحال كذلك حتى قرب نهاية القرن الماضي ، ولم يتفرغ الألمان لدراسة الأدب المقارن إلا بعد أن أشبعوا أدبهم الألماني دراسةً وبحثاً ، وحتى في تناولهم للآداب الأخرى كانوا ينظرون إليها من وجهة نظرهم الألمانية .

وفي سنة ١٨٨٠ كان الأستاذ شمدت Schmidt يحاضر في جامعة ڤينّا ، وجاء في سياق محاضرة له « أن تاريخ الأدب يجب أن يكون جزءاً من تاريخ التطور الثقافي والروحي للأمم التي نقارن

---

(٣) نشر هذا الكتاب في أمريكا تحت عنوان (الأدب المقارن) ، **Comparative Literature** ، نيويورك ١٨٨٦

بين آدابها ... ولكن قيام أدب قومي لا يستتبع بالضرورة فرض حماية جمركية صارمة لوقايته من المنافسة ، فعندما يتعلق الأمر بحياتنا الثقافية لابد أن نكون أحراراً في تصرفاتنا ، ومع ذلك فهل نستطيع نحن الألمان أن نفصل في موضوع الكفاية الذاتية أو الاعتماد على الآخرين ، أو نحدد نصيبنا من الإنتاج والاستيراد ، أو نحكم في قضية التغذي بالآداب الأخرى وهضمها بشكل صحيح أو كاذب ، هل نستطيع ذلك بالسهولة نفسها التي نحكم بها على الأدب الألماني ، ونجعل له دوراً بارزاً على مستوى العالم كله ؟ لا بد أن نواجه أولاً وبالدرجة الأولى علاقة الأدب الألماني بالعالم القديم ، وكيف نظر إليه الدارسون من وجهات نظر عديدة » .

وبعد شمدت جاء موريز كاريير Moriz Carriere فنشر عدة كتب ، ووضح فيها منهجه الذي يعتمد على دراسة الموضوعات المتشابهة في الأعمال الأدبية المختلفة .

ولم يدخل الأدب المقارن نطاق الدراسة الجامعية الأكاديمية في ألمانيا إلا بعد سنة ١٨٨٧ وبفضل الأستاذ ماكس كوخ Max Koch ، الذي نشر في أول عدد من أعداد مجلة **(الأدب المقارن)** التي كان يصدرها مقدمة ذات شقين : الشق الأول استعراض سريع للنقد الأدبي المقارن في ألمانيا ابتداء من مورهوف إلى بنفي Benfey وجودكه Goedeke ، والشق الثاني قائمة بمجالات التخصص في الأدب المقارن . حصرها فيما يلي :

١ ـ فن الترجمة .
٢ ـ تاريخ الأشكال والموضوعات الأدبية .
٣ ـ تاريخ الأفكار السائدة في العصر .
٤ ـ العلاقة بين تاريخ الأدب والتاريخ السياسي .
٥ ـ الروابط بين الأدب والفنون التشكيلية ، وبينه وبين التطورات الفلسفية إلخ ...
٦ ـ علم الفولكلور الذي وصل إلى مرحلة النضج وأصبح موضع الاحترام بعد أن كان مهملاً منبوذاً من الجامعيين .

ولم يتردد كوخ في أن يجعل دراسة الأدب الألماني هي المدخل إلى هذه التخصصات ، وأن يدعو إلى دراسة الأدب الحديث في نطاق التطور التاريخي ، وإليه يرجع الفضل في إسباغ الصفة الأكاديمية على دراسة الخرافات والأساطير والحواديث والأمثال الشعبية الشائعة ليس فقط في أوربة ولكن خارجها أيضاً ، بما في ذلك الهند وإفريقية والصين ، وهو الذي تناول مع تاريخ الأدب

التاريخ الديني والسياسي ، ونوه بالتأثيرات المتبادلة بين الآداب ، فقد تناول تـأثير دانتي الإيطـالي على الأدب الألماني ، وتأثير لسنج Lessing الألمـاني على روبرت بيرنز Robert Burns كبير شعراء اسكتلندة .

على أن مادة الأدب المقارن لم تدرج في صلب المناهج الجامعية الأكاديمية إلا بعد عناء شـديـد ومعارك ضارية ، فقد ظل الأستاذ ر.م.ماير R.M.Meyer يدافع عن الأدب العالمي ـ لاالأدب المقارن ـ باعتباره أفضل ماتمخضت عنه عقول العباقرة في العـالم كلـه ، وكان مـاير يحشر في نطـاق الأدب العالمي الأعمال العلمية والفلسفية . وبعده جـاء الأستـاذ أرنست ألستر Ernst Elster وفصل العـلاقـة بين الأدب العـالمي والأدب المقـارن في مجلـة الصــدى الأدبي Das Litteratesche Echo الصادرة في سنة ١٩٠٠ ، وقد أعلن في مقالاته إيمانه الذي لا يتزعزع بأن ألمـانيـا ستشهـد في القريب إنشاء كراسي الأستـاذيـة في تاريخ الأدب المقارن . وارتفعت الأصوات بعـد ذلـك منـاديـة بهـذا الطلب ، ولكنه لم يتحقق إلا في نهـايـة الحرب العـالميـة الأولى ، ربمـا بسبب اهتمام الألمـان المسرف بدراسة أدبهم القومي .

(إيطاليا) وفي (**إيطـاليـا**) لم يكن الأدب المقــارن محظــوظــاً أبـداً . ففي النصف الأول من القرن التاسع عشر كان لتطرف النزعـة الإيطـاليـة القوميـة أثر في تركيز الانتبـاه على الأدب الإيطـالي ، وإغلاق النوافذ على الآداب الأجنبية ، ولكن بعد أن تحققت الوحـدة الإيطـاليـة بـدأ الإيطـاليون يوجهون أنظارهم إلى أوربة والعالم . ويعود الفضل في تصحيح الموقف الإيطـالي إلى وزير المعـارف فرانشيسكو دوسانكتيس DeSanctis الذي دعا عام ١٨٦١ إلى إنشاء كرسي للتاريخ الأدبي المقـارن في جامعة نابولي . وكان أول من شغل هذا الكرسي جورج هروج Herweg وخلفـه دوسـانكتيس نفسه من سنة ١٨٧١ إلى سنة ١٨٧٥ .

ولكن النصف الثاني من القرن التاسع عشر شهد حملة شديدة على الأدب المقارن شنّهـا المفكر الإيطالي البارز بنديتو كروتشه Croce الذي ذكر في مقالة له سنة ١٨٩٤ :

« إن البحث عن نظائر ومشابهات في الآداب المختلفـة ليس بـالمنهج المستقل ، وإنمـا هو معين على تفسير النصوص الأدبية ، والحكم عليها . وليس المنهج المقارن إلا مجرد أداة أو وسيلـة يمكن بها عقد مقارنات تاريخية أو العثور على أمثلة قد تكون أقرب إلى الكمال » .

ولكن كروتشه أتبع ذلك بهجوم صريح على الأدب المقارن واتهمه بأنه لا يعين على فهم النصوص الأدبية بقدر ما يعوق فهمها وتقديرها ، وأن كل ما يفعله الأدب المقارن هو تلقف الصورة النهائية للعمل الأدبي ، لا تتبع مجراه في ذهن الأديب الخلاق حتى يظهر في تلك الصورة النهائية ، وبعد تلقفها يحاول العثور على نظائر ، أو يرصد ردود الفعل عند القراء ، فيقرر ما إذا كان العمل حسن السمعة بين القرّاء أو سيئ القالة ، وما إذا كان قد ترجم إلى لغات أخرى ، ومدى نجاحه أو إخفاقه ، ومن هو الذي تأثر به أو أثر ونفخ في روحه ـ وهذه كلها مسائل هامشية في العمل الأدبي الذي لا يتكرر إطلاقاً في الزمان أو المكان والذي يتفرد بأصالته وروحه الخاص ومعناه الفذ ومبناه المتميز .

وهكذا كان تأثير كروتشه على الأدب المقارن في إيطاليا سلبياً جداً ، وكان على إيطاليا أن تنتظر الموجة الأوربية العامة لنهوض الأدب المقارن حتى تتخلص من طوق الحصار الذي ضربه كروتشه من حوله .

٢ ـ تطور الدراسات المقارنية في القرن العشرين

في السنوات الأخيرة للقرن التاسع عشر توطدت منزلة الأدب المقارن بين فروع المعرفة الأدبية من خلال مظهرين شديدي الأهمية ، هما إقبال الجامعات تدريجياً على تخصيص كراسي للأدب المقارن من جهة ، وانتشار البحوث المنهجية في الأدب المقارن من جهة أخرى ، ولا سيما في **فرنسا .**

وقد أحسن بتز ـ الذي سبقت الإشارة إليه ـ صنعاً ببدء إعداد قوائم الدراسات الخاصة بالأدب المقارن منذ سنة ١٨٩٧ ، وتظهر طبعة عام ١٩٠٤ من هذه الفهرسة أن بتز وبالدينسبرغيه استطاعا أن يجمعا ستة آلاف عنوان ، وفي هذا أكبر دليل على سرعة انتشار الأدب المقارن خلال السنوات الأولى من القرن العشرين .

وما إن انتهى العقد الأول من القرن العشرين حتى كانت جامعة الصربون تسارع (عام ١٩١٠) إلى إنشاء كرسي ثانٍ للأدب المقارن في فرنسا (بعد ليون) ، وبعد ذلك بسنة واحدة (١٩١١) بدأ الأستاذ ڤان تييغم بحوثه المنهجية في الأدب المقارن ، وبعد عقد واحد من الزمن نشر

بحثاً (١٩٢١) مهماً جداً في مجال رسم حدود الأدب المقارن تحت عنوان :

« التركيب في التاريخ الأدبي : الأدب المقارن والأدب العام »

La Synthése en histoire Littéraire: littérature comparée et littérature generale.

وقد نشر بحث بول ڤان تييغم في مجلة (**الأدب المقارن**) الفرنسية التي أسسها بالدينسبيرغيه مع زميله بول هازار سنة ١٩٢١ ، وكانت تصدر ثلاث مرات في السنة ، وتقدم النتائج التي يتوصل إليها الباحثون الفرنسيون وكثير من غير الفرنسيين . وأنشئت إلى جانبها مجلة (**مكتبة الأدب المقارن**) لتنشر الأطروحات الجامعية وقوائم الكتب المتعلقة بهذا الفرع الناشئ من فروع المعرفة الأدبية . وفي عام ١٩٣١ نشر ڤان تييغم كتابه (**الأدب المقارن**) وظل هذا الكتاب حتى يومنا هذا مرجعاً أساسياً في نظرية الأدب المقارن ، وترجم إلى عدد كبير من اللغات منها اللغة العربية[٤] .

وتتابعت بعد ذلك المؤلفات الفرنسية في الأدب المقارن منهجاً وتطبيقاً ، ومنها كتاب موريس فرانسوا غويار M.F.Guyard الذي ظهر عام ١٩٥١ وحمل عنوان (**الأدب المقارن**) ، وترجم إلى العربية عام ١٩٥٦ .

وبالتدريج أنشئت كراسي للأدب المقارن في مختلف الجامعات الفرنسية ، وما إن حلت الخمسينات حتى كانت الخلافات قد ظهرت بين الأساتذة الفرنسيين حول نظرية الأدب المقارن ، وكان أبرز من أثار الاعتراضات على المدرسة الفرنسية التي أصبحت (تقليدية) بعد الخمسينات هو الأستاذ **رينيه إتامبل** الذي سبقت الإشارة إليه في الفصل الأول من هذا الكتاب .

وفيما بعد لمعت أسماء مقارنية فرنسية أهمها : بيشوا وروسو وبرونيل[٥]وصدرت كتب جامعية قليلة لاتتناسب مع أهمية النشأة الفرنسية الأولى في الأدب المقارن .

---

(٤) تحمل الترجمة العربية عنوان النشر الغامض (دار الفكر العربي) وليس هناك مايشير إلى مكان الطبع وتاريخه . على أن سعر الكتاب المدون على الغلاف الأخير يشير إلى أن الثمن ثلاثون قرشاً مصرياً ؛ والأغلب أنه ظهر عام ١٩٤٨ انظر في الفصل الثالث من الكتاب الحالي بعض التفصيلات حول الترجمات العربية للأدب المقارن .

(٥) اشترك هؤلاء الثلاثة في إصدار طبعة جديدة من كتاب (**الأدب المقارن**) الذي أصدره بيشوا وروسو عام ١٩٦٧ ، ولعله أهم كتاب جامعي فرنسي في هذا الموضوع في فترة الثمانينات .

بريطانيا :

على أن الحماسة التي أظهرتها فرنسا للأدب المقارن لم تجد الصدى الكافي لدى الدول الأوربية الأخرى ، ففي **بريطانيا** مثلاً ظلت الأبحاث المقارنية التي تلت كتاب (بوستت) محدودة جداً حتى مابعد الحرب العالمية الثانية ، ففي سنة ١٩١٠ مثلاً قدم السير سيدني لي Sir Sidney Lee لكتابه حول :

« النهضة الفرنسية في إنكلترا : عرض للعلاقات الأدبية بين إنكلترا وفرنسا في القرن السادس عشر » .

بمقدمة أكد فيها أهمية الأدب المقارن .

وبعد نصف قرن من هذه الصيحة نسمع صيحة مماثلة أطلقها مؤلف إنكليزي معاصر هو الأستاذ ر . ا . سيس R. A. Sayce في الملحق التربوي لجريدة (التايمز) في عددها الصادر في ١٩٦٥/٣/٢٦ حين قال : « لابدّ من التسليم بأن الأدب المقارن يلقى مقاومة من الجامعات البريطانية بتباطؤها المعهود ، وذلك إذا قارناها بجامعات أمريكا وأوربة » وهناك سببان لذلك في نظره : أولهما أن دعاة الأدب المقارن في فرنسا يلتزمون غاية الدقة والصرامة في عملهم مما يجعل العبء على نظرائهم ثقيلاً ، وكثيراً ما ينوؤون به ، وثانيهما أن هناك عوائق تحول دون دراسة الأدب المقارن كما يجب في بريطانيا بسبب الفصل التام بين أقسام اللغات في الجامعات البريطانية الهامة .

ومهما يكن من أمر في هذا الخصوص فإن الاهتمام بالأدب المقارن قد تجسد في صورة الدورية التي ظهرت مابين سنتي ١٩٤٢ و ١٩٤٦ والتي سميت (**دراسات في الأدب المقارن** Comparative Literature Studies) وكانت تصدر عن جامعة كاردف Cardiff بصفة مؤقتة تعويضاً عن المجلة الفرنسية المحتجبة عن الظهور إذ ذاك بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية وهي (**مجلة الأدب المقارن**) التي جرت الإشارة إليها آنفاً .

وفي الفترة مابين سنة ١٩٤٨ و ١٩٥١ قام طلبة جامعة أبردين Aberdeen في اسكتلندة بإنشاء جمعية للأدب المقارن . ولكن تعيين محاضر في الأدب المقارن لم يحدث إلا في سنة ١٩٥٣ في جامعة مانشستر Manchester بإنكلترا ، وقد أعقبت مانشستر في هذا الصدد جامعة إسكس

Essex التي عينت أستاذاً للأدب المقارن لأول مرة في تاريخ الجامعات الإنكليزية ، وفي خريف سنة ١٩٦٤ قررت جامعة أكسفورد بإنكلترا تقديم مقرر رسمي في الأدب العام والأدب المقارن ، ومنحت أول دكتوراه في الأدب المقارن في سنة ١٩٦٨ ، وكان ذلك بمثابة اعتراف رسمي بشرعية الأدب المقارن في الجامعات البريطانية ، واعتباره مقرراً رسمياً مقبولاً ، ومع ذلك فما زال الاهتمام بالأدب المقارن في بريطانيا أقل منه في الولايات المتحدة الأمريكية التي استقطبت معظم الكفايات العالمية في هذا المجال . والجدير بالذكر أنه في سنة ١٩٦٩ ظهر واحد من الكتب القليلة جداً في بريطانيا التي تحمل عنوان (**الأدب المقارن**) وهو كتاب هنري غيفورد[٦] ، أستاذ الأدب الإنكليزي في جامعة بريستول ، ويتبين من صفحاته القليلة (٩١ ص) أنه غير معني بالمبادئ الأساسية للأدب المقارن ، وأن حالة التأليف النظري في الأدب المقارن في بريطانيا مازالت متواضعة . فعند البدء ينكر المؤلف وجود نظام منهجي خاص للأدب المقارن ، ويعتبره مجرد منطقة من البحث ، ويقرر ببساطة ودون مناقشة أن هذه المنطقة امتداد للمنطقة التي أشار إليها غوته في مصطلح (الأدب العالمي Welt literatur)[٧] . وفي قائمة المراجع الإنكليزية التي يثبتها المؤلف في آخر الكتاب لا نكاد نعثر على مرجع واحد نظري[٨] .

وبالطبع يمكن إرجاع جزء كبير من هذه الظاهرة إلى عدم ولع الثقافة البريطانية عادة بالمسائل النظرية وإلى اهتمامها المتميز بالنواحي العملية والتجريبية .

على أن عدوى الاهتمام بالأدب المقارن ونظريته وصلت أخيراً إلى بريطانيا ، وظهر عام ١٩٧٣ كتاب براڤر بعنوان (الدراسات الأدبية المقارنة : مقدمة)[٩] وفيه بوادر من العناية النظرية

---

(٦) Henry Gifford: **Comparative Literature,** Routledge and Kegan Paul, London 1969

(٧) المصدر السابق ، ص XI من المقدمة .

(٨) تخرج كاتب هذه السطور في جامعة كامبردج عام ١٩٦٩ ، وكان يتابع المحاضرات في قسمي اللغة الإنكليزية والدراسات الشرقية ، وقدّم رسالة دكتوراة ذات موضوع مقارني ، ولكن مصطلح الأدب المقارن لم يكن يتردد في قاعات المحاضرات أو بين المتخصصين أو حتى في المنشورات الأدبية حتى ذلك الحين .

(٩) عنوان الكتاب بالإنكليزية :

S. S. Prawer: **Comparative Literary Studies; an Introduction,** London, 1973

وقد ظهر الكتاب في العام نفسه في نيويورك . وفيه بيليوغرافيا مختصرة . والكتاب مترجم إلى العربية .

بمفهومـات الأدب المقـارن . وفي أيلـول ١٩٧٩ أعلنت (الرابطـة البريطـانيـة لـلأدب المقـارن) عن مشروع لإصدار (الكتاب السنوي للأدب المقارن) عن مطبعة جامعة كامبردج ، وعن إصدار المجلد الأول منه عام ١٩٨٠ ، من إعداد الأستاذ شافر .

Comparative Criticism, A Year Book
Vol. I, Cambridge University Press

على أن متابعة هذه السلسلة السنوية تشير حتى نهاية التسعينات إلى أن مفهوم الأدب المقـارن غير متبلور فيها ، وهي تنشر أخلاطاً من الأبحاث لا يستطيع جمعها تحت عنوان واحـد إلا مصطلح (الأدب المقارن) بفضل مرونته وعدم تحديده .

ألمانيا :

وفي ألمانيا كذلك تعثرت دراسة الأدب المقارن ، وفي الفترة التي أعقبت الحرب العالميـة الأولى نجد تيارين متعارضين يسيطران على الحركة الأدبيـة في ألمـانيـا : تيـاراً يـدفع بـالأدب القومي إلى مكان الصدارة بحيث تختفي أمـامـه الآداب الأخرى ، وتيـاراً آخر يمجـد السـلام والتعـايش ويحلم بتحقيق ولايات متحدة أوربيـة على نسق الولايـات المتحـدة الأمريكيـة ، ومن ثم يسعى لـدراسـة الأدب المقارن . ولم يتسنَّ إنشاء كراسي للأدب المقارن إلا في العشرينات من هذا القرن حيث شغل هذا المنصب في جامعة ليبزخ الأستاذ فكتور كلمبرر Viktor Klemperer ، وفي جـامعـة ورزبرج الأسـتـاذ إدوارد فـون يـان Eduard Von Jan ، وكان همهما تطبيـق المنهج المقـارن على اللغـات والآداب الرومانسية ثم السعي بعد ذلك إلى إرساء قواعد الأدب العـالمي الـذي لا يقف عنـد حـدود النص بل يتعداها إلى تأثير النص عبر الأجيال والأمكنة ، ويحـاول دراسـة الانطبـاع الـذي يتركـه النص في ذهن القراء سواء بلغته الأصلية أو باللغة المترجم إليها .

وبعد الحرب العالمية الثانية أنشئ أول كرسي للأدب المقـارن في ميتز Mainz على غرار كرسي الأدب المقارن في فرنسا ، وشغله الأستاذ فردريك هيرث Friedrich Hirth الذي حـاول جـاهـداً **أن يقلل من شأن العوامل التاريخية في دراسة الأدب، وأن يؤكد العوامل المشتركة بين الأدب** المقارن وتاريخ الأدب ، من حيث أنها يخدمـان الأدب ، ولكنَّ لكل منهما في نظره منهجـاً متميزاً ، فمنهج الأدب المقـارن هو البحث عن الظواهر المتمـاثلـة والخروج بقوانين تسـوِّغ هـذا التماثـل بعكس

منهج التاريخ الأدبي . وقد أكد هيرث على أن دراسة الأدب المقارن تقف عند دراسة النصوص المكتوبة ، ومن ثم استبعد الأغاني والقصص الشفوية والأساطير الشعبية التي يتداولها العامة في أحاديثهم .

وخلف هيرث على كرسي الأدب المقارن في ميتز الأستاذ هورست روديجر Horst Rudiger الذي انتقل بعد ذلك إلى جامعة بون Bonn وهو يعتبر الآن عميداً لأساتذة الأدب المقارن في ألمانيا ويشرف منذ سنة ١٩٦٦ على تحرير مجلة أركاديا Arcadia التي تنطق بآرائه وتعبر عن لسان حاله وحال أمثاله من أساتذة الأدب المقارن في الجامعات الألمانية . وتصوره للأدب المقارن ينحصر في أن هذا العلم له صلة قوية بالدراسات اللاتينية واليونانية القديمة ولكن همه ليس في متابعة انفصال اللغات الرومانسية عن الأصل اللاتيني ولكن في متابعة الأفكار والفنون التي كانت سائدة في القرون الوسطى والتي تطورت حتى وصلت إلينا في صورتها الحالية . وهو يحصر دراسة الأدب المقارن في نطاق الآداب الأوربية وحدها وإن كان يشير إلى التأثير القادم من منطقة الشرق الأدنى ومنطقة الشرق الأقصى ، ويبيِّن أهمية الصلة بين الأدبين الأوربي والأمريكي . ويدرس بعناية تأثير الإنجيل في الآداب المتأثرة به ، وكيفية انتقال القيم الأدبية من بيئة إلى أخرى ، ويهتم اهتماماً خاصاً بالترجمة وآثارها .

وابتداء من الستينات شرع الأدب المقارن يجد طريقه بانتظام إلى الجامعات الألمانية وأخذت تظهر دراسات تطبيقية ذات أهمية كما ظهرت بعض الدراسات النظرية .

ومن الدراسات التي تذكر في هذا المجال كتاب ألرش ڤايشتاين حول (الأدب المقارن والنظرية الأدبية : عرض ومقدمة) . وقد ظهر عام ١٩٦٨ ليكون أول كتاب يصدر في ألمانيا عن تطورات الأدب المقارن ومفهوماته وعلاقته بالنظرية الأدبية .

وتضمن هذا الكتاب حلاً وسطاً معلّلاً بين الاتجاهين الفرنسي والأمريكي ، وظهرت ترجمته الإنكليزية عام ١٩٧٣ بالتعاون مع المؤلف عن جامعة إنديانا ، وأصبح من الكتب الجامعية الرائجة في أمريكا . وكان مؤلفه قد هاجر في تلك الفترة إلى أمريكا وورث عن هنري رماك رئاسة قسم الأدب المقارن في جامعة إنديانا (بلومنغتون) وتولى تحرير (**الكتاب السنوي للأدب المقارن والعام**) . وفي عام ١٩٩٠ عاد إلى أوربة (النمسا)[١٠] .

---

(١٠) ربما بتأثير زواجه الثاني من سيدة نمساوية . والجدير بالذكر أن الموقف الوسطي الذي تبناه ڤايشتاين لقي قبولاً عند =

وأخيراً ، أتى عقد المؤتمر الدولي الثاني عشر للأدب المقارن في مدينة ميونيخ (١٩٨٨) تتويجاً لجهود الرابطة الألمانية للأدب المقارن ، وتأكيداً لرغبة عامة في الانسجام مع التطورات المعاصرة والإسهام فيها وتجاوز التحفظات السابقة .

٣ ـ ازدهار الأدب المقارن في أمريكا

يلفت النظر اليوم ثقل الباحثين الأمريكيين في المؤتمرات الدولية للأدب المقارن ، على الرغم من أن الولايات المتحدة الأمريكية لم تلتفت إلى الأدب المقارن إلا في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، ويعود الفضل في ذلك إلى غنى الجامعات الأمريكية ووجود طريقة عمل الزمرة .

ويبدو أن أول من أدخل مادة الأدب العام أو (الأدب المقارن) في الجامعات الأمريكية هو القس تشارلز تشونسي شاكفورد Charles Chauncy Shackford الذي شغل كرسي الأدب العام في جامعة كورنيل Cornell . ولسوء الحظ لم يخلفه أحد على هذا الكرسي بعد أن تقاعد في سنة ١٨٨٦ إذ ظلّ شاغراً حتى سنة ١٩٠٢ حين تقدم له لين كوبر الذي أصبح فيا بعد رئيساً لقسم كامل للأدب المقارن في الجامعة نفسها في المدة من سنة ١٩٢٧ إلى سنة ١٩٤٣ .

وفي جامعة ميتشجان Michigan تولى الأستاذ تشارلز جيلي Charles M. Geyley تقديم مادة النقد الأدبي المقارن سنة ١٨٨٩ ثم انتقل بعد ذلك إلى جامعة كاليفورنيا حيث تمكن في سنة ١٩١٢ من إنشاء قسم للأدب المقارن انضم بعد ذلك بأربع سنوات إلى قسم اللغة الإنكليزية بالجامعة نفسها . وقد نشر كثيراً من آرائه في مجلة دايال Dial وعن طريقها توجه إلى القراء بأول دعوة لإنشاء جمعية أمريكية للأدب المقارن .

وأول كرسي للأدب المقارن في الولايات المتحدة هو الذي أنشئ في جامعة هارفارد في السنة الدراسية ١٨٩٠ ـ ١٨٩١ وكان أول من شغله هو الأستاذ آرثر رتشموند مارش Arthur Richmond Marsh ، الذي قام بتقديم أربعة مقررات دراسية ، بعضها لطلبة الليسانس

= بعض المقارنين العرب . وقد التقيت به وزاملته في بلومنغتن (١٩٨٧ ـ ١٩٨٨) ، وكان يبدي اهتماماً بمتابعة تأثير آرائه في أوساط المقارنين العرب . وسنشير إلى نظريته وتأثيرها فيا بعد .

المرجع بالإنكليزية :

U. W. Weisstein: **Comparative Literature and Literary Theory: Survey and Introduction,** Tr. by W. Riggan in collaboration with the author, Bloomington, Indiana University Press, 1973

وبعضها لطلبة الدراسات العليا ، وكلها في مجال الأدب الأوربي في القرون الوسطى ، لأن الأدب الحديث لم يتناوله أحد في أمريكا على طريقة الأدب المقارن إلا بعد انسلاخ القرن التاسع عشر .

وفي سنة ١٩٠٤ أنشئ قسم كامل للأدب المقارن في جامعة هارفارد وتولى رئاسته لمدة خمسة عشر عاماً الأستاذ هـ . س . سكوفيلد H. C. Schofield ، وفي سنة ١٩١٠ أسّس هذا الأستاذ مجلة سماها : (دراسات من هارفارد في الأدب المقارن) Harvard Studies in Comparative Literature ونشر معها مجموعة من الدراسات المقارنية القصيرة .

وفي سنة ١٩٤٦ تولى الأستاذ هاري لفين Harry Levin رئاسة القسم ، وأعاد النظر في برامجه ، ثم خلفه بعد ذلك الأستاذ والتر كايزر Walter Kaiser .

ويمكن القول : إن دراسة الأدب المقارن في أمريكا في العشرينات من هذا القرن كانت مختلطة في الأذهان بدراسة (الأدب العام) أو (أدب العالم) أو (أساطين الكتب) أو (الإنسانيات) ولكن ما كادت الحقبة التالية تطلع على دارسي الأدب المقارن حتى أعطوه استقلاله وتفرده وتميزه ، وفي سنة ١٩٤٢ أنشأ آرثر . إي . كرستي Arthur E. Christy طبقاً لتوجيهات المجلس القومي لأساتذة اللغة الإنكليزية لجنة للأدب المقارن ، تعمل على تشجيع ما سمته بالأدب العام وخاصة الأدب المقارن ، وإدراجه في البرامج المقررة على طلبة المدارس والكليات والجامعات ، وذلك سداً للنقص الذي يشعر به مدرسو اللغة الإنكليزية وغيرها من اللغات ، وهم يقومون بتدريس تخصصهم معزولاً عن غيره من التخصصات الأخرى . وفي سنة ١٩٤٩ ظهر أول عدد من مجلة **الأدب المقارن** Comparative Literature التي تصدرها جامعة (أوريغون Oregon) بالتعاون مع قسم الأدب المقارن في « الرابطة الأمريكية للغات الحديثة The Modern Language Association » وهي رابطة نشطة ، وتمت تحت رعايتها حلقات دراسية ومؤتمرات عديدة للأدب المقارن وما زالت هذه المجلة تصدر بانتظام .

وفي سنة ١٩٥٠ ظهرت أول قائمة لكتب المراجع اللازمة لمادة الأدب المقارن ، نشرتها جامعة شمال كارولينا North Carolina ، وفي سنة ١٩٥٢ ظهر المجلد الأول من (**حوليات الأدب العام والأدب المقارن** Yearbook of Comparative and General Literature) وقامت على نشرها

مجموعة من أساتذة جامعة شمال كارولينا بزعامة الأستاذ Friederick من سنة ١٩٥٢ إلى سنة ١٩٦٠ ، ثم تولت عملية النشر بعد ذلك مجموعة من أساتذة جامعة إنديانا Indiana ابتداء من سنة ١٩٦١ إلى نهاية الثمانينات .

وقد شهد عام ١٩٥٤ ميلاد كتاب هام للأستاذ فردريك في الأدب المقارن . وهو كتاب (**موجز عام للأدب المقارن من دانتي إلى أونيل**) Outline of Comparative Literature from Dante to Oneill واشترك معه فيه الأستاذ دافيد مالوني David M. Malone وفي السنة نفسها تشكل في أمريكا فرع الرابطة الدولية للأدب المقارن International Comparative Literature Association ، وهناك الآن عدد لابأس به من المجلات المتخصصة في الأدب المقارن منها الدورية الفصلية (**دراسات في الأدب المقارن**) Comparative Literature Studies التي تصدر عن جامعة ميريلاند Maryland منذ سنة ١٩٦٣ ، ولكنها منذ سنة ١٩٦٧ تصدر عن جامعة إلينوي Illinois ، وهي تنشر مقالات متخصصة في تاريخ الأدب وتاريخ الأفكار العامة ، وتهتم على الأخص بالعلاقات الأدبية بين أوربة والأمريكتين . وهناك مجلة (**المسرحية المقارنة**) Comparative Drama التي تصدر عن جامعة غرب متشيغان . وفي سنة ١٩٦٧ صدرت في شيكاغو مجلة (**الجنس الأدبي**) Genre ، وعن جامعة فرجينيا Virginia صدرت مجلة (**التاريخ الأدبي الحديث**) Modern Literary History .

وفي سنة ١٩٦١ ظهرت أول مجموعة من المقالات المتخصصة في الأدب المقارن جمعها كتاب واحد ظهرت له طبعة فريدة منقحة في سنة ١٩٧١ تحت عنوان « **الأدب المقارن : منهجه وآفاقه** » Comparative Literature: Method and Perspective وقد نشرته مطبعة جامعة إلينوي الجنوبية من إعداد نيوتن ستوكنوكت وهورست فرنز ، واشتمل على موضوعات في (فن الترجمة) و (الأدب وعلاقته بعلم النفس) و (علاقة الأدب بالأفكار العامة السائدة) و (علاقة الأدب بالفنون) و (الآداب الآسيوية) .

وفي هذا الكتاب ظهرت مقالة رماك Remak الشيقة التي أشرنا إليها في الفصل الأول أعلاه[11] .

---

(١١) وأعيد نشره عام ١٩٧٣ ، وإلى هذه الطبعة جرت الإشارة سابقاً .

وشهدت الستينات ظهور بضعة كتب أخرى مختصة .

وفي سنة ١٩٦٥ ظهر كتاب هاري ليفن Harry Levin بعنوان « **انكسارات : مقالات في الأدب المقارن** » Refractions: Essays in Comparative Literature وفيه يدخل المؤلف عمقاً في قضايا الأسطورة والثقافة وسوسيولوجيا الرواية والمؤثرات الإنكليزية الأمريكية(١٢) .

وفي سنة ١٩٦٩ صدر عن جامعة إلينوي كتاب منهجي شامل عن الأدب المقارن بعنوان « **الأدب المقارن : المادة والمنهج** » Comparative Literature: Matter and Method وهو مجموعة أبحاث حررها وكتب مقدمتها أوين ألدردج A. Owen Aldridge . وشارك في هذا الكتاب كبار الباحثين الأمريكيين مثل رينيه ولك وهاري ليفن .

وهكذا أرسِيَتْ في هذه المرحلة بذور الانطلاقة الأمريكية في الأدب المقارن(١٣) .

وفي السبعينات أخذ أساتذة الجامعات الأمريكيون يتنافسون في إصدار كتب جامعية لتدريس الأدب المقارن ، والملاحظ أن معظم هذه الكتب تعتمد على جمع المقالات من مؤلفين متعددين ، وفيها اختلاط واضح بين المقالات النظرية والمقالات التطبيقية . إلا أن الاتجاه التطبيقي ظلَّ هو الغالب في المؤلفات الأمريكية في الأدب المقارن ، وقد بدأ الاهتمام - كما هو منتظر - بعلاقة الأدب الأمريكي بالآداب الأوربية ، ولكنه تطور مجدداً ، أي في الثمانينات إلى البحث في آداب الشعوب الأخرى ، ولا سيما بآداب أمريكا الجنوبية ، ويلي ذلك الاهتمام بإفريقية ، وتأتي الآداب الآسيوية (والعربية) في نهاية قائمة الاهتمام .

---

(١٢) ترجم هذا الكتاب إلى العربية السيد عبد الكريم محفوض بعنوان : « **انكسارات : مقالات في الأدب المقارن** » ، وصدر عن وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٨٠

(١٣) اعتمد ماتقدم من هذا الفصل من الناحية التوثيقية على :

د . شوقي السكري : « مناهج البحث في الأدب المقارن » ، مجلة عالم الفكر ، الكويت ، المجلد ١١ ، ع ٣ ، شتاء ١٩٨٠ ، ص ص ١١ - ٤٠ . وقد أجرينا إضافات وتعديلات متنوعة تناسب أغراض هذه الدراسة ، ولا سيما من ناحية التطورات المستجدة .

ومن أهم الكتب الجامعية في السبعينات كتاب شولتز حول « الأدب المقارن : السنوات المبكرة » ، ١٩٧٣[١٤] ، وكتاب ستوكنوكت وفرنز الذي سبقت الإشارة إليه قبل قليل ، وهناك أيضاً كتاب كلمنتس بعنوان « الأدب المقارن كنظام أكاديمي ... »[١٥] الذي ظهر عام ١٩٧٨ .

وهناك بالطبع المقالات العديدة لهنري ريماك ، ورينيه ولك وألرش ڤايشتاين .

يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة تشهد نشاطات متعاقبة في مجال المؤتمرات المتخصصة في الأدب المقارن ، وتتنافس الجامعات والروابط الأدبية في هذا المجال الخصب . ومن أقدم المؤتمرات المنتظمة (ندوة الأدب المقارن) السنوية التي تنظمها جامعة تكساس التقنية ، وقد بدأت في منتصف الستينات ، وتعنى بعلاقات الأدب الأمريكي مع الآداب الأخرى ، وقد عالجت الندوة الثامنة (١٩٧٥) أدب ألبير كامي[١٦] .

ومما يميز الأدب المقارن في أمريكا وفرة المنشورات السنوية التي تصدرها الجامعات والروابط الأدبية . ومنذ عام ١٩٥٨ مثلاً بدأ يظهر الكتاب السنوي للرابطة الدولية للأدب المقارن ، وقد استضافت الولايات المتحدة المؤتمر الثاني لهذه الرابطة عام ١٩٥٨ في شابل هل (جامعة كارولينا الشمالية) وبعده المؤتمر العاشر عام ١٩٨٢ (نيويورك) .

وليس ماتقدم سوى غيض من فيض ، إذ أصبحت مكتبة الأدب المقارن في أمريكا شديدة الغنى والتنوع . ويساعد على ذلك طبعاً تنوُّع معرفة اللغات بسبب الطبيعة الأممية (الكوزموبوليتانية) للمجتمع الأمريكي ، وهجرة العقول المستمرة ، وسهولة الوصول إلى المعلومات والمراجع نتيجة للتسهيلات المكتبية الفائقة .

---

(١٤) H. J. Karl Schultz: **Comparative Literature, the Early Years,** Chapel Hill, 1973

(١٥) R. J. Clements: **Comparative Literature as Academic Discipline; A Statement of Principles,** Praxis, Standards, Modern Language Association of America, 1978.

(١٦) Comparative Literature Symposium-8th, **Albert Camus Literary Milieu: Arid Lands,** Texas Tech. University, 1975, USA.

٤ ـ امتدادات أخرى

أوربة الشرقية :

وعلى الجانب الشرقي من أوربة تختلف تضاريس الصورة المقارنية اختلافاً شديداً ، فمقابل الانتعاش وتسارع التطورات واحتدام الجدال حول الأدب المقارن في الغرب تبدو التضاريس المقارنية في أوربة الشرقية متفاوتة وفي حالة تشكل ، كما أنها كانت غير ثابتة بسبب خضوعها سابقاً للاعتبارات السياسية والأيديولوجية ، فهي أشبه بكثبان رملية قليلة من الناحية الكمية ومعرضة للتحرك مع الرياح في أية لحظة . ثم إن المصادر المتعلقة بهذه التضاريس غير ميسورة ، والدراسات المتعلقة بالأدب المقارن في هذه المنطقة من العالم لا تأتي من داخلها بل من الغرب ، أو من مظانٍ مبعثرة كالدوريات القليلة .

ولا يحتوي (**الكتاب السنوي للأدب المقارن والعام**) مادة شافية حول هذا الموضوع ، باستثناء بعض التقارير التي قدمها باحثون عن وضع الأدب المقارن في بلادهم . يضاف إلى ذلك أن ما يكتب هنا وهناك من شذرات معرض للأهواء الأيديولوجية والسياسية ، فهناك مثلاً من يتحدث عن (مدرسة سلافية) وينظر لها ويؤطر ، مثل سعيد علوش الذي حاول أن يلمّ خطوط جملة مداخلات متفرقة ذات آراء مبدئية ليصنع منها منهجاً متماسكاً ويمنحها شرعية مدرسة تناطح بمنكبيها المدرستين الفرنسية والأمريكية[17] ؛ وينهي كلامه بالتأكيد القاطع التالي :

« ونعتقد أن الدعامتين الفلسفية والعلمية ، عملتا في المدرسة المقارنة السلافية ، بشكل أضفى عليها نوعاً من الانسجام ومنحها شرعية المدرسة على الرغم من مزجها المنهج لمبادئ المدرستين الفرنسية والأمريكية ، في قالب جديد ورؤية ذات أطروحة متداخلة الاختصاصات »[18] .

وكان قبل ذلك قد أكد بنفَس خطابي جدالي تفوُّق هذه (المدرسة) على المدرسة العربية :

« ويمكن القول بأن المدرسة السلافية ـ على عكس المدرسة العربية ـ استطاعت أن ترسخ تقاليد درس مقارن ، لا هو فرنسي ولا هو أمريكي ، ولكنه الدرس ، الذي يستجيب للفضاء

---

(١٧) انظر الصفحات الطوال التي كتبها سعيد علوش عن (المدرسة السلافية) ، مدارس الأدب المقارن ، المركز الثقافي العربي ، ١٩٨٧ ، ص ص ١٢٧ ـ ١٤٣

(١٨) السابق ، ص ١٤٣

والزمان الاشتراكي العلمي ، بعيداً عن التشبه والنمطية ، وهي مكاسب ما كان في الإمكان تحقيقها ، لولا توافر الإرادة والعلم »[١٩] .

ولا نعتقد إلا أن المقصودين بهذه المدرسة يخجلون من هذا التفخيم . وهم جميعاً جادّون ولكنهم يتعرضون لصعوبات فكرية غير يسيرة في بحثهم المضني عن طريقهم الخاص . ويتساءل المرء عن تقاليد الدرس المقارن ، هل ترسخ ببضع مقالات وبسنة واحدة هي سنة ١٩٧٤ ، كما يتضح من حواشي هذا الفصل ؟

على أية حال ، وبعد التطورات الدرامية التي حدثت في أوربة الشرقية مطلع هذا العام (١٩٩٢) ، يحسن بالمرء أن يترك للزمن فرصته ، فهو الذي يكتب أكثر الحواشي والإحالات مصداقية وإقناعاً[٢٠] .

وبما أن الموضوع معلق بسبب التطورات الفكرية المنتظرة التي يمكن أن تجلو كثيراً من الأمور ، نرى من الأفضل الاكتفاء بالخلاصة التالية المستقاة من تجربة كاتب هذه السطور المباشرة في مؤتمرات الرابطة الدولية للأدب المقارن واتصالاته بالوسط الثقافي في الاتحاد السوفييتي السابق :

١ ـ الأدب الروسي وآداب أوربة الشرقية تأخرت في التفاعل مع آداب أوربة الغربية بسبب عوامل متعددة تاريخية وثقافية واجتماعية .

٢ ـ منذ البدء ، كان الأدب المقارن من الحقول المعرفية التي شملتها النظرة الماركسية الاستبعادية . وخلال مرحلة التأسيس السوفيتية ، بل حتى أواخر الخمسينات لم يكن هناك أي تقبل لفكرة الأدب المقارن . وقد شمل ذلك أيضاً دول أوربة الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعضها كان له إسهام معقول في الدراسات المقارنة (مثل : رومانيا وهنغاريا وبولونيا) . وهذا ماأدى إلى إعاقة جهود مثل هذه الدول التي كانت بفضل تاريخها الثقافي اللغوي (رومانيا)

---

(١٩) السابق ، ص ١٣٨

(٢٠) يرجى بإلحاح شديد أن تؤخذ هذه الملاحظات بقيمتها الظاهرية ، وهي غير مبنية على أية موقفية أو استخفاف بإسهامات بعض المقارنين الشرقيين ، وإنما مستوحاة من منطق كتاب علوش ، الذي تناول باستخفاف حوالي عشرين مؤلفاً عربياً ، ولم يجد فيها ملامح مدرسة ، مع أنه لو استعمل التعاطف نفسه الذي أضفاه على المقالات الاشتراكية الأربع أو الخمس التي استعان بها لأمكنه إقامة بنيان مدرسة عربية مماثلة في أقل تقدير للبنيان الذي أقامه للمدرسة الاشتراكية . انظر ص ١٥٩ مثلاً من كتابه لتستنتج التباين في الموقف المبدئي من الظاهرتين .

وموقعها الجغرافي (المجر) تبشر بمستقبل مقارني واعد . والجدير بالذكر أن بعض بلدان أوربة الشرقية ظلت مقيمة على استبعاد الأدب المقارن حتى حدوث الزلزال الأخير (تشيكوسلوفاكيا) .

٣ ـ بعد المرحلة الستالينية ـ الغدانوفية حدث انفتاح نسبي في الثقافة والأدب، أفاد منه الأدب المقارن جزئياً، أي بإطلاق سراحه من الاعتقال وليس بتشجيعه. إذ افتتح قسم للأدب المقارن في معهد الأدب الروسي في لينِنغراد (بطرسبورغ اليوم)، وكان في البدء مجرد مركز لإعداد المصادر ثم تحول إلى معهد للأبحاث، كما نشطت بعض الأبحاث في دول أوربة الشرقية. وهذا ليس بشيء إذا قيس بعجلة الثقافة الأدبية السوفييتية وأجهزتها الناشطة.

٤ ـ لكن مع ذلك ظل الأدب المقارن في بلدان أوربة الشرقية هامشياً جداً ، ولم تظهر أية بوادر رسمية لتشجيعه في دول خاضعة خضوعاً تاماً للتخطيط الصارم للثقافة والتعليم وفي الاتحاد السوفييتي (السابق) بالذات ظل الوسط الثقافي بعيداً عن مناخ الأدب المقارن ، على الرغم من شدة اعتناء هذا الوسط بالآداب الأجنبية واحتفاله بها . وكانت تصدر في الاتحاد السوفييتي مجلتان ناشطتان تحت اسم (الآداب الأجنبية) ، واحدة في موسكو والثانية في كييف ، ولم تكن مسائل الأدب المقارن من بين اهتماماتها[٢١]. وقد ظلت المكتبة السوفيتية ومكتبة لغات أوربة الشرقية شديدة الفقر في عناوين الأدب المقارن، وليست هناك أية مؤلفات ذات قيمة في هذا الحقل حتى نهاية الدولة الوفيتية (١٩٩٢).

٥ ـ وفي الستينات بالذات ، ظهر انفراج نوعي نسبي في حقل الأدب المقارن ، ونشطت محاولات لجمع شمل المقارنين الاشتراكيين في إطار ندوة بودابست ١٩٦٢ ، وندوة برلين ١٩٦٦ ، وبدأت بعض الإسهامات الاشتراكية تأخذ طريقها إلى الساحة العالمية للأدب المقارن بشكل اجتهادات فردية تحاول أن تفيد من معطيات الماركسية في إعطاء الأدب المقارن مضموناً اجتماعياً ـ إنسانياً ، ومن خلال الإفادة مما يناسب هذا الغرض في أفكار المدرستين الفرنسية والأمريكية ، وتنضوي معظم المحاولات الرومانية والمجرية والألمانية الشرقية تحت هذا العنوان .

---

(٢١) كان كاتب هذه السطور على اتصال مباشر مع إدارتي المجلتين ، بحكم إدارته مجلة (الآداب الأجنبية) الصادرة عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق . وقد زار الاتحاد السوفييتي أكثر من مرة واتصل بمعهد غوركي ، واستقبل وفوداً أدبية سوفييتية ، وحاول التوصل إلى أية مصادر عن الأدب المقارن في الاتحاد السوفييتي ولكن دون جدوى ، ومن النقاد الذين جرى التحدث معهم بهذا الشأن سيدروف المعروف جيداً في أوساط اتحاد الكتاب الآسيويين الإفريقيين .

والملاحظ أن الدراسات التطبيقية كانت أكثر رواجاً في الاتحاد السوفييتي ، في حين أن النشاط الروماني كان أكثر تبلوراً في مجال النظرية ، وتميز النشاط الهنغاري بفعالياته في الوصل بين الشرق والغرب . وكان المؤتمر الثامن للرابطة العالمية للأدب المقارن (بودابست ١٩٧٦)[٢٢] فرصة لتمتين الاتصالات . وأظهر الغربيون اهتماماً واضحاً بالإفادة من النظرات الماركسية (هنري رماك بوجه خاص)، وسادت روح مصالحة وتقارب . ولكن من المفيد التأكيد أن التحليلات التي قدمها المنظرون الشرقيون تبتعد عن التركيز على الأدب المقارن كتخصص دقيق ، وتربطه بأفق أوسع في إطار علم الأدب وتاريخ الأفكار والعلوم الاجتماعية عند التقليديين ، وفي إطار المذاهب النقدية الحديثة كاللسانيات والأسلوبيات والبنيوية عند المفكرين الجدد .

ودون الاستهانة بهذه الجهود يمكن القول إن هذه الآراء يصعب أن تشكل نظرية متناسقة ، ومن الضروري الانتظار بعض الوقت لتبيُّن ما سوف يقوى على الصمود والتوالد منها وما سوف يؤول إلى التغيير أو التعديل .

ويمكن أن يلحق بما تقدم الجهود اليوغسلافية ، التي تستند إلى خلفية تاريخية قوية ، وإلى وضع لغوي ثقافي متعدد ، وإلى موقع جغرافي - سياسي متوسط . وهي جهود بارزة في الساحة العالمية للأدب المقارن ، وتتبنى موقفاً وسطاً بين الجذب الاجتماعي والجذب الجمالي والجذب الوضعي للأدب المقارن ، كما أنها تولي آداب العالم الثالث اهتماماً خاصاً[٢٣] .

آسية واليابان بوجه خاص :

إن الأدب المقارن يتجه إلى العالمية بخطىً حثيثة ، ولم يعد احتكاراً غربياً أو أوربياً . ومن الإنصاف الإشارة إلى أن هذه التطورات لم تحدث رغم أنف الغربيين بل برضاهم لأن معظم منظري الأدب المقارن كانوا يشعرون بالنقص الفادح في دائرة الأدب المقارن التي كانت تقتصر على الغرب ،

---

(٢٢) يجد القارئ عرضاً لأهمية هذا المؤتمر في الفصل التالي من هذا الكتاب . ومن أبرز المقارنين المجريين الذين أشرفوا على هذا المؤتمر العالم الفاضل جيورجي ڤايدا الذي يصدر مجلة (نيوهيلكون **Néo-Helikon**) ، الناطقة باسم المقارنة المجرية ، والتي تصدر عن الأكاديمية المجرية التي تضم بدورها معهداً للأدب المقارن .
وفي هذه المجلة دراسات تطبيقية غنية ومتابعات ، ولكن الجانب النظري للإسهام الأوربي الشرقي فيها ظل محدوداً .

(٢٣) بالإضافة إلى علوش ، سابق ، انظر عرضاً عن الأدب المقارن في أوربة الشرقية في : الطاهر أحمد مكي : **الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه** ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧ ، ص ص ١٤٧ - ١٧١

وكانوا يشعرون دائماً بالحاجة إلى دماء فكرية جديدة من قارات العالم الثالث . وخلال عقدي السبعينات والثمانينات نشطت حركة ترجمة مقارنية في بلدان آسية وإفريقية ، كما أنشئت فروع للرابطة الدولية للأدب المقارن AILC في كثير من البلدان الآسيوية ، ومن أبرزها الصين ، حيث تتصاعد أصوات قوية لصالح حركة المقارنة في منطقة عرفت دائماً بعدم ترحيبها في الانفتاح على العالم ، وفي ظل هيمنة أيديولوجية للحكم على مؤسسات الثقافة والتعليم[٢٤] .

وإلى جانب الصين هناك جامعات تايوان التي تصدر دوريات أدبية باللغة الإنكليزية تظهر اهتماماً متزايداً بالأدب المقارن ، وهناك أيضاً كوريا الجنوبية .

أما فيما يتعلق بالهند فعلى الرغم من انفتاحها التقليدي على الكتلتين الشرقية والغربية (حسب المصطلحات السائدة قبل ١٩٩٢) فإن انشغال باحثيها بالقضايا الداخلية للعلاقات بين اللغات والآداب في شبه القارة الهندية صرفها عن الإسهام المنتظر في الأدب المقارن . ولكن يمكن القول إن هناك بحوثاً هندية وباكستانية متواصلة تهم الأدب العربي المقارن لأنها تركز على طبيعة العلاقات الثقافية والأدبية بين الحضارتين الهندية والعربية ولاسيما من خلال الإسلام.

وتستحق اليابان وقفة خاصة لأنها أخذت منذ السبعينات تحتضن تطورات مقارنية مهمة . ومن أبرزها دخول الأدب المقارن نسبياً إلى الجامعات اليابانية ، وظهور بعض تآليف يابانية تحمل هذا العنوان ، ونشاط الرابطة اليابانية للأدب المقارن في الساحة الدولية . وأتى عقد المؤتمر الثالث عشر للأدب المقارن في طوكيو (صيف ١٩٩١) دليلاً على خروج الرابطة الدولية من البوتقة الغربية ، إذ عقد هذا المؤتمر للمرة الأولى خارج نطاق الغرب وكان لهذه الواقعة المهمة دلالة خاصة في تاريخ الأدب الياباني المقارن ، إذ آذنت باضمحلال ما كان يُعدُّ عقدة يابانية ضد الأدب المقارن ، لما كانت تحمله الدراسات الغربية المقارنة من تأكيد للتأثيرات الأوربية القوية في نشأة الأدب الياباني الحديث (ابتداء من فترة الميجي) . ولعله مما ساعد على شفاء اليابانيين من هذه العقدة قوة انتشار أدبهم الروائي في الغرب ورواج ترجماته ولا سيما ابتداء من عقد الثمانينات .

---

(٢٤) أتيح لي أن ألتقي في جامعة إنديانا عام ١٩٨٨ بأحد أعضاء الرابطة الصينية للأدب المقارن ، وقد حضرت حلقة بحث حول الأدب المقارن في الصين قدمها ذلك الباحث بلغة إنكليزية متعبة جداً . وحين سألته عن موقف الواقعية الاشتراكية من الأدب المقارن أجاب على ملأ من الناس أن للقارنين الصينيين تخلصوا من أسر الواقعية الاشتراكية ولا يعبؤون بما تقوله . وكانت المادة التي قدمها فقيرة على أية حال .

وللرابطة اليابانية للأدب المقارن إسهام متزايد في أعمال الرابطة الدولية ، ويعود إنشاؤها إلى عام ١٩٤٨ ، وكانت تنحو منحى المدرسة الفرنسية في البدء ، كما كان نشاطها محدوداً . وما زال الأدب المقارن محدود الانتشار كتخصص أكاديمي مستقل ، على الرغم من ازدياد الاهتمام بالأبحاث التطبيقية . ويُشير برنامج المؤتمر الثالث عشر (ICLA 91) إلى اهتمام ياباني خاص بالعلاقات المتبادلة بين الآداب الآسيوية (ولا سيما بين اليابان والصين) بعد أن كانت العلاقات الغربية ـ اليابانية موضع الاهتمام . ويصعب في هذه المرحلة الحديث عن أفكار يابانية خاصة في الحقل النظري للأدب المقارن .

وتحظى العلاقات الثقافية اليابانية العربية أيضاً باهتمام خاص في الأوساط الجامعية وهي جزء من الاهتمام الياباني العام بالعلاقات بين المنطقتين في إطار المصالح الاقتصادية السياسية . وهناك (لجنة وطنية يابانية لدراسة العلاقات العربية اليابانية) ، مقرها طوكيو ، وتعنى بالثقافة من جملة ما تعنى به . ومن أبرز ممثليها في الوسط الثقافي الأستاذ نوبواكي نوتاهارا Nobuaki Nutahara الذي قدم دراسة طريفة للندوة الدولية الثانية حول العلاقات العربية اليابانية بعنوان (بعض جوانب فهم الثقافة العربية) ، وفيها تأكيد لدور الثقافة والأدب في إقامة جسر التفاهم بين اليابانيين والشعوب الأخرى وتنم عن معرفة مباشرة بالأدب العربي ولا سيما في مصر[٢٥] .

ويبدو أن اليابان تتهيأ للقيام بدور أدبي ثقافي يتناسب ولو جزئياً مع تصاعد مكانتها العالمية . وقد رأينا عند الحديث عن الولايات المتحدة كيف أن مفهوم (القوة الفائقة Super power) يعكس نفسه بوضوح في حقل الأدب المقارن الذي يعتبر مجالاً مغناطيسياً حساساً للتطورات العالمية .

---

(٢٥) درس الكاتب في مصر وزار البلاد العربية أكثر من مرة . وقد التقيت به في دمشق وفي طوكيو ، وله دراسات باليابانية عن الأدب والثقافة في البلاد العربية . والمقال المذكور أعلاه من مطبوعات (الندوة الدولية الثانية حول العلاقات العربية اليابانية) ، ميشيما ، ١٩٨١

الفصل الثاني :

اهتمامات معاصرة للأدب المقارن

١ ـ الرابطة الدولية للأدب المقارن AILC

ومن أبرز التطورات في تاريخ الأدب المقارن بعد الحرب العالمية الثانية ظهور :

(الرابطة الدولية للأدب المقارن Association Internationale de la Littérature Comparée) . وتمّ ذلك عام ١٩٥٥ بنتيجة مساع حثيثة بذلها شارل ديديان ، أستاذ الأدب الفرنسي والأدب المقارن في الصربون . إذ استطاع إقامة صلات بين الجمعيات الوطنية للأدب المقارن في أوربة ، ونتيجة لهذه الصلات تبلورت الرغبة في الاجتماع والتعاون بشكل منظم ، وتوسعت الحلقة بعد ذلك لتضم بلداناً من قارات أخرى مثل أمريكا وآسية . وفي النهاية استطاع ديديان تنظيم المؤتمر الأول للأدب المقارن الذي تمّ فيه تأسيس (الرابطة الدولية للأدب المقارن) في (البندقية) بإيطاليا ، ثم تتابعت المؤتمرات كل ثلاث سنوات على النحو التالي :

- المؤتمر الأول : ١٩٥٥ ، البندقية ، إيطاليا .
- المؤتمر الثاني : ١٩٥٨ ، شابل هل ، الولايات المتحدة .
- المؤتمر الثالث : ١٩٦١ ، أوترخت ، هولندا .
- المؤتمر الرابع : ١٩٦٤ ، فريبورغ ، سويسرا .
- المؤتمر الخامس : ١٩٦٧ ، بلغراد ، يوغسلافيا .
- المؤتمر السادس : ١٩٧٠ ، بوردو ، فرنسا .
- المؤتمر السابع : ١٩٧٣ ، مونتريال ، كندا .
- المؤتمر الثامن : ١٩٧٦ ، بودابست ، هنغاريا .
- المؤتمر التاسع : ١٩٧٩ ، انسبروك ، النمسا .

ـ المؤتمر العاشر : ١٩٨٢ ، نيويورك ، الولايات المتحدة .
ـ المؤتمر الحادي عشر : ١٩٨٥ ، باريس ، فرنسا .
ـ المؤتمر الثاني عشر : ١٩٨٨ ، ميونيخ ، ألمانيا .
ـ المؤتمر الثاني عشر : ١٩٨٨ ، ميونيخ ، ألمانيا .
ـ المؤتمر الثالث عشر : ١٩٩١ ، طوكيو ، اليابان .

وفي مواضع مختلفة من الكتاب الحالي إشارات إلى موضوعات بعض هذه المؤتمرات وطبيعة مداولاتها . والجدير بالذكر أن هذه الرابطة ظلّت حتى مطلع الثمانينات ذات طابع غربي شبه كامل ، ويتضح ذلك جلياً من استعراض مقرّات المؤتمرات التي عقدتها . وكذلك كانت عضويتها شبه محصورة بالغربيين ، وكان عدد الأعضاء العرب ـ وما زال ـ محدوداً جداً[٢٦] . إلا أن عمل الرابطة توسع فيما بعد ليشمل المناطق الأخرى من العالم ، وأصبح للرابطة نفسها فروع في بلدان كثيرة مثل الصين واليابان .

٢ ـ المؤتمر الثامن أساس للتطورات المعاصرة

إن الأدب المقارن بحث دائب عن الجديد ، وبوجه خاص عن أنجع الوسائل للوصول إلى معرفة أفضل لطبيعة العلاقات الأدبية بين الشعوب ، ولطبيعة التجربة الأدبية الإنسانية بصورتها العامة . ومن خلال الاستعراض التالي لبعض النواحي التي عالجها المؤتمر الدولي الثامن للأدب المقارن نأمل أن يأخذ القارئ صورة عن الاهتمامات المعاصرة للأدب المقارن ، مع العلم أن هذا المؤتمر يعد تأسيساً للتطورات ، وقد ظهرت فيه النزعات الأدبية الجديدة ، وبرز فيه باحثون شباب كان لهم شأن بارز فيما بعد .

ـ عقد المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للأدب المقارن في بودابست بين الثاني عشر والسابع عشر من آب ١٩٧٦ ، وقد حضره حوالي أربع مئة وخمسين مختصاً من معظم أقطار العالم ، بما في ذلك بعض الأقطار الآسيوية والإفريقية . وقد شارك معظم أعضاء المؤتمر ببحوث في مجالات اختصاصهم ، حتى أربَتْ البحوث التي ألقيت في الجلسات العامة وفي اللجان الاختصاصية

---

(٢٦) انتسب كاتب هذه السطور إلى الرابطة عام ١٩٧٦ ، مع زميلين آخرين ، وليس هناك ما يؤكد وجود باحثين عرب سُجلوا قبل ذلك .

على ٣٢٥ بحثاً ، وتناولت مختلف اهتمامات الأدب المقارن ، وذلك من خلال الموضوعات الرئيسية التالية :

١ ـ علاقات القرن العشرين بين الآداب المنتمية للثقافات المختلفة ، نشأة آداب قومية جديدة ودور هذه الآداب في نمو الأدب العالمي .

٢ ـ التحولات الثلاثة الحاسمة في تاريخ آداب اللغات الأوربية (الخواص التاريخية والأيديولوجية والجمالية وغيرها من خواص التحول في العملية الأدبية) :

أ ـ النهضة .

ب ـ التنوير .

جـ ـ مستهل القرن العشرين .

٣ ـ الأدب المقارن ونظرية الأدب :

أ ـ المنحى التاريخي .

ب ـ المنحى الاجتماعي .

جـ ـ المنحى البنيوي Structural .

د ـ المنحى السيمائي[٢٧] Semiotic .

هـ ـ المنحى الأسلوبي .

وكما هو الشأن بالنسبة لمؤتمرات من هذا النوع تضم مشتركين من مختلف البلدان ومن مختلف الانتماءات الفكرية والفنية ، كان المؤتمر الثامن للأدب المقارن مناسبة طيبة لاستعراض الاتجاهات الجديدة في مناهج البحث الأدبي عامة ، ومناقشة ما اختلف منها وما ائتلف ، وكذلك للبحث في إمكان وضع أساس عام لمصالحة هذه الاتجاهات ، أو على الأقل لجعل حصيلة تجاربها مذللةً أمام الباحث المعاصر ، والذي تغلب عليه اليوم صفة الانفتاح العقلي وتجاوز الترمُّت (الدوغمائية) . ولقد قدمت مشروعات فكرية جادة وواعية نظرياً في خدمة هذا الغرض .

---

(٢٧) في القاموس المحيط : السيمة والسيماء والسيمياء ، العلامة . و ﴿ سيماهم في وجوههم ﴾ علامتهم ، ويظهر هنا التطابق اللفظي والمعنوي بين المصطلح الأوربي والمصطلح العربي الذي آثرناه على غيره لهذا السبب . ويبدو أن أصل الكلمة في الحالتين يوناني .

وقد دلّت أبحاث المؤتمر ومناقشاته على أن لعبة البدع الأدبية (isms--) ماضية في غلوائها لا تلوي على شيء ، وأن أغرب ما فيها هو اضطرار الباحثين والمهتمين بالأدب لإعطائها الاعتبار الكافي وذلك على الرغم من اقتناعهم بضآلة زادها من الجدية ، وبعابر ما قد تحمله من تأثير ؛ ولعلّ سرّ هذه البدع يكمن فيما تنمُّ عنه من تطلع إنساني نحو تجاوز الصيغ المألوفة والأطر المضروبة إلى آفاق الكشف وحرية الحركة الفكرية وحرارة الجدَّة ، على ما يداخل هذه الآفاق من شبهات التوهم والشطط والهوى .

وعلى الرغم من كثرة ما نوقش من آراء وبدع وتجديدات ، وعلى الرغم من تباين الأضواء الكاشفة التي سلطت على الموضوعات المطروحة على بساط المؤتمر ، فقد كان الجو عامة جوَّ وفاق وتفاهم وتبادل لا جوَّ نزاع ومحاجة واحتداد ، وإنَّ في تضارب الاتجاهات وتباعدها ما يدعو فعلاً إلى النزاع . وإذا دلَّ ذلك على شيء فإنما يدل على أن روح الوفاق الدولي (لا الانفراج فقط) يسحب ظله على المستويات غير السياسية للحياة المعاصرة ، حتى تلك المستويات التي اعتادت بطبيعة ما تنطوي عليه أن تكون مثار جدل ومراء وخصومة .. وبالطبع يستطيع المراقب أن يجد في هذا الجو الوفاقي دليلاً على صحة ما تتجه إليه الثقافة العربية المعاصرة من الاتصال بينابيع الفكر الإنساني حيثما وجدت ، ومن العمل على تذوقها وتمثلها وتوظيفها من أجل خلق مناخ ثقافي محلي وثيق الصلة بالمناخ المعاصر للثقافة العالمية .

ويهدف التعريف التالي بموضوعات المؤتمر ومناقشاته إلى مجرد الإلمام العام وإثارة الاهتمام ، ذلك لأن أي ادعاء بالإحاطة بمداولات مؤتمر تجاوزت أبحاثه وحدها ٣٢٥ بحثاً لا يمكن أن يكون ذا أساس .

الموضوع الأول :

تناول الموضوع الأول العلاقات السائدة في القرن العشرين بين الآداب المنتمية للثقافات المختلفة ، ونشأة الآداب القومية الجديدة ودور هذه الآداب في نمو الأدب العالمي . وقد خصصت الجلسة الكاملة الأولى في المؤتمر (الخميس ١٢ آب) لأربعة أبحاث رئيسية في هذا الموضوع ، ثم نوقشت سائر الأبحاث في جلسات خاصة وقاعات متخصصة . وكان ترتيب هذه الأبحاث على النحو التالي :

١ ـ ر.ف ريتامر Retamer ، من جامعة هاڤانا :
إسهام آداب أمريكا الجنوبية في الأدب العالمي خلال القرن العشرين .

٢ ـ حسام الخطيب ، من جامعة دمشق[٢٨] :
علاقة الأدب العربي الحديث بالآداب الأوربية .

٣ ـ م. كان Kane ، من جامعة دكار :
المشكلات الراهنة في الآداب الإفريقية .

٤ ـ السيدة ن.د.سن Sen ، من جامعة كالكتا :
مفهوم الأدب الهندي .

ويمكن استخلاص النتائج العريضة التالية من خلال الأبحاث الأربعة التي تمثل تقريباً المناطق المختلفة للعالم الثالث والاتجاهات اللغوية الأدبية الكبرى فيه :

أ ـ تعاني آداب العالم الثالث من التنازع بين الولاء للتراث أو للاعتبارات المحلية ، وبين التجاوب مع التيارات الأدبية العالمية . وتكشف دراسة هذه الآداب عن اتصال شديد ومتزايد بالنزعات الأدبية الوافدة من أوربة وأمريكا سواء عن طريق الترجمة أو عن طريق الاتصال المباشر للنخبة باللغات الأوربية . ويتفاوت هذا التنازع تفاوتاً شديداً وفقاً لعاملين أساسيين :

١ ـ درجة عراقة التيار الأدبي القومي أو المحلي .

٢ ـ طبيعة الصلة التي تربط المجتمعات المحلية بالمجتمع الأوربي ، بما في ذلك الصلات الثقافية والسياسية .

ب ـ ومن خلال هذين العاملين يلاحظ أن آداب أمريكا اللاتينية أقل تعرضاً للتنازع ، وأقوى على التفاعل مع التيارات الأدبية العالمية ، ومقابل ذلك يعطي الأدب العربي الحديث

---

(٢٨) انظر النص العربي لهذا البحث في :
د . حسام الخطيب : الأدب المقارن ، الجزء الثاني ، جامعة دمشق ١٩٨١ ، ص ص ٣ ـ ٤١
وقد نشر النص الأصلي بالإنكليزية في (وقائع المؤتمر الثامن ..) :
Actes du VIII Congrés de L Association Internationale de Littérature comparée.
وكذلك ظهر النص نفسه مترجماً إلى الهنغارية من منشورات Akàdemi Kiado, Budapest

نموذجاً للصراع الحاد جداً بين عناصر التراث العريق والقديم والمتأصل ، وبين المؤثرات الوافدة التي تتصف بالجاذبية والاستمرارية وحرارة المعاصرة ، ويتخذ هذا الصراع شكل ثنائية تعيق تمثل العناصر الوافدة ، وتجعلها دائماً تبدو كما لو كانت أجساماً غريبة مقبولة بوصفها ضرورية ، ولكنها محافظة نسبياً على جنسيتها الغربية .

جـ ـ تؤلف كل من الهند وإفريقية حالتين خاصتين بينهما شيء من التشابه . هاهنا تتخذ العلاقة مع الآداب الأوربية شكل تقبل كامل ، وفي البدء كان هذا التقبل مطلقاً ، ولكن مع نشوء آداب اللغات المختلفة في شبه القارة الهندية وفي القارة الإفريقية (باستثناء شمالها العربي وجنوبها الأوربي) بدأ يبرز تحدي إنشاء أدب محلي معاصر سواء باللغة الأوربية المسيطرة (الإنكليزية أو الفرنسية في أغلب الأحوال) أو باللغة الوطنية التي يُعاد إحياؤها بأشكال مختلفة .

وفي الهند ، كما في إفريقية ، يطرح السؤال نفسه (بصرف النظر عن اختلاف الأوضاع السياسية) هل هناك أدب هندي معاصر ؟ هل هناك أدب إفريقي معاصر ؟ إن تعدد اللغات في الهند وتباعد ما بينها يجعل الكلام عن وجود أدب هندي قومي بغير اللغة الإنكليزية مسألة خلافية ، ولا سيما بسبب تفاوت لغات الهند في غناها وعمق تراثها . والمشكلة بعد مشابهة لإفريقية حيث بدأت تبرز آداب قومية من خلال لغات متفاوتة في غناها ، وما زال القاسم المشترك بينها هو مدى التأثر باللغة الأجنبية التي نشأت اللغة المحلية على هديها .

وبالطبع نشأة المجتمع الجديد لابد من أن تؤدي إلى نشأة الأدب المنبثق عن هذا المجتمع ، ولكن المسألة متداخلة بعوامل لغوية وثقافية محلية وأجنبية معقدة ، بحيث تبدو الولادة عسيرة وغير مبرّأة من الألم على أي حال . ويزيد الأمر صعوبة في كل من الهند وإفريقية أن شريحة النخبة المتأثرة تأثيراً مباشراً بأوربة ما زالت تمسك بعصا التوجيه الفكري والأدبي ، وهي في إفريقية أقوى منها في الهند ، ويعتبر أدبها امتداداً إفريقياً للأدب الأوربي ، ولا سيما حين تطبق عليه معايير شكلية أو ذوقية خالصة .

د ـ أما من حيث التأثير في حركة الأدب العالمي المعاصر ـ إن صحت التسمية ـ فيمكن القول إن آداب أمريكا اللاتينية ـ ومعظمها بالإسبانية أو البرتغالية ـ تحتل المقام الأول ، والعلاقة هنا ليست ذات طرف واحد كما هو شأن أقطار العالم الثالث ، بل هي تحمل بوادر جدلية (ديالكتيك) ، وذلك بفضل قوة الإسبانية من جهة ، وبسبب عدم وجود صراع حاد مع

المؤثرات ، بحيث تتم عملية التمثل والتبادل في مناخ شبه طبيعي . وبالنسبة لكل من الهند وإفريقية يتم التأثير عن طريق أدباء النخبة الذين يكتبون بإحدى اللغتين الإنكليزية والفرنسية ، ولكنه تأثير (شخصي) أكثر مما هو تأثير قومي .

وهنا تبرز مشكلة الأدب العربي المعاصر ، الذي يحاول أن يكون قومياً ومحلياً من جهة وعالمياً من جهة أخرى ، والذي يطمح إلى التأثير بطريقته الخاصة (القومية لا الفردية) ، وبلغته الخاصة ، وإذا كان تأثيره حتى اليوم محدوداً ، فإن المحدودية النسبية للمشكلات التي يعاني منها تبشر - إذا ماقيست بالمشكلات الأكثر تعقيداً ، التي تعاني منها آداب قومية أخرى - بأن المسألة مسألة وقت ، وأن الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية للأدب العربي تؤهله لأن يأخذ مكانه المقبل في المضمار العالمي . ومن هنا كان الاهتمام الواضح الذي أولاه المؤتمر لمسألة العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية .

الموضوع الثاني :

وتناول الموضوع الثاني التحولات الثلاثة الحاسمة في تاريخ آداب اللغات الأوربية ، وقد تعاقب المتكلمون على المنبر وفقاً للترتيب التالي :

١ - س . جيلان C. Guillen ، من جامعة لاجولا : مفهوم التحول في التاريخ الأدبي .

٢ - ر. وايمان R. Weimann ، من جامعة برلين : التحول والنمو في النثر والمسرحية خلال عصر النهضة .

٣ - ر. مورتييه R. Mortier ، من جامعة بروكسل : التقليد والتجديد ، القاعدة والعبقرية ، دليل النهضة .

٤ - ساتونسكي D. Satonskij ، من جامعة كييف : مشكلات الواقعية في القرن العشرين .

وقد دلت الأبحاث الرئيسية والأبحاث التي أُلقيت في اللجان على أن الفترات الثلاث : النهضة ، التنوير ، مطلع القرن العشرين ، تظل مبعث اهتمام شديد للمؤرخ الأدبي ، كما تعطي الباحث المقارن المختص بالتاريخ الأدبي الأوربي فرصة عظيمة لدراسة تلاقح الأفكار والأذواق الأدبية . ومن هنا كانت جهود الرابطة الدولية للأدب المقارن منصبة الآن على إعادة كتابة تاريخ آداب اللغات الأوربية مع تركيز الاهتمام على هذه الفترات الثلاث .

الموضوع الثالث :

وكانت المسائل النظرية للأدب المقارن هي الموضوع الثالث للمؤتمر ، وقد تناولها بالبحث والمناقشة علماء كبار مختصون حسب الترتيب التالي :

١ ـ هـ . رماك H. H. H. Remak ، من (بلومنغتن) :
الاختلاف والاتفاق في الأدب المقارن .

٢ ـ رينيه ولك René Wellek ، من (نيوهافن) :
خواطر حول كتابي (تاريخ النقد الحديث) .

٣ ـ ي . سوتير I. Soter ، من (بودابست) :
تطبيق المنهج المقارن على تاريخ أدب قومي .

٤ ـ أ . م . روسو A. M. Rousseau ، من (إيكسن آن بروفانس) :
الأدب المقارن والتحليل الشكلي للنصوص الأدبية : خطة نقدية ومنظور جديد .

وكانت الجلسة العامة المخصصة لهذا الموضوع أخصب جلسات المؤتمر .

وقد تحدث في هذه الجلسة الباحث هنري رماك عن آخر تصوراته لمنطق الأدب المقارن ومنطقته ، وبما أن هذا البحث مكمل لأفكاره السابقة ، فقد عرضناه آنفاً في سياق متابعة نظريته المقارنة .

وبعد (رماك) كانت إطلالة رينيه ولك على المنبر ، موكب من المعرفة والفهم والذوق يستند إلى تجربة سبعين سنة من العمر . وتحدث ولك عن كتابه العظيم (**تاريخ النقد الحديث** A History of Modern Criticism) ، تماماً كما يكتب بوضوح لا يحول دون العمق ، وكثافة لا تحول دون الرشاقة .

وقال (ولك) إن معظم النقاش يدور حول الوجدان الأخلاقي من وراء المؤلفات النقدية . وهذا حق لأن تاريخ النقد هو تاريخ للوجدان ، وليس ثمة تاريخ للنقد لا يتجاوز الأمور الظاهرية إلى الوجدان . إن تاريخ النقد شيء مبتكر ومختلف عن كل من النقد والتاريخ ، والنصوص التي يعتمدها خاصة جداً ويجب أن تحلَّل تحليلاً عميقاً واعياً لغوياً واصطلاحياً . إنه ليس

تاريخ وقائع . وبذلك يختلف عن تاريخ الأدب وتاريخ الفن وتاريخ الموسيقا . وهو لا يقتصر على لغة واحدة أو فترة واحدة . وهو تاريخ للعلم والفكر والأدب والفن ، وخلاصة لمعلومات العصر . وربما كان الكتاب النقدي الوحيد الذي يحقق هذه الشروط هو كتاب سانتسبري[٢٩] ، وإنه مع ذلك أكثر كتب النقد بعداً عن المنهجية والأيديولوجية .

ربما كان تاريخ الفلسفة أقرب شيء إلى تاريخ النقد ، وقد عانى تاريخ الفلسفة ـ كما عانى تاريخ النقد ـ من الميل إلى اعتباره خلاصات لأفكار الفلاسفة ، إن تاريخ الفلسفة ليس خلاصات حول أفكار الفلاسفة ، ودراسة تاريخ الفلسفة دراسة للفلسفة نفسها . والفلسفة لها تاريخها الذي يدل على أن كل فلسفة كانت ضرورية في عصرها وعلى تاريخ الفلسفة أن يبرز ذلك .

وقد أنكر كروتشه أن يكون النقد موضوعاً موحداً ، وذكر أن تنوع موضوع النقد لا يسمح باعتباره وحده . ويصرُّ (ولك) على أن النقد علم كسائر العلوم ، ومن واجبات تاريخ النقد أن يناقش نظرياً كيف ينظم هذا التنوع في النقد وما الوسيلة لكشفه ودراسته .

وتاريخ النقد متصل بكل أنواع التاريخ : تاريخ الأدب ، والفن ، والفلسفة إلخ .. ويمكن أن يكون تاريخ النقد أقرب إلى التاريخ الاجتماعي من أي تاريخ آخر ، وقد قال مؤلف أمريكي : إن تاريخ النقد الأمريكي أقرب إلى تاريح المجتمع الأمريكي منه إلى تاريخ الشعر الأمريكي .

وهناك تاريخ نقد كثير يكتب لتطبيق ما يجري تعلمه في المدارس ، ولكن ليس هذا هو تاريخ النقد المطلوب . وللنقد علاقة كبرى بالأنظمة المختلفة للمعرفة . وهو وثيق الصلة بالجماليات ، ولذلك لا تجوز كتابة تاريخ نقدي دون الإشارة إلى التاريخ الجمالي . وقد حاول (ولك) في كتابه (**تاريخ النقد الحديث**) أن يعقد صلة قوية بين تطور النقد وتطور المفهومات الجمالية ، وكذلك الفلسفية . ويكاد كتابه يحتوي على تاريخ الجمال وتاريخ الفلسفة مع تاريخ

(٢٩) لجورج سانتسبري كتابان أحدهما في تاريخ العروض الإنكليزي والثاني في تاريخ الإيقاع النثري ، وليس واضحاً إلى أي الكتابين يشير (ولك) . وفي كتابه (**نظرية الأدب Theory of literature**) إشارات ناقدة إلى الكتاب الأخير . والكتابان هما :

Saintsburry, George

- A History of English Prosody, 3 vols, 1906-10

- A History of English Prose Rhythm, Edinburgh

النقد . ولكن هذا لا يمنع من التأكيد أن لتاريخ النقد هدفاً مستقلاً نسبياً ، وهناك حد أدنى من العزلة ضروري ، هذه العزلة نفعية (ذرائعية) لأنها تساعد على تشكل النقد من الداخل ، وتعطي أساساً سليماً للاتصال بسائر فروع المعرفة ذات الصلة به .

ولا بد من الإشارة إلى أن هناك من ينكر وجود تاريخ أدبي أو تاريخ نقدي ، وهناك أسئلة متكررة تطرح حول طبيعة تاريخ النقد لتوحي بعدم إمكان تحقق مثل هذا التاريخ . ويقول (ولك) : نعم إن هناك تحديات ولكن ليس هناك عقبات لا تغلب .

وقد اتهم (ولك) بأنه ضد كتب التاريخ ، وهذا فهم سيئ لمنهجه في التأليف الأدبي . إذ كان غرضه جمع كل المفهومات المتصلة بالأدب من الناحية النظرية بوجه خاص بصرف النظر عن الترتيب أو التداخل التاريخي . وهو يعترف بخطر (التاريخية) ويحاول تجنبه . وقد اعتمد بوجه خاص على كتاب (تاريخ الفلسفة) لجان بلتيمور .

إن النقد هم مستمر ولا بدَّ له من تاريخ . وفي شبابه حلم (ولك) بنظرية ثورية في تاريخ الأدب ، والآن يحلم بضرورة نظرية ثورية في (تاريخ النقد) .

جلسات اللجان المختصة :

وفي جلسات اللجان المختصة ، كما في الجلسات الكاملة للمؤتمر ، كانت الروح السائدة هي روح الوفاق والانفراج ، بحيث يحاول كل ذي مبدأ أو منحى أو نزعة أن يشرح موقفه من خلال أكثر الصيغ مرونة واعتدالاً ، وكان الاستعداد للتصالح والتبادل ظاهراً عند الجميع ، مع استثناءات بسيطة صدرت عن الأقل ثقافة ، والأقل توقداً من بين أعضاء المؤتمر . وقد نوقشت في اللجان ملامح المدارس الأدبية الجديدة ابتداء من مطلع هذا القرن ، وكان نصيب (الطليعية Avantegarde) أوفى نصيب ، وحاول كثيرون تحديد تاريخها ومصطلحها ومقوماتها ومنهم فلاكر Flaker اليوغسلافي الذي ألقى بحثاً قيماً واضحاً حول ملامح مفهوم الطليعية ، أي حاول أن يحدد ما هو غير قابل للتحديد ؛ كما تتبعت الدكتورة بلاكيان Balakian من جامعة نيويورك أصول (الطليعية) عند الرمزيين ، وأوضحت أن هناك (طليعيات) بقدر ما هناك بيانات أدبية حديثة ، وتساءلت عما يكون بعد الطليعية ، ذلك أن الطليعة غير مقصودة لذاتها ، وإنما هي عسكرياً (أصل المصطلح) طليعة للجيش ، فأين الجيوش التي تلت ؟ وقد كانت كل

ملاحظات بلاكيان حادة وكاشفة ، وبينت أن (الطليعية هي التحرق لاكتشاف البديع والجديد ، وأن هذا الاكتشاف مقصود لذاته لا لشيء آخر) ، كما بينت الأسباب الاجتماعية الكامنة وراء يأس جيل الطليعة من الحياة الغربية وشعورهم بعقم مجتمعاتهم وانحطاطها[٣٠] .

وألقيت أبحاث كثيرة مركزة وعينية حول الأسلوبيات Stylistics ، والبنيوية Structuralism ، والسيمائية Semioties ، والمستقبلية Futurism ، والاستقبالية Receptionalism وغير ذلك من النزعات والبدع التي تصل أصداؤها إلى الوسط الثقافي العربي بصور متنوعة ، كما حظي جيورجي لوكاتش بجلسة خاصة تحدث فيها كل من هيرمان Hermann من جامعة بودابست ، ولويز سوريا Lopez Soria من (ليما) عن منهج جورج لوكاتش وعلاقته بالأدب المقارن ، وتحدث كاراماشي F. Caramaschi من (فيرنز) عن (لوكاتش والواقعية الفرنسية) . وكانت هناك جلسات مناقشة خاصة بالآداب المختلفة الآسيوية الإفريقية ومنها الأدب الهندي والأدب الياباني والآداب الإفريقية والأدب العربي ، وكذلك بأدب أمريكا اللاتينية .

الأدب العربي في المؤتمر :

كانت المشاركة العربية في المؤتمر محدودة كمّاً وكيفاً ، ربما لأن المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للأدب المقارن أتى على درجة كافية من الجدية لم تتح ـ في الأغلب ـ مجالاً لمتنزهي المؤتمرات العربية . إن الباحثين الجادّين لا يلقون عادة تشجيعاً كافياً من مؤسساتهم وجامعاتهم . وإن غياب البحث العلمي في جامعاتنا ومعاهدنا وضآلة مشاركتنا في المؤتمرات التخصصية غير الاحتفالية هما مؤشران خطيران ، وقد ظهرا جليّاً في مؤتمر بودابست .

وقد دلت مناقشات المؤتمر على أن البحث الجدي المتعلق بالأدب العربي يكاد يكون غير موجود ، إذ ليس هناك شيء متبلور في دراسة الأدب العربي . وفي الجلسة الخاصة التي عقدت لمناقشة موضوعات الأدب العربي اختلف الحاضرون حول أبسط النقاط ولم يستطيعوا الاستمرار في النقاش والتوصل إلى بعض النتائج لأن المصطلح الذي هو أساس النقاش مائع الدلالة وغير قادر على الإيصال ، فمثلاً حين تذكر كلمة (النهضة) يفسرها كل على هواه ، وحين يذكر الشعر العربي

(٣٠) مرةً أخرى ، كل العلماء الأمريكيين في المؤتمر لاحظوا البعد السياسي ـ الاجتماعي في الظواهر الأدبية .

الحديث يتراوح تفسيره من أحمد شوقي إلى محمود درويش ، وحتى المصطلحات الاجتماعية المعروفة أثارت مناقشات تدل على أن معناها لم يتخذ شكلاً محدوداً في قاموسنا الثقافي .

ولم تظهر مثل هذه البلبلة في جلسات النقاش المتعلقة بالآداب الأخرى . إن المصطلح النقدي بمعناه الواسع ، (أقصد اللغة النقدية المتبلورة) يمثل العملة التي بدونها لا يمكن أن يتم أي تبادل منظم . وأحرى بنا أن نعير هذه الناحية ماتستحقه من اهتمام .

٣ ـ مؤتمرات لاحقة واهتمامات مستجدة

بعد المؤتمر الثامن جرى عقد المؤتمر التاسع للمرابطة الدولية للأدب المقارن في إنسبروك (النمسا) من ٢٠ ـ ١٩٧٩/٨/٢٤ وعالج المشاركون فيه الموضوعات التالية :

١ ـ الاتصال الأدبي والاستقبال :

أ ـ نظرية الاستقبال أو جمالياته وعلاقة ذلك بالأدب المقارن .
ب ـ الدراسات المتعلقة بالاستقبال والأنظمة الأخرى .
جـ ـ النص وتنضيد النص .
د ـ ترجمة الأدب .

٢ ـ النماذج الكلاسيّة في الأدب :

أ ـ الفترات الكلاسيّة في الأدب .
ب ـ الأنماط الأدبية .
جـ ـ الكلاسيّة والقيم .
د ـ التقليد الكلاسي والتطور الحديث .

٣ ـ الأدب والفنون الأخرى :

أ ـ النظرية والطرائق .
ب ـ الأدب والرسم .
جـ ـ الأدب والموسيقا .
د ـ الأدب والفيلم .

٤ ـ تطور الرواية :

أ ـ الرواية والتاريخ .

ب ـ جوانب السرد .

جـ ـ الرواية والخرافة .

د ـ الرواية والثقافة الجماهيرية .

وتظهر هذه القائمة للموضوعات أن النظرة الواسعة قد تغلبت الآن على تصور حقل الأدب المقارن ، والتأثر هنا بالاتجاه الأمريكي الذي عرضناه آنفاً واضح جداً .

وقد توطد هذه الاتجاه فيما بعد من خلال المؤتمر العاشر للرابطة الدولية للأدب المقارن الذي عقد في نيويورك خلال شهر آب ١٩٨٢ ، إن كان لمكان انعقاد المؤتمر وللكثافة الواضحة للأبحاث الأمريكية أثر في زيادة توطيد الاتجاهات الأمريكية الحديثة في إطلاق منطق الأدب المقارن ومنطقته بحيث يشملان مختلف أشكال امتدادات الظاهرة الأدبية خارج جدرانها .

إلا أنه ، فيما عدا هذا الاتجاه العريض إلى الانفتاح منطقاً ومنطقة ، وإلى التفاعل أكثر فأكثر مع النظريات الأدبية والنقدية الحديثة ، يصعب القول : إن الأدب المقارن بدأ يطمئن إلى منهجه ومنطقه الداخلي ، فالخلافات والاجتهادات مازالت تتوالد وتضطرب وتتداخل . وكان تخصيص المؤتمر الحادي عشر للرابطة الدولية للأدب المقارن بموضوع مركزي هو (نظرية الأدب المقارن ومناهجه) دليلاً على الشعور بوجود ضرورة لإعادة تقليب هذا الموضوع الساخن من جوانبه المختلفة أملاً في التوصل إلى بلورة حلّ معقول ، والخلاصة من مرحلة القلق المنهجي الذي يعاني منه الأدب المقارن ، خلافاً لمعظم أنساق المعرفة التي تبدو مطمئنة إلى كثير من الأسس الراسخة .

وقد عقد المؤتمر الحادي عشر في باريس من ٢٠ ـ ١٩٨٥/٨/٢٥ في رحاب جامعة الصربون ، وامتاز بالضخامة والاستعراضية ، إذ حضره حوالي ست مئة وخمسين باحثاً من مختلف أرجاء العالم ، وسبَّبَ ذلك بالطبع إرباكاً تنظيمياً زاده تفاقماً تفرق قاعات الاجتماعات ، وتشتت محاور المؤتمر ، وتعدّد الاجتهادات ، وأدّى ذلك كله إلى عدم توصل المؤتمر بحصيلته العامة إلى ما كان يُعلق عليه من آمال بشأن حلّ المشكلة المنهجية للأدب المقارن .

☆ ☆ ☆

سسكس :

وقد عقب هذا المؤتمر مباشرة ملتقى متخصص حول موضوع (الأدب والقيم) دعت إليه كلية الدراسات الأوربية في جامعة سسكس Sussex جنوب بريطانيا ، ودامت جلساته يومين فقط (٢٧ ـ ١٩٨٥/٨/٢٨) ، وكان عدد الحاضرين فيه ١٢٠ باحثاً معظمهم انتقلوا مباشرة من مؤتمر باريس . وامتاز هذا الملتقى بالخصوبة والعمق والحوار الجاد في جوٍّ من التواضع والبساطة .

ومما يُحمد لهذا الملتقى الصغير أنه جمع بين الحسنيين ، فكانت فيه بحوث تحليلية كثيرة تناولت جوانب مختلفة من ظاهرة الارتباط بين الأدب والقيم عند كثير من الأمم ، وكذلك في العديد من الأجناس الأدبية ، كما كانت فيه مقالات تأسيسية حاولت أن تقيّم هذه العلاقة ، وأن تنظر لها ، وأن تجد بوجه عام حلاً لهذه المشكلة الخلافية . وكانت هناك أبحاث ذات طبيعة عامة ، كما كانت هناك أبحاث ذات طبيعة اختصاصية دقيقة . ومن بين الأبحاث العامة التي لفتت الأنظار ، والتي يحسن بالقارئ العربي ألا يكون مغيَّباً عنها ، الأبحاث التالية :

١ ـ بحث « مابعد التأويل » للأستاذ أندريه لوفيڤير Andres Lefevere من جامعة تكساس .

٢ ـ « الخصومة حول حيادية القيمة في المجتمع والأدب » ، للأستاذ جورج بستراي George Bisztray من جامعة تورنتو .

٣ ـ بحث « النظرية والممارسة في قضية القيم » للأستاذ غابرييل جوزيبوفتشي Gabriel Josipovici من جامعة سسكس .

٤ ـ « تشكيل القانون الأدبي في الماضي والحاضر » ، للأستاذ دوي فوكيما Dowe Fokkema من جامعة أوترخت بهولندا ، وهو الرئيس المنتخب مجدداً للرابطة الدولية للأدب المقارن AILC .

٥ ـ « أحكام النوعية ـ أو القيمة ـ في الأدب المقارن » للأستاذ هـ . هـ . هـ . رماك Remak من جامعة إنديانا ـ الولايات المتحدة .

٦ ـ « القيم الميتافيزية في الشعر الحديث » ، للأستاذ أ . بلانش A. Blanch من جامعة مدريد .

٧ ـ « بشر أصحّاء ، نصوص معافاة » ، للأستاذ ب . موزلي P. Mosely من جامعة غلاسغو .

٨ ـ « السعي من أجل السعادة : الصراع بين الخيِّر والجميل » ، للأستاذ ت . أونغفاري T. Ungvari من جامعة بودابست .

٩ ـ « الأدب : مرآة التطور الجمالي الاجتماعي » ، للدكتور س . راي S. Ray ، من جامعة البنغال الغربية .

١٠ ـ « الأثر الثقافي للأدب » ، للأستاذ ج . مويج J.J.A. Mooij ، من جامعة كوبنهاغن .

١١ ـ « سقوط الجمال في الأدب الحديث » ، للدكتور ج . ك . بنرجي J.K. Banerjee من جامعة فيزفا ـ بهاراتي الهند .

وكانت هناك أبحاث خاصة كثيرة تتعلق بالتجربة الأدبية في مختلف مناطق العالم ، ومنها فقط بحثان يتعلقان بتجربة الأدب العربي وهما :

ـ « أولوية العامل السياسي في خلق نوع أدبي : القصة السورية في الخمسينات كحالة دراسية »[٣١] ، للدكتور حسام الخطيب ، من اتحاد الكتاب العرب ، وجامعة دمشق .

ـ « التقنية المتغيرة في الشعر العربي الحديث ، هل هي انعكاس للقيم الاجتماعية ؟ » ، للأستاذة فاطمة موسى ، من جامعة الرياض[٣٢] .

(٣١) انظر النص الإنكليزي للبحث في :

Dr. Hussam Al-Khateeb: «Politics and the Rise of the Syrian Short Story in the 1950s», Neohelicon, XIV-2, 1987, Budapest, pp. 277-289

(٣٢) وكما كان شأن المؤتمرات السابقة كان الحضور العربي في هذا الملتقى العلمي الخصب محدوداً جداً وغير متناسب أبداً مع حجم المؤسسة الأكاديمية العربية ، في حين أن الحضور الإسرائيلي كان كثيفاً ومنسقاً .

ومما يتصل بهذا الشأن أن مؤتمر باريس الحادي عشر (المشار إليه آنفاً) أسفر عن انتخاب مكتب تنفيذي للرابطة ضمّ أستاذاً من جامعة تل أبيب ، في حين أن المرشح العربي (جزائري) لم يحصل على أصوات كافية ، ولم يكن رسوبه نتيجة لتصويت بريء بل لتدبير مفتعل من جهة ، ولتقصير عربي واضح من جهة أخرى .

وبهذه المناسبة لابدّ من الإشارة إلى أن الحضور اليهودي في حقل الأدب المقارن ومؤتمراته قوي جداً لأسباب كثيرة من أهمها هجرة الباحثين اليهود من بلد إلى آخر في الغرب ، وما يتبع ذلك من تعدد ثقافاتهم ولغاتهم .

وبعد فرنسا وبريطانيا أتى دور ألمانيا ، وقد عقد فيها المؤتمر الثاني عشر للرابطة الدولية للأدب المقارن (ميونيخ ٢٢ ـ ١٩٨٨/٨/٢٧) .

وتركزت محاور المؤتمر حول موضوع « الفضاء والحدود في الأدب والنقد والنظريات الأدبية » ، كما أُضيف محور محدّد حول فضاء وحدود تعليم الأدب العام والمقارن ، وفي هذا الصدد جرى التركيز على مثال تطبيقي محدد هو الصين .

وقد اتسمت الأبحاث التي تناولت فضاء الأدب بالإمعان في العمق والتدقيق ، وربما التعقيد ، ودلّت على تصميم البحث الأدبي المعاصر على المضي قدماً في تحليل الظاهرة الأدبية من خلال أدوات في الاستقصاء ، ومناهج لم يعرف لها التاريخ الأدبي في الماضي أيّ مثيل ، ومن الواضح أن جانباً كبيراً من فضل هذا التطور يعود إلى التفاعل الفكري العالمي الذي غذته منابر الأدب المقارن في العهد المعاصر .

طوكيو :

وفي صيف عام ١٩٩١ عقد المؤتمر الثالث عشر في طوكيو ، وكانت تلك المرة الأولى التي تخرج فيها مؤتمرات الرابطة عن النطاق الغربي ، وهو خروج نسبي بالطبع وله مغزى غربي أيضاً . وكان موضوع المؤتمر جديداً نسبياً وهو « قوة الرؤية The Force of Vision » ، وتشعب في المحاور الفرعية التالية :

- مسرحيات الرغبة .
- رؤى الجمال .
- رؤى التاريخ .
- قوى السرد .
- الرؤية وإعادة الرؤية في التاريخ الأدبي .
- رؤى الآخر .
- الأدب المقارن داخل آسية : التمثل والانتشار .

وتدلّ هذه العنوانات ، كما تدلّ المعالجات التفصيلية المتصلة بها على تطورين شديدي الأهمية في حقل الأدب المقارن :

الأول : تطلع الأدب المقارن نحو معالجة قضايا الإبداع في إطارها العالمي المطلق بعيداً عن الحواجز والمماحكات المنهجية ، وبذلك يقترب الأدب المقارن من رسالته تجاه النقد الأدبي في صفائه وإطلاقيته .

الثاني : بدء الاهتمام المؤسسي الجاد بالظاهرة الأدبية خارج حدود الغرب ، ويبدو في نطاق قارة آسية بالذات أن ثقل الاهتمام يتمركز في أدب القوتين الكبريين ، الصين واليابان ، مما يذكر بما أشرنا إليه في الفصل الثاني من هذا الكتاب عن العلاقة بين تطورات الأدب المقارن وتطورات القوة السياسية والحضارية لمناطق العالم ، لأن الأدب المقارن من محصلات النهوض التي لا تتأتى إلا بعد تضافر عوامل متداخلة[٣٣] .

٤ ـ أنموذج لنشاط مقارني خارج الرابطة
(باريس ، وظاهرة العواصم الأدبية)

على امتداد خمسة أيام طوال (٢٢ ـ ١٩٨٤/٥/٢٦) ، وبمشاركة حوالي مئتين وخمسين باحثاً من مختلف أنحاء العالم ، عقد في الصربون بباريس (المؤتمر الدولي للأدب المقارن) وقرئ فيه حوالي ١٧٥ بحثاً ، كلها تتناول من قريب أو بعيد الموضوع المركزي للمؤتمر وهو :

« باريس وظاهرة العواصم الأدبية : مفترق طرق أم حوار بين ثقافات ؟ » .

Paris et le phénomène des capitles littéraires: carrefour ou dialogue des cultures?

وقد نظّم هذا المؤتمر « مركز البحث في الأدب المقارن في الصربون C. R. L. C. » بالاشتراك مع « مركز البحث والدراسات حول باريس وجزيرة فرنسا C. R. E. P. L. F. » و « جمعية دراسة وتنمية العلاقات الدولية لباريس العاصمة الأدبية A. P. C. L. » .

وكان على رأس المنظمين الأستاذ جان باستي مدير مركز البحث حول باريس ، والأستاذ بيير برينل مدير مركز الصربون للأدب المقارن .

(٣٣) من أجل تفصيلات المؤتمرات المشار إليها سابقاً يمكن مراجعة وقائعها الكاملة في مطبوعات الرابطة الدولية للأدب المقارن ، وكذلك توجد إشارات عنها في الكتاب السنوي للأدب المقارن والعام ، الذي سبقت الإشارة إليه . وفي العادة تعتمد سرعة طباعة الوقائع على إمكانات البلد المضيف .

وكان موضوع المؤتمر جميلاً ومثيراً ، وكذلك معقداً ومتشابكاً ، فمن بين عواصم الدنيا كلها تتمتع باريس بعلاقاتٍ متميزة مع مختلف مناطق العالم ، وهذه العلاقات ذات مستويات متباينة ، فهناك العلاقات التي تعود إلى عهد الكولونيالية ولا سيما مع مجموعة البلدان الناطقة بالفرنسية في إفريقية وآسية وغيرها ، وهناك العلاقات المتصلة بالتبادلات بين العواصم العالمية ، وهناك الإشعاع الخاص بباريس والمتعلق بانتشار المذاهب والبدع والأزياء الأدبية والفنية ، وهناك التعلق العام الحضاري والذوقي بهذه المدينة العريقة الفتانة .

وقد عملت إدارة المؤتمر على تنظيم إلقاء البحوث والمناقشات من خلال مستويين :

الأول : مستوى الجلسات الكاملة التي كانت تعقد في الصباح في مدرج ديكارت العريق .

الثاني : مستوى الجلسات الاختصاصية التي كانت تعقد بعد الظهر في اثنتي عشرة قاعة تمثل تشعب اختصاصات المؤتمر وهي :

- باريس في الأدب .
- كتاب أجانب في باريس .
- المغرب والبلدان العربية .
- العالم الجرماني .
- العالم الأيبيري والأمريكي اللاتيني .
- إفريقية .
- أوربة الوسطى .
- البلدان الناطقة بالفرنسية (باستثناء البلدان الإفريقية) .
- إيطاليا .
- البلدان الأنكلوسكسونية .
- العواصم القديمة وعواصم العصر الكلاسي .
- المحاورة الثقافية الكبرى .

وإن تسمية هذه التشعبات هنا متعمدة من أجل إعطاء فكرة عن التقسيمات الثقافية ـ اللغوية المعتمدة بشكل أو بآخر في مؤتمرات الأدب المقارن ، وكذلك للتأكيد ثانيةً أنه من الممكن

إلقاء حوالي مئة وخمسة وسبعين بحثاً في مؤتمر واحد خلال خمسة أيام بشيء من التنظيم وتوزيع الاختصاص[٣٤] .

وكان الطابع العام للمؤتمر بسيطاً خالياً من الشكليات وكانت الأبواب ، أبواب الصوربون ، مفتوحة للجميع ، وجرى النقاش بهدوء وروية ، وكانت هناك فائدة جُلّى لمن أراد أن يستفيد . وقد عقدت الجلسة الختامية في مدينة فرساي العريقة وفي جو العظمة الفرنسية الكلاسية .

وفي مثل هذا المؤتمر يصعب بالطبع الإحاطة بالأفكار التي طرحت بسبب تشعبها الشديد من جهة ، وغلبة ناحية المعلومات عليها من جهة أخرى . ولم يتوصل المؤتمر إلى توصيات محددة أو نتائج أو قرارات . وسوف أكتفي هنا بعرض عنوانات بعض البحوث التي أثارت اهتماماً في المؤتمر :

- ما هي العاصمة الأدبية ؟ للأستاذ بيير برينل (باريس) .
- أية عاصمة للأدب الإفريقي ؟ باللغة الفرنسية - محمدو كانه (داكار) .
- باريس ، مسقط رأس الزنجية - أدريانو مور (تورين) .
- باريس الحقيقية عند مارسيل بروست - آن هنري (مونبيليه) .
- باريس في رواية الثورة .
- باريس (اللامكان) لدى الجيل الضائع .

وكانت هناك موضوعات متنوعة حول صورة باريس عند الأدباء الكبار في العالم ، وكذلك حول الحركات الأدبية والفنية غير الفرنسية التي ولدت في باريس أو انتقلت إليها من مواطنها الأصلية . ويلفت النظر بالفعل الحضور الحي لباريس في الإنتاج الأدبي في مختلف قارات العالم من الصين حتى أمريكا اللاتينية . وتحتل إفريقية الفرنسية المرتبة الأولى في هذا الحضور .

ويستنتج من كل هذه البحوث أن صورة باريس كانت دائماً مشرقة في الآداب العالمية ، ولكنّ هناك كتّاباً كثيرين رأوا وجهها الآخر المظلم ، وفي أكثر الحالات كان هناك إعجاب كبير ، ولكن كان هناك نقد شديد وتمحيص . وقد قدمت إحدى الباحثات الفرنسيات صورة نقدية لباريس مثلاً في الأدب الصيني . ويبدو من المطالعات المختلفة أن أكثر الناس حماسة لباريس هم

---

(٣٤) هل يجوز لي أن ألاحظ أن تجربتي في المؤتمرات العربية العلمية والسياسية تفيد أن المشاركين يرفضون غالباً التوزع على قاعات هادئة ويفضلون الجلسات العامة ذات النزعة الاستعراضية واللهجة الخطابية .

الإفريقيون الذين يتحدثون عنها بعاطفية مسرفة وبحنان وتمجيد ، ويرون صورة ثقافتهم وإبداعهم فيها .

فمثلاً قدم نسوغان أغيلمانيون[٣٥] بحثاً عنوانه : « باريس العاصمة وظاهرة الأدب الإفريقي المتعلق بالزنجية في المجتمع الثقافي الإفريقي » . وفي هذا البحث تذكر الكاتب أيامه القديمة في الصربون ووصف سعادته الغامرة بالعودة محاضراً إلى المدرج الذي كان فيه طالباً ، وذكر زملاءه : ديوب وإيميه سيترار وسنغور ، واستشهد بمقاطع من تعلقهم بباريس ووقف واستوقف وبكى واستبكى وقبّل ذا الجدار وذا الجدار ، وشكر باريس باسم جميع المثقفين الإفريقيين ، ولم يذكر أي شيء عن الوجه الآخر لباريس القاسية المتعصبة المعتدة بنفسها .

☆ ☆ ☆

وإذا كانت صورة باريس مغموسة بالنوستالجيا (الحنين) والانتماء لدى المثقفين الأفارقة ، فإنها لدى المثقفين العرب محوطة بهالة من الإعجاب والتمجيد والتبجيل والافتتان . وربما يشترك المثقفون العرب والأفارقة في أنهم رأوا في باريس وجهها المشرق فقط ، وكانوا دائماً مبهورين بأضوائها الساطعة وتألقها المثير . ومن جملة الأبحاث المتعلقة بالموقف العربي من باريس وبالعلاقات الثقافية والفرنسية العربية :

- القاهرة : عاصمة أدبية ، لناديا توميش (باريس الثالثة) .
- باريس والكتّاب المغاربة ، لمحمد علوي عبد اللاوي (الرباط) .
- باريس المغاربة : إعادة تجمع وافتتاح ، لجاكلين أرنو (باريس الثالثة) .
- باريس - تونس في الأدب التونسي ، لطاهر بكر (باريس الثالثة) .
- الجزائر ، عاصمة أدبية من ١٩٤٠ - ١٩٤٥ ، لجان ديجو (باريس الثالثة) .
- دمشق ، عاصمة أدبية ، نهى الحكيم (باريس الرابعة) .
- باريس عاصمة الثقافة لدى بعض الكتاب العرب في بداءة القرن العشرين وفقاً لكتاب (باريس) ، لأحمد الصاوي ، عبد المجيد حنون (جامعة عنابة) .
- روحي الخالدي ، تأثير فرنسي مبكر في نشأة الأدب العربي المقارن ، د . حسام الخطيب (جامعة دمشق) .

---

(٣٥) إفريقي يعمل في اليونسكو .

وقد أثار البحثان الأخيران اهتماماً خاصاً ، لأن الأول لفت النظر إلى كتاب منسيّ يتعلق بموضوع باريس هو كتاب (باريس) لأحمد الصاوي محمد . وتعود أهمية هذا الكتاب الذي ظهر في القاهرة عام ١٩٣٣ إلى أنه جمع آراء عدد كبير من مثقفي عصره من عرب وغير عرب في موضوع باريس ، ويكاد يمثل تماماً رأي الطبقة المستنيرة (الأنتلجنسيا) المصرية في فترة العشرينات في باريس ومنهم طه حسين ومحمد لطفي جمعة ومحمد حسين هيكل وعبد الله حسين وولي الدين يكن وفكري أباظة وإدجار جلال ، ود . أحمد ضيف وخليل مطران ود . محجوب ثابت والنحات مختار ود . زكي مبارك ومحمود عزمي وغيرهم وغيرهم .

وقد ذكر المؤلف أنه حتى زمن تأليف كتابه كان يقدر عدد النعوت التي أطلقت على باريس بمئتي ألف نعت ... وأطرف ما ورد من وصف لباريس في رأي المؤلف هو وصف الأستاذ مصطفى عبد الرازق (صاحب كتاب أصول الحكم في الإسلام) لباريس ، ومنه هذا المقطع :

« باريس جنة فيها ماتشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين ، فيها للأرواح غذاء وللأبدان غذاء ، وفيها لكل داء في الحياة دواء ، فيها كل ما ينزع إليه ابن آدم من جدٍّ ولهو ، ونشوة وصحو ، ولذة وطرب ، وعلم وأدب ، وحرية في دائرة النظام لاتحدُّها حدود ، ولا تقيدها قيود . باريس عاصمة الدنيا ، ولو أن للآخرة عاصمة لكانت باريس » .

أما البحث الثاني فقد أظهر التأثير الفرنسي ، والباريسي بوجه خاص ، في نشأة الأدب العربي المقارن من خلال الكاتب المبدع روحي الخالدي الذي كان أول عربي في العصر الحديث يلقي محاضرة علمية في باريس (عام ١٨٩٧ في دار الجمعيات العلمية الفرنسية) والذي نشر كتابه (تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوغو) من عامي ١٩٠٢ - ١٩٠٣ منجماً في مجلة (**الهلال**) القاهرية ، ثم ظهرت مقالاته في شكل كتاب صدر عن دار الهلال عام ١٩٠٤ دون أن يحمل اسم مؤلفه ، بل استعيض عن الاسم بالإشارة إلى نسبته (المقدسي) ، وأعيد طبع الكتاب عام ١٩١٢ وحملت الطبعة الثانية اسم المؤلف . وكان هذا الكتاب أول كتاب عربي من نوعه في الأدب المقارن التطبيقي ، وقد أورد الباحث أدلة منهجية تثبت أن منحى كتاب الخالدي كان مقارنياً ، وأن موضوعه أيضاً كان متجاوباً ، ليس فقط مع نظرية المدرسة الفرنسية التقليدية في الأدب المقارن التي اعتمدت التأثر والتأثير (بالدنسبرغر ، بتز ، كاريه) ، ولكن أيضاً مع النظريات

الحديثة والأمريكية وغيرها التي لاتشترط التأثر والتأثير ، وإنما تضع المقارنة في جوها الإنساني الأوسع (إيتامبل، ألرخ ڤايشتاين ، رينيه ولك ، رماك وغيرهم)[٣٦] .

وعلى أية حال لم تكن القاعة المخصصة للأدب العربي غنية ولا متألقة ، وقد سيطر عليها باحثون فرنسيون أو مغاربة ممن يعملون في الجامعات الفرنسية ، وقد أتى من الجزائر باحث واحد وآخر من المغرب ، ومن جامعات المشرق قُدِّم بحث واحد من جامعة دمشق .

ومرةً أخرى ، تعكس هذه الصورة الحالة المتردية للبحث المقارني في منطقة من العالم عرفت دائماً بانفتاحها الفكري وتجاوبها مع التيارات العالمية ، وخدمت الإنسانية في الماضي ثقافياً ، واقتصادياً كذلك ، بما قدمته من قناة خصبة أمَّنت سبل الاتصال بين مشرق العالم ومغربه من جهة ، وقدّمت من جهة أخرى نتاجات مبدعة وضعت في خدمة المنطقة وفي خدمة الإنسانية جمعاء .

وإن الدرس المستفاد من حضور مثل هذه المؤتمرات هو بالدرجة الأولى تأكيد تواصل الثقافة الإنسانية وتشابكها وتفاعلها ، وبالدرجة الثانية تأكيد أهمية الدراسات المقارنية والدعوة إلى تنشيطها في جامعاتنا العربية وفي أوساطنا الثقافية .

وهكذا رأينا أن الثانينات شهدت تطورات متلاحقة في حقلَيْ الدراسات النظرية والتطبيقية في الأدب المقارن ، كما تعددت اللقاءات والندوات ، حتى ليبدو اليوم أن الأدب المقارن يحقق رسالته العلمية والإنسانية من خلال التلاقح المستمر بين أفكار المقارنين المتجاوزة لحدود الأقوام واللغات والثقافات .

ويعدُّ عقد الثمانينات أيضاً نقطة انعطاف في تاريخ الدراسات العربية المقارنة ، التي سنقف على تطوراتها في الفصل التالي .

---

(٣٦) يجد القارئ دراسة وافية عن روحي الخالدي في الباب الثالث من الكتاب الحالي .

الباب الثالث
نشأة
الأدب العربي المقارن

الفصل الأول :

بواكير تطبيقية وتطورات متلاحقة .

١ ـ بواكير مقارنية في عصر النهضة .

٢ ـ خطوات جديدة عند انثناءة القرن .

٣ ـ روحي الخالدي ، رائد البحث المقارن التطبيقي .

٤ ـ البحث المقارن التطبيقي بعد الخالدي .

الفصل الثاني :

من المحاولات التطبيقية إلى التلمس النظري .

١ ـ رافد الترجمة النظريّة .

٢ ـ الريادة النظرية : العنوان الأول والنص الأول ، **لخليل هنداوي .**



الفصل الأول :

بواكير تطبيقية وتطورات متلاحقة

١ ـ بواكير مقارنية في عصر النهضة

كلما أطال الإنسان النظر في حركة النهضة العربية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، ازداد إعجاباً بشمول هذه النهضة لمختلف مرافق الحياة وأبواب المعرفة من جهة ، وعمق روح المسؤولية القومية والحضارية لدى رجالاتها من جهة أخرى .

وإذا حصرنا الكلام بالنواحي الأدبية فقط نجد أن النهضة كانت تقوم على دعامتين متوازنتين هما الإحياء والاقتباس ، وحتى لدى أكثر المتغربين تطرفاً نجد حرصاً شديداً على البحث عن مستند تراثي وأصول عربية لكل ما يقتبسونه . وكان بعضهم كثير الانتقاد لبعض نواحي التراث العربي والتاريخ العربي ، ولكنهم في الوقت نفسه كانوا حريصين على إعلان (براءتهم) من خلال الدفاع عن نقاط كثيرة مضيئة في التاريخ العربي .

وقد بدأت النهضة العربية تكنولوجية وعلمية كما هو معلوم ، وأتت النهضة الأدبية ثانية سواء من ناحية الاهتمام أم من ناحية التسلسل الزمني . ومن المعروف أن رفاعة الطهطاوي ، أول مترجم وأول رائد للنهضة الأدبية ، ذهب إلى فرنسا مرافقاً للبعثات العلمية وواعظاً دينياً ، ولم يكن ليخطر لمرسليه في بادئ الأمر أن لدى الغرب ما يعطيه في الحقل الثقافي الأدبي ، إذ كانت النظرة الاعتدادية القديمة مستمرة بشأن اللغة العربية والأدب العربي .

ويُعدُّ كتابه (تلخيص الإبريز في تلخيص باريز)[٣٧] اللبنة الأولى في فكرة المقارنة بين الشرق والغرب التي أصبحت فيما بعد أساساً لسلسلة من الأعمال الإبداعية والجدالية . وكانت اللبنة الثانية من حيث الأهمية مطولة (علم الدين) لعلي مبارك[٣٨] ، التي حملت محاولة قوية لتحديد

(٣٧) طبع في بولاق سنة ١٢٥٠ هـ ، في دار الطباعة الخديوية .

(٣٨) طبعت في مطبعة الجريدة المحروسة في الإسكندرية عام ١٢٢٩ هـ(١٨٨٢م) .

الموقف من (الآخر) ، وبذلك كانت أقرب إلى الحس المقارني منها إلى المنحى الروائي الـذي يُلصق بها عند مؤرخي الرواية العربية في مصر .

على أي حـال ثبت لنخبـة المثقفين بسرعـة أن الإحيـاء يجب أن يتنـاول الشـؤون الثقـافيـة واللغوية والأدبية بالإضافة إلى الشؤون العلميـة والتطبيقيـة . وكان لحركـة التطوير الفني والثقـافي والأدبي التي قادهـا الخـديوي إسماعيل في منتصف القرن التـاسع عشر في مصر فضل في إعطـاء هـذه القناعة بعداً رسمياً رفع عنها كثيراً من التخوف والتوجس والتردد ، ودفعها خطوات إلى الأمـام ، كما كان للميول الأدبيـة لرواد النهضـة في الشـام أثر كبير في اهتمام عرب القرن التـاسع عشر بـالتفـاعـل الأدبي مـع الغرب بـالإضـافـة إلى أشكال التفـاعـل الفكري والعلمي والاجتماعي . وهكـذا لمعت إلى جانب رفاعة الطهطـاوي وعلي مبـارك والشيخ حسين المرصفي أسماء شـاميـة ، مثل أديب إسحـاق وأحمد فارس الشدياق في الموجة الأولى من الإقبال على التفاعل الثقافي مع الغرب الذي كان هـدفـه الثورة على حالة التخلف والركود التي سيطرت على المشهد الأدبي في ذلك الحين .

لقد كان الاتصال الثقافي مع الغرب هو الخيار الوحيد المتاح في ذلك الحين لاختصار خطوات النهضة ، وفي هذه المرحلة الأولى من الاتصال غرست البذور الأولى لفكرة المقارنة وبـالتـالي للأدب المقارن العربي فيما بعد .

ومن يتـأمل مواقف رواد النهضـة الأوائل ، يلاحـظ أن فكرة (المقـارنـة) كانت راسخـة في أصل موقفهم ، وكانت المقارنة بين الحاضر الأدبي الهزيل ، والازدهار العظيم للثقافة العربية تـدفعهم باستمرار إلى التوسل بمستندات عربية تاريخية لآرائهم بوجه خـاص ، وللآراء التي يقتبسونها بوجـه عام .

(**أديب إسحاق**) : وإذا أخذنا مثالاً لذلـك رائـداً من أبرز رواد النهضـة الأدبيـة العربيـة ، وهو **أديب إسحاق** (١٨٥٦ ـ ١٨٨٥) ، نجد أنه يحاول دائماً أن يستعين بآراء الأدباء العرب القـدامى في كل ما يعرض له في مسائل أدبية ، وهو في ذلك اقتطافي انتقـائي يختـار من ينـاسب موقفـه من الأدباء وما ينـاسب موقفـه من الآراء . فمثلاً من المسـائل الأولى التي واجهت رواد النهضـة مسـألـة السجع والزينة البديعية التي كانت مسيطرة على الكتابة العربية . إن أديب إسحـاق يتصـدى لهـذا الموضوع ، ويحـاول أن يستنـد إلى آراء ابن خلـدون بهـذا الصـدد ، وهي آراء لا تطـابق بـالضرورة موقفه المتأثر بالكتابة الأوربية المرسلـة ، ولكنـه مع ذلـك يتمسـك بـآراء ابن خلـدون ويحـاول أن

يستفيد منها على قدر المستطاع بطريقته الخاصة ، ولذلك يقبل الحد الطبيعي من السجع والزينة في الكتابة ويعيد التصنع في السجع إلى استيلاء العجمة على الألسن وضعف الابتكار ، مما يطابق آراء ابن خلدون .

وكان من المنتظر في المرحلة المبكرة التي تصدّى فيها أديب إسحاق لمسألة السجع في الكتابة العربية أن يقف موقفاً حاداً منه ، لأن السجع غدا في ذلك الحين ألهية للكاتب ، وغرضاً لذاته ، وطبقة من الزينة المتكلفة المبتذلة كثيراً ما تؤدّي إلى حجب المعنى والمضمون ، ولكن التأثر بابن خلدون جعله يتبنى ذلك الموقف المعتدل . على أن أديب إسحاق لم ينسَ أن يؤكد أن العبقرية فوق كل قانون وقاعدة ، وهو شيء جديد تماماً في عهده :

« أما الكتابة العالية البالغة حدّ العالمية فلا تقف عند حدّ ولا يحصرها شرط ، فإنها في العلم الذي يعرف أوله ولا يعرف آخره ، وليست في شيء مما نحن بصدده » .

وكذلك حين تعرض أديب إسحاق لمحاولة فهم الأسلوب وعلاقته بالكاتب تأثر تأثراً واضحاً بآراء النقاد الفرنسيين التي كانت شائعة في عصره كآراء بيفون Buffon وغوستاف لا روميه Custave Larroumet وغيرهم ممن كانوا يؤكدون أن « الأسلوب هو الرجل » وأنه « شخصي كلون العين ونبرة الصوت » . ولكنه في الوقت نفسه أكد تأكيداً واضحاً ما كان يؤكده الأدباء العرب القدامى من أن المعاني متداولة مبذولة ، وأن الشأن كل الشأن في حسن التأتي للموضوع ، وفي جمال سبكه ، أي الأولوية للصياغة ، وها هو يؤكد على هذه الفكرة بوضوح :

« على أن الأشياء التي تقال تؤثر أقل من كيفية أدائها ، لأن جميع الناس يتقاربون في الأفكار التي هي بمدرك كل إنسان ، والفرق في كيفية التعبير ، فإنها تجعل الأشياء المعتادة غريبة ، وتقوي الضعيفة ، وتجسم البسيط ، وبلا حسن في الأسلوب لا يمكن أن يوجد كتاب في أي موضوع »[٣٩] .

(الشدياق) : ومع أديب إسحاق يمكن أن يذكر أيضاً أديب الشام **أحمد فارس الشدياق** (١٨٠٤ ـ ١٨٨٧ م) الذي اتصل مبكراً بالشعر الأوربي ، ووازن بينه وبين شعر العرب ، وبدأ

---

(٣٩) من أجل التفصيل يمكن الرجوع إلى :

عبد الحي دياب : **التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد** ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٨ ، ص ص ١٧ ـ ٢٢

بالمديح فاكتشف أن المقدمة الغزلية للمديح مضحكة ، ولا شأن بها بالموضوع ، وعلق على هذا الأسلوب بقوله :

« وهو في الحقيقة أسلوب غريب للعرب » .

ولكنه يذكر مآخذ أخرى للغربيين على شعر المديح العربي منها المبالغة في الإشادة بمآثر الممدوح وشجاعته ، ومنها التركيز على كرمه والتأكيد أن عطاياه « تصل إلى حد البعيد فضلاً عن القريب ، فهم إذا مدحوا ملوكهم ، فإنما يمدحونهم للناس ، لا لأن يصل مدحهم إليهم » .

على أن الشدياق يعود فيلاحظ التفوق العددي ، والنوعي لشعر المديح العربي على شعر المديح الأوربي ويؤكد أنه « لا مناسبة بين الشعر العربي وشعرهم » ، ويعزو ذلك بالدرجة الأولى إلى ما كان يقدمه الملوك من عطايا للشعراء تفتح قرائحهم وتشجعهم ، في حين أن ملوك الفرنجة لا يُجيزون الشعر ، ولا يكافئونه ، بل إنهم يأنفون من أن يمدحهم شاعر يريد نوالهم[٤٠] .

وهكذا كان أديب إسحاق وأحمد فارس الشدياق الفارسين المبكرين في مجال بدء التقرب من الأدب الغربي ، وبدء محاولة الموازنة بين الأدبين العربي والغربي . وربما يستنتج المرء من موقفيهما المتشابهين أنه لم يكن من خيار أمام المتصلين الأوائل بالثقافة الغربية سوى محاولة الموازنة أو المقارنة أو المفاضلة ، ولكن الأمر ظل حتى نهاية القرن التاسع عشر في حدود مبدئية جداً .

(البستاني)

ولكن لم يمض بعد ذلك عقد واحد من السنين حتى كان الجو الثقافي الاجتماعي ، قد تهيأ بشكل مدهش لظهور أول محاولة جادة متخصصة في الأدب العربي الحديث للاتصال بالآداب الأوربية ، وتلك هي مأثرة سليمان البستاني في تعريب الإلياذة التي استغرقت منه ثماني سنوات (١٨٨٧ ـ ١٨٩٥) ، ثم ما تلا ذلك من عملية شرحها ، والتعليق عليها ، والموازنة بين بعض مواقفها وبين الشعر العربي ، مما كلّفه من عمره ثماني سنوات أخرى ، إذ انتهى من شروح الإلياذة وحواشيها سنة ١٩٠٢ ، وأنجز كتابة المقدمات التي بلغت مئتي صفحة في أواخر سنة ١٩٠٣

وفي المقدمة يقارن البستاني بين الملحمة اليونانية والشعر العربي القصصي بالتفصيل ، ويقرر عدم وجود ملحمة عربية ، ولا سيما فيما يتعلق بوقائع حرب البسوس التي قد توحي بأنها باكورة

(٤٠) راجع المصدر نفسه ص ص ٢٣ ـ ٢٦

الملحمة ، والتي نفى عنها البستاني ذلك بوضوح من خلال حجج فنية أهمها مالاحظه من تعدد الأصوات العربية في قصة حرب البسوس ، ومن وحدة الصوت في الإلياذة .

ومع ذلك فإن البستاني يلاحظ أن العرب نظموا الملاحم على طريقتهم الخاصة ، وهو لا يكتفي بالإشارة ، بل يدخل عمقاً في تحليل ماسماه (الملاحم العربية القصيرة) ويبين أوجه التلاقي بينها وبين ملاحم الإفرنج وأوجه الاختلاف في وضوح ذهني رائع :

« فلا سبيل إذن للزعم بوجود ملاحم لعرب الجاهلية على نحو ما يراد منها بعرف الإفرنج . ولكن للجاهليين نوعاً آخر من الشعر القصصي مما يعزُّ وجوده في سائر اللغات ، وذلك في الملاحم القصيرة المقولة في حوادث مخصوصة . فجميع شعراء الجاهلية ، وبعض المخضرمين ، قد سلكوا هذا المسلك وأجادوا فيه . ولو تصفحت كتاب (الأغاني) و (مفضليات الضبي) وأمثالها من كتب الأدب والشعر لرأيتها ملأى بهذه المنظومات الغراء ... » .

ومن خلال المقارنة المفصلة بين الملاحم العربية القصيرة وبين الملاحم الإفرنجية المطولة يلاحظ البستاني أن الملاحم العربية جمعت الحسنيين ، أي حسنى الشعر الغنائي المتوثب ، وحسنى الشعر القصصي المتماوج بالأحداث :

« فأنت ترى فيهن من سرد الحوادث وتفصيل الوقائع وتمثيل المشاهد وبداهة الفكر ما يعدُّ في أعلى طبقات القصص ، وفيهن أيضاً من بديع التصور والسذاجة وحسن التصرف البديهي ، وإجادة الرصف وإبداع الوصف وإحكام التشبيه ، ما يسمو بهن إلى أرفع درجات الشعر الموسيقي . فهنَّ بهذا المعنى قد جمعن بين محاسن الطريقتين في الشعر العربي ، كما جمعت إلياذة هوميروس بين أطراف المحاسن في الشعر اليوناني » .

ويمضي البستاني في المقارنة قدماً ، وينطلق في ذلك من أفق واسع يساعده على تجاوز الجزئيات والانطلاق من النظرات العامة ، وهكذا ينتقل من مقارنة الملحمة اليونانية بالشعر القصصي العربي إلى أحكام مقارنية شاملة تتعلق بالشعر الجاهلي والشعر اليوناني القديم ويكون حكمه لصالح الشعر الجاهلي :

« ومزيته البساطة والبداهة واقتفاء الفطرة وتمثيل الحقيقة في رسم الطبيعة ، فهو في جميع ذلك أعلى طبيعةً من شعر المتأخرين من العرب ، ولا يفوته شيء من شعر المتقدمين من سائر الأمم حتى اليونان والرومان » .

ومن الشعر الجاهلي ينتقل إلى الشعر العربي في عصوره الزاهية ويشيد به ، ثم يكتشف اكتشافاً مهماً ، وهو التشابه بين عبقرية ابن الرومي وعبقرية هوميروس ، ويدفعه ذلك إلى اختيار قصيدة ابن الرومي المطولة المسماة (حديقة الشعر) ، ويبين مراحل التدفق النفسي في هذه القصيدة ابتداء من وصف الزهرية في الاستهلال :

أجنت لك الوجدَ أغصان وكثبان ... فيهن نوعان تفاح ورمان
وفوق ذلك أعناب مهدلة ... سود لهن من الظلماء ألوان
وتحت هاتيك عناب تلوح به ... أطرافهن قلوب القوم قنوان

وانتقالاً بعد ذلك إلى المقطع الغزلي الذي يستهله بالبيت اللطيف :

غصون بانٍ عليها الدهر فاكهة ... وما الفواكه مما يحمل البان

ويستمر على هذا النحو متابعاً ابن الرومي في انتقاله إلى الحكمة فالمدح فالعتاب فطلب النوال ، ويشيد بالخاتمة أيما إشادة .

ويبدو من كلام البستاني أنه كان مفتوناً بوجه خاص بما حقَّقته القصيدة من تسلسل نفسي وترابط ، صاحبها تشويق شديد ، على الرغم من تعدد الأغراض الفنية للمقاطع ، وهذا التسلسل ذكّره بهوميروس ومقدرته على الجمع بين مشاهد القتال والخطابة والجدال والحسن في تسلسل رائع . وفيما يلي تعليقه المقارن على القصيدة :

« وهكذا فإنه يظل يرتقي بك درجة بعد أخرى ، وهو يهيجك طرباً حيثما وقف بك ، ويحوم حول مطلبه حتى يلجئك إلى استتمام سماعه ، فلا تشعر إلا وقد أتيت على قصيدته برمتها ، وأنت مشغوف بطلاوتها ، فقلت هلاّ زادني منها رحمه الله . وهذا المنزع بعينه هو منزع هوميروس في إلياذته ، ولو لم تكن حديقة ابن الرومي خلية من أخبار الشعر القصصي ، لقلت هي شطر من تلك الملحمة التي خلب بها هوميروس عقول رواته وقرائه .

وكأني بابن الرومي ، وفيه لمحة من كنيته (التي كان يعبر بها في زمانه إلى جرثومة في أصله أو عرفانه ، كانت تحمله على تحدي هوميروس في كثير من أساليبه ومعانيه وتشبيهاته ...) .

ولكن البستاني لا يظهر الحماسة نفسها للشعر العربي في عصره ، ويلاحظ ما فيه من انحطاط وخواء وتكلف وانسياق وراء أشكال البديع واللفظيات ، إلا أنه يعتبر ذلك مرحلة مؤقتة ويعلن

استبشاره الشديد بالنهضة العربية الشاملة ، وببواكير التجارب الشعرية التي تحمل مؤشرات إيجابية لما سوف تحققه النهضة العربية :

« لم يبق للشعر بعد تلك الرقدة الطويلة إلا أن يهب هبة جديدة بطور جديد وروح حية ، وفي الأمة والحمد لله بقية متأهبة لولوج ذلك الباب الرحب ، وهي شاعرة منذ نصف قرن بوجوب مجاراة الزمان ، وعالمة أن التصدي لمصادمة تيار الترقي غرور عاقبته الزيغ والخذلان ، ولهذا شرع النوابغ من أبناء هذا العصر في تعديل الخطة فكانت لهم اليد البيضاء ، وأسفر جهدهم عن إبراز الشعر الرقيق بالثوب الأنيق ، وما هو إلا قبس فاض من غرّة هلالٍ سيتكامل بفضلهم بدراً إن شاء الله » .

ويحاول البستاني في مقدمة الإلياذة أن يعقد فصولاً نقدية شبه متخصصة لمعالجة المسائل البلاغية والعروضية ، مما لا يعني البحث الحالي إلا من زاوية إطلالاته البسيطة على بعض ما عند الأوربيين من مفهومات شعرية ؛ ومن خلال هذه الإطلالات يبدو لنا أن ثقافة البستاني الأصلية ظلت عربية تقليدية ، وأن ماقرأه من أفكار أدبية غربية يشكل نوافذ صغيرة للمقارنة لا أكثر ، ولا سيما في المسائل النقدية العويصة . ومع ذلك فإنه يحق للمرء أن يعجب بهذه العبقرية المبكرة ، وبروح المسؤولية التي كانت تحركها ، كما أنه إنصافاً للبستاني لابد من الإشارة إلى أن النقاد العرب التقليديين الذين تصدّوْا للمسائل نفسها التي تصدّى لها ، لم يستطيعوا من خلال أحادية المنهج الذي اتبعوه أن يخرجوا بنتائج تعتبر تجاوزاً نوعياً للنتائج التي خرج بها ، وذلك حتى نهاية النصف الأول من القرن العشرين على الأقل .

وإذا حصرنا الكلام بريادة البستاني في مجال الاتصال بالثقافة الأجنبية ، لابد أن نضيف إلى ماسبق أن بحثه الذي كتبه في دائرة المعارف حول الشعر ، حوى شيئاً من تاريخ الشعر عند العرب والإفرنج ، أي أساساً مبدئياً للانطلاق إلى الدراسات المقارنية . ثم إنه في جميع مقارناته اكتفى بالإشارة إلى أوجه التشابه بين الشعرَيْن العربي واليوناني ، وحاول إرجاع هذه المشابه إلى تشابه مراحل التطور لدى المجتمعين ، ولكنه لم يوح أبداً بوجود أي تبادل أو تأثر أو تأثير بينهما ، وبذلك وفَّر على نفسه الدخول في أحكام متعسفة لم ينجُ منها بعض من أتى بعده من الباحثين الأدبيين[٤١] .

---

(٤١) اعتمد بحث البستاني على المراجع التالية :

سليمان البستاني : الإلياذة ، مطبعة دار الهلال بمصر ، سنة ١٩٠٤ =

(أحمد شوقي) :

في مجال البحث في الأدب المقارن يتحدث الدارسون كثيراً عن الأدباء الذين صنعوا الاتصال والتأثر والتأثير ، ولكنهم لا يدخلونهم في مجال الباحثين لأنهم مادة الدراسة أصلاً ، ولكن في مجال رواد مثل الشاعر أحمد شوقي ربما يختلف الأمر بعض الشيء . فها نحن إزاء عبقرية متفتحة الأفق تفعل كل ماتفعله للنهوض بالأدب العربي من خلال وعي كامل بمسؤولية التطوير والإحياء . ومن يراجع بداءات أحمد شوقي في أثناء دراسته في فرنسا يعرف إلى أي حد كان هذا الشاعر محط تحامل وظلم من خلال احتداد معارك التقليد والتجديد ، ومن خلال الحملة التي شنّها عليه عباس محمود العقاد وظلت بصماتها لاصقة بالتاريخ الأدبي وبالتقدير العام للشاعر .

وعلى أية حال ، ومن زاوية البحث المقارني الخالص ، يسوِّغ الدارس لنفسه أن يقف بعض الشيء عند أحمد شوقي في مقدمة الجزء الأول من الشوقيات الذي طبع عام ١٨٩٨ ليجد أن الفاعلية الواعية للتجديد من خلال الاقتباس والتأثر والانتفاع بما عند الآخر ، كانت متبلورة في ذهن الشاعر ، ولا سيا بعد أن أدرك بسهولة عقم المرحلة الأدبية التي كان يعيشها الوطن آنذاك .

« ... فأجيب أني قرعت أبواب الشعر وأنا لاأعلم من حقيقته ماأعلم اليوم ، ولا أجد أمامي غير دواوين للموتى ، لامظهر للشعر فيها ، وقصائد للأحياء يحذون فيها حذو القدماء ، والقوم في مصر لا يعرفون من الشعر إلا ما كان مدحاً في مقام عالٍ ، ولا يرون غير شاعر الخديوي صاحب المقام الأسمى في البلاد ... » .

« ... ثم طلبت العلم في أوربة فوجدت فيها نور السبيل من أول يوم ، وعلمت أني مسؤول عن تلك الهبة التي يؤتيها الله ، ولا يؤتيها سواه ، وإني لاأؤدي شكرها حتى أشاطر الناس خيراتها التي لاتُحد ولا تنفذ ... » .

ويتحدث شوقي بعد ذلك عن القصائد التي جعل يرسلها للخديوي « مملوءة من جديد المعاني وحديث الأساليب » ، وما كان من أمر قصيدته المجددة ومطلعها :

= د . هاشم ياغي : النقد الأدبي الحديث في لبنان ١ ، الحركة النقدية حتى نهاية الحرب الأولى ، دار المعارف بمصر ، ١٩٦٨ ، ص‌ص ٢٧١ ـ ٣٠٨

عبد الحي دياب : التراث النقدي ، ص‌ص ١٠٤ ـ ١٠٧

خــدعــوهـــا بقــولهم حسنـــاء والغـــواني يغرُّهن الثنـــاء

ذلك أن هذه القصيدة لم تجد طريقها إلى النشر في الجريدة الرسمية بسبب ما فيها من جديد المعاني ، وعلى الرغم من إعجاب محرر الجريدة الشيخ عبد الكريم سلمان بها .

ويعنينا من كل هذه القصص التي تتعلق بمحاولات شوقي التجديدية عمق وعيه لطبيعة المرحلة ، ذلك أنه أدرك أن التجديد ، لكي يشق طريقه ، يجب أن يكون متدرجاً حذراً . يقول معلقاً على عدم نشر القصيدة المذكورة :

« ... فلما بلغني الخبر لم يزدني علماً بأن احتراسي من المفاجأة بالشعر الجديد دفعة واحدة إنما كان في محله ، وأن الزلل معي إذا أنا استعجلت » .

ولا يعنينا هنا أن نحلل المقصود بكلمة الزلل ، هل هو الزلل من خلال مصلحة قضية التجديد نفسها ، أم مصلحة الشاعر ومكانته ؟ على أن الشاعر يمضي ببيان نواحي التجديد التي طمح إلى تحقيقها في مطلع شبابه فإذا هي :

١ ـ تجديد المعاني والأساليب في الشعر .

٢ ـ إدخال الشعر المسرحي في الشعر العربي ، ومن هنا كان نظمه المبكر لمسرحية (علي بك الكبير) .

٣ ـ نظم الشعر للأطفال ، وقد جربه الشاعر عن طريق محاكاة أسلوب (لافونتين) الفرنسي ، وكان يعرف ما يريده تماماً :

« وأتمنى لو وفقني الله لأجعل للأطفال المصريين مثلما جعل الشعراء للأطفال في البلاد المتمدنة منظومات قريبة المتناول يأخذون الحكمة والأدب من خلالها على قدر عقولهم » .

٤ ـ الإسهام في تطوير الذوق الأدبي عند الجمهور ، ربما لكي يتهيّأ لتقبل أشكال التجديد ، ومن هنا حرص شوقي على تقديم ترجمة لقصيدة (البحيرة) للشاعر الفرنسي لامارتين ليطلع القراء على « شعر الطبيعة الحق » ، ويذكر شوقي أنه أرسل هذه القصيدة من فرنسا إلى مصر وضاعت[٤٢] .

---

(٤٢) لاقت (بحيرة) لامارتين من الاهتمام العربي في أوائل القرن العشرين مالم تنله قصيدة أخرى في شعر الطبيعة العربي .

ومرة أخرى نشير إلى أننا استعرنا شوقي من موكب (المدروسين) إلى موكب (الدارسين) لأن محاولته التجديدية تفيد في تحديد مرحلة الاتصال بالآداب الغربية التي كان الأدب العربي قد وصل إليها عند نهاية القرن التاسع عشر تماماً[٤٢] .

٢ ـ خطوات جديدة للاتصال عند انشناءة القرن

ما إن بلغ القرن التاسع عشر تمامه ، وبدأت تنبثق منه الأيام الأولى من القرن العشرين ، حتى رأينا تزايداً واضحاً في الإقبال على المقارنات والموازنات بين الأدب العربي وآداب الفرنجة ، كأنما روح المقارنة قد بدأت تنضج ، وكانت الرغبة تفوق المعرفة بكثير ، أي أن الاستعداد النفسي للمقارنة والاتصال والاقتباس كان أقوى مما يلزمه من معرفة حقيقية بأدب الطرف الآخر وثقافته ، نجد ذلك واضحاً عند عدد من الكتاب السوريين مثل : خليل ثابت ، وأسعد داغر ، ونقولا فياض ، وأمين الحداد ، ويعقوب صروف . وأبرزهم في المجال المقارني نجيب الحداد ، الذي حاول المقارنة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي بالجملة وانتهى إلى تفضيل الشعر العربي من خلال مواقف عامة تفتقر إلى الأدوات المعرفية اللازمة .

وكانت مجلة (**المقتطف**) في ذلك الحين هي اللسان الناطق باسم الوعي الفكري للتفتح ، على أنه مع ازدياد الاستعداد النفسي لتقبل المؤثرات الأدبية ، ازداد بالمقابل حرص التيار التقليدي على اتخاذ الاحتياطات لمقاومة نزعة التجديد وعلى تأكيد التفاخر بالتراث وغنى الأدب العربي . ويروي الدكتور هاشم ياغي قصة مساجلات ذات أهمية دارت في الشهور الأولى من القرن العشرين حول موضوع حساس جداً بالنسبة للذوق الأدبي العربي وهو (بلاغة العرب والإفرنج) .

---

(٤٢) ينسب دياب الاقتباسات السابقة إلى :
أحمد شوقي : **الشوقيات** ، جـ١ ، المقدمة ولا سيما ص ٦ ـ ٧ ، انظر :
دياب : **التراث النقدي** ، ص ٩٣ ـ ٩٦ . والملاحظ أن المقدمة المشار إليها غير موجودة في طبعة (الشوقيات) لعام ١٩٥٨ (مكتبة الاستقامة بمصر) .
وبالمناسبة يذكر روحي الخالدي في كتابه (**تاريخ علم الأدب**) ترجمة سابقة لترجمة أحمد شوقي ، ولكن إلى اللغة العثمانية من صنع سعد الله باشا ، سفير الدولة العلية في فرنسا ، ثم يشير إلى أن أحمد شوقي ترجم (البحيرة) أيضاً .
روحي الخالدي : **تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو** ، دار الهلال ، القاهرة ، ١٩١٢ ط٢ ، ص ٢٢٥

إذ ظهر في (**المقتطف**) مقال بهذا العنوان كتبه أحمد أفندي كامل ، وحمل فيه على ذوق الإفرنج ورجَّح بلاغة العرب . وتصدّى له كل من خليل ثابت ونقولا فياض ليصححا له جهله الفاضح وضحالة تفكيره . وقد أثار خليل ثابت نقاطاً عديدة في ردّه أهمها :

أ ـ التفريق بين الذوق العربي والذوق الفرنجي ضروري لاختلاف اللغة العربية عن اللغات الآرية من جهة ، ولاختلاف المجتمَعَيْن والتاريخَيْن من جهة أخرى .

ب ـ اختلاف الذوق أمر طبيعي « بحيث صار ما يعدُّ بليغاً عند العرب ، لا يُحسب كذلك عند الإفرنج والعكس بالعكس أحياناً » .

جـ ـ علاج ذلك ليس التنافس بل تربية الذوق وتهذيبه للتذوق المتبادل بين العربية وبين اللغات الآرية ، وهذا ممكن ، فالمستشرقون يتذوقون العربية ، والعرب الذين درسوا الآريات يتذوقونها .

د ـ اختلاف اللغات والأذواق أدخل الضيم على الترجمات الأدبية ولا سيا الشعر إذ : « نقصت بهجة الأشعار الإفرنجية لدى تعريبها ، وذبلت نضرة الأشعار العربية لدى نقلها إلى لغات الإفرنج » .

ويشير خليل ثابت بوجه خاص إلى صعوبة ترجمة الشعر الذي يرجع إلى الخيال والتصوير .

هـ ـ الترجمة الدقيقة خير من الترجمة المتصرفة .

و ـ الأسلوب الحرّ الخالي من السجع والتكلف هو أسلوب العصر الذي يجب أن يؤخذ به .

ويحتفظ خليل ثابت بالخط نفسه الذي حرص معظم مجددي تلك المرحلة على الاحتفاظ به فيا يتعلق بالاتصال بأدب الغرب ، وفي مقدمتهم الدكتور نقولا فياض والأستاذ أسعد داغر . وهذا الخط يقوم على العناصر التالية :

١ ـ احترام ذوق الإفرنجة والاتصال بآدابهم لا يعنيان بالضرورة ازدراءً للأدب العربي القديم أو نيلاً منه : « ولنا نحن العرب من كنوز البلاغة ما يعترف بفضله الإفرنج أنفسهم ، وإنما أبى بعض شباننا والمتأدبين منا إلا أن يرذلوا هذه اللغة وينقطعوا إلى اللغات الأجنبية ، زعماً منهم أن اللغة العربية خلو من المحاسن الشعرية وليس فيها من المعاني ما يصح الوقوف عليه ... » .

٢ ـ الدفاع عن الذوق العربي يجب ألا يمنعنا من ملاحظة النزعة التقليدية التي سيطرت على الشعر العربي القديم ، إذ ظل الشعر مأخوذاً بإبداع الجاهلية ، ولم يخالفه إلا بما قصّر عنه من جزالة اللفظ وحسن التركيب وعفو الخاطر ، وبذلك أتى الشعر العربي رتيباً محدوداً :

« أفلا يحسب الشعر العربي محدوداً ، ولا أثر فيه للروايات التمثيلية ولا للقصائد التاريخية ولا للأقاصيص الحقيقية أو الخيالية ، ولا ـ ولا ، والشعر الأجنبي كاليوناني والإيطالي والإنكليزي والفرنسي والألماني ، يشتمل على المديح والهجاء والرثاء والفخر والغزل والحماسة إلى آخر ما نلقاه في الشعر العربي ، ويفضله بما يزيد عليه مما تقدم من الأبواب » .

٣ ـ الموقف الطبيعي من ذوق الفرنجة هو الموقف الوسط ، أي احترام التراث العربي والتزود منه ، وفي الوقت نفسه الإقبال على الآداب الأجنبية والنهل منها دون ذوبان فيها :

« وخير الأمور أن يجمع المرء بين ما لذَّ وطاب من مقول الفريقين ، ولا ينقطع لواحد منها » .

٤ ـ احترام القديم لا يعني احترام مقلِّديه ، ولا سيما مقلديه من أبناء العصر الذين صرفوا همهم إلى التكلف اللغوي واللفظية الفارغة على حساب الفكرة العميقة والرؤية السليمة . وقد أظهر كل من خليل ثابت ونقولا فياض جرأة في مهاجمة السيد البكري مثلاً ـ وهو من الكتاب التقليديين الذين كان لهم شأن كبير عند انشاءة القرن العشرين ، وفضّلا عليه فيكتور هيغو ولا سيما من خلال مقارنة قصيدة لهذا الشاعر الفرنسي في نابليون الثاني وصف فيها ميلاد الإمبراطور العظيم (ترجمها إلى العربية نجيب الحداد) ، ورسالة تهنئة بمولود كتبها السيد البكري وانتصر لها أحمد أفندي كامل في مقاله المشار إليه سابقاً .

٥ ـ الخروج بالأدب العربي عن العزلة والحصار والتعلق بنمط واحد وافتتاح مرحلة الاتصال بالآداب الأجنبية للتزود منها في معركة إغناء الأدب العربي وتطويره . ويمكن اعتبار السنوات القليلة الأولى من القرن العشرين ، هي الفترة التي تبلورت فيها هذه الآراء ، واتخذت شكل اتجاه واضح ، وذلك بعد أن استهلّ المعركة سليمان البستاني في الربع الأخير من القرن التاسع عشر .

٦ ـ العمل في الوقت نفسه على الانتصاف للأدب العربي القديم ، والدفاع عن كنوزه المهملة ، ومحاولة الوصول ببعضها إلى مصافّ الآداب العالمية الكبرى ، وقد نال المعري من الاهتمام

في هذه الناحية مالم ينله شاعر آخر . ولم يقتصر الاهتمام على (**رسالة الغفران**) التي سيستمر الاهتمام بها فيما بعد حتى ثمانينات القرن العشرين على الأقل ، ولكن الاهتمام شمل جوانب أخرى من كتابات المعري وأشعاره ، ولو توقفنا عند السنة الأولى من القرن العشرين ، وهي السنة التي نهضت براية التحول عالياً ، لرأينا أن يعقوب صروف مثلاً ينتقد في (**المقتطف**) (بتاريخ ١٩٠٠/١١/١) اهتمام الأوربيين ، بعمر الخيام وإهمالهم للمعري ويؤكد بوضوح أنه :

« ولم يكن عمر الخيام إلا تابعاً لأبي العلاء المعري مقتبساً منه أو ناسجاً على منواله ، ومع ذلك لم يقدم أحد على ترجمة أشعار المعري إلى اللغات الأوربية إلى الآن » ، ثم يشير إلى إقدام أمين الريحاني على ترجمة مختارات من أشعار المعري على شكل رباعيات ، ويناقش هذه الترجمة ، ويلاحظ مقدار التصرف فيها ، وزيادة الريحاني في الشرح والتفصيل بما لم يكن موجوداً في الأصل ، ويختم صروف كلامه بشهادة فائقة لصالح الريحاني :

« هذا وقد أجاد الناظم غاية الإجادة في النظم ، وسبك المعاني في قوالب إنكليزية فصيحة كأحسن الشعر عذوبة وبلاغة »[٤٤] .

ولو رجعنا إلى الريحاني نفسه لوجدناه يعنى في مقدمة رباعياته المترجمة عن شعر أبي العلاء بتأكيد قضية التأثر والتأثير بين المعري والخيام ، ويتناول الموضوع بعقلية متزنة كأنما هي بذرة للعقلية المقارنية الحديثة :

« على أن الذي يقابل شعر عمر الخيام بما ترجمته هنا ، يرى أن شكوكه وظنونه مقتبسة من أبي العلاء . فأبو العلاء فيلسوف شعراء العرب ، جاهر بآرائه الدينية مجاهرة قصّر دونها الشاعر الفارسي . ولست أقول : إن عمر الخيام انتحل معاني أبي العلاء ، بل أقول : إنه استعارها منه ، كما استعار ڤولتير معظم آرائه الحرة وشكوكه في الدين من هوبس ولوك وبابل »[٤٥] .

---

(٤٤) انظر العرض المفصل لهذا المقال في :
ياغي : النقد الأدبي في لبنان ، جـ١ ، ص ٢١١

(٤٥) المصدر السابق ، ص ٣٢١

٣ ـ روحي الخالدي ، رائد البحث المقارن التطبيقي

يمكن اعتبار كل الجهود السابقة مجرد بواكير ، وتمهيدات مبدئية لظهور العمل الأول الذي يستحق أن يعتبر الرائد الأول للأدب العربي المقارن ، وهو كتاب روحي الخالدي . مع التأكيد أن الأدب العربي منذ مطلع القرن العشرين بدأ يتطلع إلى التفاعل مع الآداب الأخرى وأن الأعمال السابقة ، ولا سيا أعمال سليمان البستاني ، تظل لها مكانتها الرائدة في حقول أخرى من المعرفة الأدبية مثل النقد الأدبي ونظرية الأدب .

وقد حمل كتاب روحي الخالدي التسمية المفصلة التالية : « **تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو** » .

وبعد هذه التسمية يرد تصدير للكتاب على الغلاف يشرح المقصود منه على الوجه التالي :

« وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية في علم الأدب عند الإفرنج ، وما يقابله من ذلك عند العرب إبان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى ، وما اقتبسه الإفرنج عنهم من الأدب والشعر في نهضتهم الأخيرة ، وخصوصاً على يد فيكتور هوكو . ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته ومنظوماته وغير ذلك » .

وتوحي التسمية وكلمة التصدير أننا إزاء عمل مباشر من أعمال التأليف في الأدب المقارن . وسنجد فيما بعد أن الكتاب نفسه لم يكن مخيباً للآمال . على أنه من المفضل قبل ذلك أن نتعرف على الكتاب والكاتب :

مؤلف الكتاب هو روحي بن ياسين الخالدي ، ولد في القدس عام ١٨٦٤ ، وكانت دراسته الأولية مضطربة إذ تنقل بين المدارس البسيطة التي كانت متناثرة في عصره بين القدس ونابلس وطرابلس الشام وبيروت واسطمبول (الآستانة) . ولم يكن تعليمه منتظماً غير أنه قضى شبابه وهو يحاول استكمال تعليمه ، وكان يطمح إلى الدراسة في الآستانة وأوربة ، ولكن أبويه كانا حريصين على إبقائه إلى جانبهما في القدس ، ويروي أنه حاول مرة الهرب في مركب متجه من يافا إلى الآستانة ، ولكن ذويه أدركوه في اللحظة المناسبة وأعادوه إلى القدس . على أي حال أتاحت له الظروف تحقيق أمنيته عام ١٨٨٩ ، إذ قصد الآستانة وانتسب إلى (المكتب الملكي الشاهاني) ،

وهناك حضر أيضاً مجالس المصلح جمال الدين الأفغاني . وبعد ذلك تنقل بين الآستانة والقدس وباريس . وفي باريس تابع بعض الدروس في الصربون والتقى بكبار المستشرقين الفرنسيين والأوربيين وكان له نشاط علمي واضح بينهم . وفي عام ١٨٩٨ عيّن قنصلاً عاماً للدولة العثمانية في بوردو وتوابعها ، وتزوج هناك فتاة فرنسية أنجبت له ولداً درس الهندسة ، وأصبح بعد وفاة والده رئيساً لبلدية بوردو . وقد كان لدى الخالدي من المواهب وسمو النفس ما أهله لأن يصبح رئيساً لجمعية القناصل في بوردو ، وقد تقلد أرفع الأوسمة من الحكومة الفرنسية .

وعقب إعلان الدستور العثماني في ١٩٠٨/٧/٢٤ عاد الخالدي إلى القدس ، فانتخبه مواطنوه نائباً عنهم في مجلس المبعوثان بالآستانة ، وسرعان ما انتخب وكيلاً أول للمجلس ، وجدد المواطنون انتخابه مرة ثانية وثالثة . ولما حلّ المجلس عام ١٩١٢ عاد إلى القدس ولم يلبث أن ارتحل إلى الآستانة ، وهناك أصيب بحمى التيفوئيد التي لم تمهله سوى أربعة أيام وقضى نحبه في ١٩١٣/٨/٦

وله آثار عديدة منها محاضرتان ألقاهما في باريس هما :

١ - « رسالة في سرعة انتشار الدين المحمدي وفي أقسام العالم الإسلامي » .

٢ - « المقدمة في المسألة الشرقية منذ نشأتها الأولى إلى الربع الثاني من القرن الثامن عشر » .

وله مقالات أخرى في التاريخ والكيمياء ومؤلفات مخطوطة منها كتاب عن تاريخ الصهيونية لم يتمه ، وكتاب عن علم الألسنة أو مقابلة اللغات .

تاريخ علم الأدب

على أن ما يعنينا من مؤلفاته كتاب (**تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب**) الذي نعتبره الكتاب العربي الأول في الأدب المقارن التطبيقي أو البحث المقارن .

تشير مقدمة الطبعة الثانية التي طبعت بمطبعة دار الهلال بمصر سنة ١٩١٢ إلى أن الكتاب نشر أصلاً مقالات متسلسلة في (**الهلال**) بين سنتي ١٩٠٢ - ١٩٠٣ ، وأنه طبع في كتاب عام ١٩٠٤ وأشير فيه إلى اسم المؤلف بكنية (المقدسي) فقط ، لأن المؤلف كان يخشى الاستبداد العثماني . ولكن الطبعة الثانية التي هي موضوع الدراسة الحالية تحمل اسم المؤلف صريحاً :

روحي بك الخالدي

الوكيل الأول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه .

ويمكن اعتبار روحي الخالدي ، سواء من حيث السبق الزمني أم من حيث السبق العلمي ، رائد البحث العربي المقارن(☆) ، بما تنطوي عليه كلمة (ريادة) من تسامح في ناحيتي المنهج والدقة العلمية ، وهذا الحكم ينبغي ألا يتعارض مع المكانة الريادية المرموقة التي يحتلها سليمان البستاني وقسطاكي الحمصي وأقرانها في حقل النقد الأدبي العربي والدراسات الأدبية المتفتحة . ويكفي أن نلقي نظرة على عنوان كتاب الخالدي ومقدمته بالفرنسية ومقدمة الناشر ، لنستنتج أننا إزاء مشروع دراسة مقارنية على درجة جيدة من الوعي النظري .

١ ـ يحمل عنوان الكتاب مفاجآت علمية في مقدمتها استعمال مصطلح (علم الأدب) ، وهو استعمال مبكر جداً ومتأثر بالاتجاه الفرنسي في نهاية القرن التاسع عشر إلى التأكيد على علمية الأدب (هيبوليت تين وسانت بوف ...) . ولكن هذا المصطلح مفاجأة تصدم القارئ العربي الذي يقوم تقليده الأدبي على تنزيه الأدب عن أن يكون علماً أي خاضعاً لشيء غير الذوق والعاطفة والإحساس .

ويبدو من تتمة العنوان أن المؤلف يعرف ما يريد ، وأنه لم يطلق هذه التسمية عبثاً ، فما دام الأدب علماً فإذن يمكن أن يكون منطلقه واحداً وتاريخه واحداً ، وهو قابل للتحليل والمقارنة ، ويمكن النظر إليه من خلال زاوية واحدة ، وهكذا نجد تتمة العنوان :

تاريخ علم الأدب ،
عند الإفرنج والعرب ،
وفيكتور هوكو .
ولكن ما شأن فيكتور هيغو هنا ؟

إن المؤلف يوضح هذا الأمر جيداً في المقدمة الفرنسية للكتاب ويبين أنه أحب أن يسهم في احتفالات الذكرى المئوية للشاعر الفرنسي فيكتور هيغو ، فقاده ذلك إلى تقليب النظر في الآداب الإفرنجية والعربية وقدم أخلاطاً من الآراء بهذا الشأن ، ودّ لو تكون (تاريخاً للآداب) ولكنه آثر الدقة فسماها بالفرنسية :

« دراسة حول فيكتور هوكو وحول الأدب عند الأوربيين والعرب » .

(☆) للتفصيل انظر :

د . حسام الخطيب : روحي الخالدي رائد الأدب العربي المقارن ، دار الكرمل ، عمان ١٩٨٥

وكذلك أعيد في دمشق ١٩٨٤ طباعة كتاب تاريخ علم الأدب ، بإشراف الخطيب .

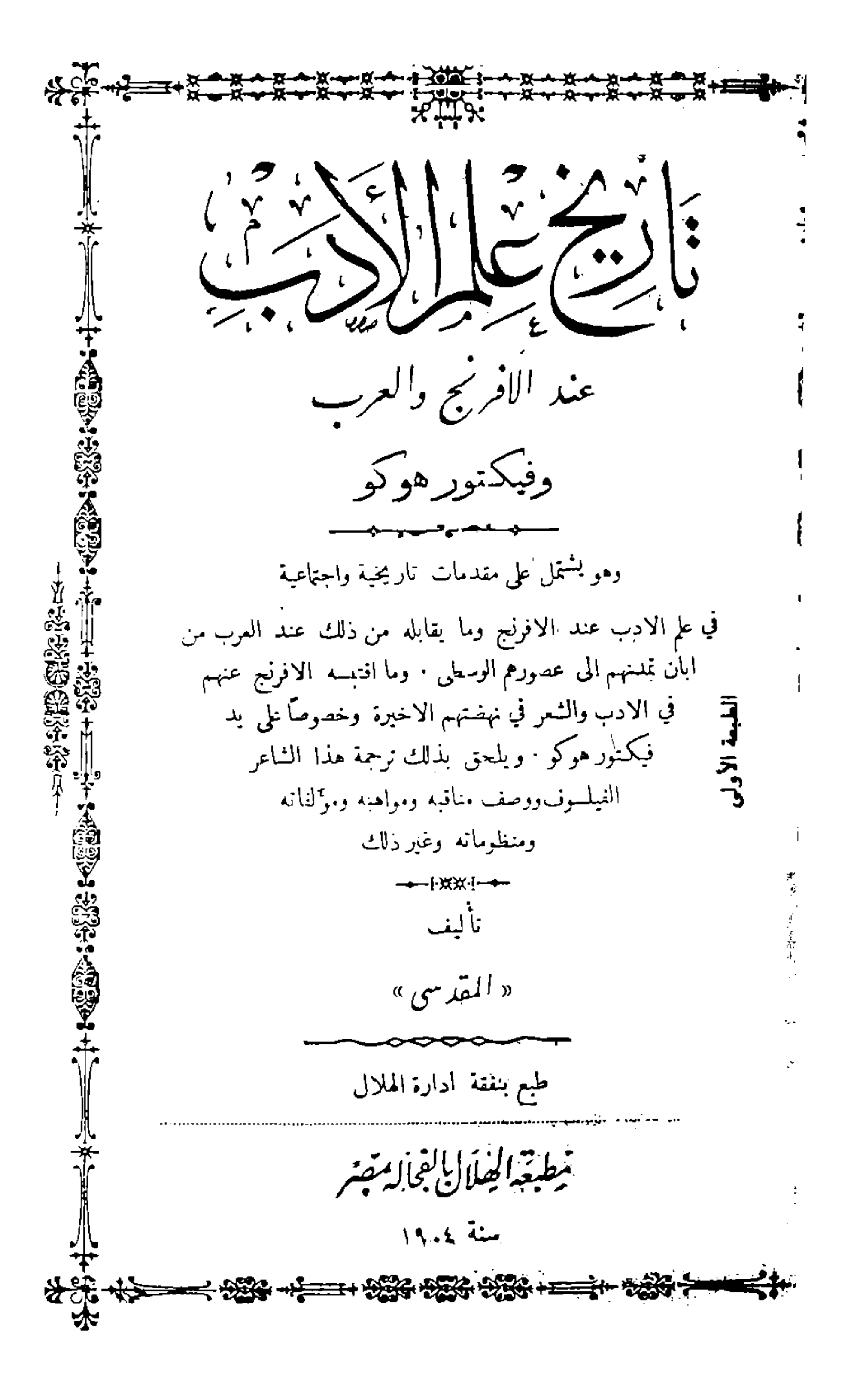
وأصرّ عند ترجمة هذا العنوان إلى العربية أن يذكر كلمة (علم الأدب) ، في حين أن كلمة (علم) لا وجود لها في النص الفرنسي ، وكأنه كان يحتاج إلى التشديد على علمية الأدب بالنسبة للقراء العرب دون غيرهم ، وكأنه من فضول القول أن يسمى الأدب علماً عند الفرنسيين .

٢ ـ يشير تصدير الكتاب ، أي الشرح المثبت على الغلاف بعد العنوان ، إلى أن الكتاب يعتمد على المقابلة والمقارنة القائمة على التأثر والتأثير . وهو ينطلق من اعتقاد واضح بإمكان إجراء المقابلة حسب المراحل التاريخية (إبان تمدنهم إلى عصورهم الوسطى) . كما يلحق المقابلة بالمقارنة ويشير إلى ما اقتبسه الإفرنج عن العرب من الأدب والشعر ؛ وهو بذلك يدخل في صميم منهج الأدب المقارن .

٣ ـ حرصاً على وحدة الكتاب وعلى إعطاء مسوغ منهجي لحشر اسم فيكتور هيغو فيه نراه يشير في التصدير نفسه إلى ما كان لهيغو من دور في عملية اقتباس الفرنجة لآداب العرب . فكأنه بذلك يقدم حالة عامة من التأثير الأدبي العربي في أوربة مع حالة خاصة أو مثال خاص هو مثال فيكتور هيغو . وواضح من المقدمة الفرنسية أن المؤلف ينوي التوسع في الكلام على هيغو ، لا لأنه مثال خاص للتأثر ، بل كذلك لما يمكن أن يقدمه شعر هيغو من تشديد على التشابه بين الأدبين العربي والإفرنجي ، وكذلك على اللون الخاص لهذا الشاعر ، مما يمكن أن يفيد منه القرّاء العرب ، ومن هنا كان وعده في المقدمة بترجمة مقطوعات لفيكتور هيغو ومقارنتها بمقطوعات لشعراء الحرب العرب مثل المتنبي والمعري .

٤ ـ تظهر المقدمة الفرنسية أيضاً أن روحي الخالدي لم يكن من أولئك الكتاب المتحمسين المعصوبي العينين ، الذين يعتقدون أن اتجاه التأثير الأدبي ينبغي أن يظل دائماً منطلقاً من الأدب العربي ومنتهياً عند الفرنجة ، بل كان واضحاً أنه يعتقد أن التجربة الأدبية الغربية ، وتجربة شاعره المفضل فيكتور هيغو بوجه خاص ، كفيلة بأن تغني الأدب العربي الحديث وأن تعطيه أنفاساً جديدة . ولذلك نراه في المقدمة الفرنسية يعد بإعطاء الشعراء الشباب العرب فكرة دقيقة عن الأدب الأوربي بوجه عام والأدب الفرنسي بوجه خاص ، وعن الأجناس الأدبية ، وعن تنوع الموضوعات التي يمكن أن يعالجها شاعر معاصر .

٥ ـ يظهر الخالدي في المقدمة الفرنسية أيضاً وعياً نظرياً باتجاه اللغة العلمية الواضحة التي لا بدّ من اعتمادها في البحث الأدبي ، لأن البحث طريق الوصول إلى المعرفة وليس معرضاً للتألق



تاريخ علم الأدب

عند الافرنج والعرب

وفيكتور هوكو

وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية

في علم الادب عند الافرنج وما يقابله من ذلك عند العرب من
ابان تمدنهم الى عصورهم الوسطى . وما اقتبسه الافرنج عنهم
في الادب والشعر في نهضتهم الاخيرة وخصوصاً على يد
فيكتور هوكو . ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر
الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته
ومنظوماته وغير ذلك

الطبعة الاولى

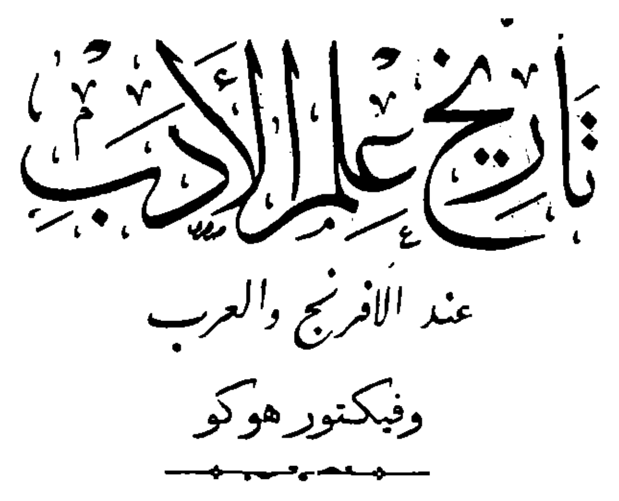
تأليف

« المقدسي »

طبع بنفقة ادارة الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠٤



عند الافرنج والعرب

وفيكتور هوكو

وهو يشتمل على مقدمات تاريخية واجتماعية

في علم الادب عند الافرنج وما يقابله من ذلك عند العرب من ابان تمدنهم الى عصورهم الوسطى · وما اقتبسه الافرنج عنهم في الادب والشعر في نهضتهم الاخيرة وخصوصاً على يد فيكتور هوكو · ويلحق بذلك ترجمة هذا الشاعر الفيلسوف ووصف مناقبه ومواهبه ومؤلفاته ومنظوماته وغير ذلك

تأليف

روحي بك الخالدي

الوكيل الاول لمجلس المبعوثان ونائب القدس الشريف فيه

طبع بنفقة ادارة الهلال

الطبعة الثانية

طبع بمطبعة الهلال بالفجالة بمصر سنة ١٩١٢

الطبعة الثانية

الأدبي . ويشير الخالدي بما يثير الإعجاب إلى أنه كان في مقدوره أن يكتب الكتاب على طريقة الحريري المسجعة ، ولكنه آثر أن يكون واضحاً دقيقاً مفهوماً ليتيح لجمهرة القراء من أنصاف المتعلمين ، ومن المتخرجين من المدارس المتأثرة بالطراز الأوربي أن يتابعوه .

وبالفعل فإن لغة الكتاب أتت أنموذجاً للغة العلمية الدقيقة الواضحة البعيدة عن الزخرف والتكلف ، وهذه الطريقة في التعبير تقربه من لغة الأدب المقارن كما تضعه في مصاف الطليعة العربية المجددة فكراً وأسلوباً في مطلع القرن العشرين .

٦ ـ ومما يُسجل للخالدي في مجال الأدب المقارن حرصه على الترجمة ، أي على إعطاء فكرة عن النصوص الأصلية التي اهتمَّ بها ، ولا سيما نصوص ڤيكتو هيغو التي كانت طريقه إلى **الملموسية** في البحث ، ذلك أنه كان حريصاً على عدم السباحة في بحور التعميمات ، وكان يردف كل فكرة بمثالٍ توضيحي ، من ڤيكتور هيغو في أغلب الأحيان ، ومن غيره من الأدباء الغربيين ، في حين أن تركيزه في مجال الأدب العربي تناول الشاعرَيْن المتنبي وأبا العلاء بوجه خاص . والمعروف أن الأدب المقارن هو من فروع المعرفة الأدبية الأكثر التصاقاً بالملموس .

على أي حال بذل الخالدي جهداً لتقديم ترجمات لمجموعات مختارة من نصوص ڤيكتور هيغو ، أورد بعضها كاملة ، وأورد مقاطع مختارة من بعض آخر ، إما لأسباب تتعلق بصعوبة الترجمة ، وإما لأسباب تتعلق بعدم استساغته لبعض الأفكار في النصوص الأصلية . وكانت طريقته أن يستعرض قصائد ڤيكتور هيغو وأعماله الفنية مستهلاً كل عمل بتعريف عام به ، ومنتقلاً بعد ذلك إلى التعليق عليه ، ولا سيا من ناحية ما يوحيه من تشابه مع بعض الآثار العربية ، وقد يجري مقارنات فنية دقيقة لينتقل بعد ذلك إلى الترجمة الدقيقة لبعض المقاطع . وقد اتبع هذه الطريقة في الثلث الأخير من الكتاب الذي خصصه لتقديم إنتاج ڤيكتور هيغو .

وتبدو ترجمة الخالدي ناجحة لأنها قائمة على التعمق في النص الأصلي وفهم مراميه ، فهو ليس مترجماً محترفاً بل أديب متذوق . وبالطبع لنا أن نتصور ما عاناه الخالدي في مجال ترجمة المصطلحات الأجنبية والكلمات المفتاحية من فنية وبلاغية . وإذا كانت بعض مصطلحاته تبدو لنا طريفةً اليوم بعد أن قطعنا شوطاً طويلاً في تجارب ترجمة المصطلحات ، فإن الجهد الذي قدمه الخالدي يضعه في مصاف رواد الترجمة ، ولا سيا من ناحية إصراره على فهم المصطلح الأصلي بلغته ، وشرح معنى هذا المصطلح جنباً إلى جنب مع اقتراح الترجمة .

ومن جملة المصطلحات التي تلفت النظر :

- الطريقة الرومانية Romantisme مقابل مانسميه اليوم (المدرسة الرومنتية)[٤٦] .
- الطريقة الحقيقية Realisme مقابل (واقعية) .
- فاجعة أو مبكية Tragédie مقابل (مأساة) .
- مضحكة Comédie مقابل (ملهاة) .
- الرواية والرواية التمثيلية Drame مقابل (مسرحية) .
- هجوية Satirique مقابل (قصيدة الهجاء) أو فن الهجاء .

٧ - كذلك مما يسجل للخالدي حرصه على إعطاء فكرة عن المذاهب والأنواع الأدبية لدى الأوربيين ، وتلمس آثار أو مشابهات هذه المذاهب والأنواع في الأدب العربي . ومن المعروف أن دراسة المذاهب والأنواع الأدبية بمفهومها الشمولي ، تشكل ركيزة مهمة من ركائز الأدب المقارن . ويلاحظ المرء في النص الذي ورد قبل قليل ، كيف يعمل الخالدي على شرح المفهومات والمصطلحات المتعلقة ببعض الأنواع الأدبية كالمسرحية والملهاة والمأساة وغيرها .. وفي مواضع أخرى من الكتاب نراه يعنى بشرح المذاهب الأدبية الإفرنجية بالتفصيل ، ويتابع اتجاهاتها على مستوى الآداب الأوربية ولا سيا الآداب الإنكليزية والفرنسية والألمانية ، ومن الطريف أنه يذكر مسرحية (فاوست) لغوته ويعلق عليها من خلال مشاهدته إياها على (المراسح) الفرنسية .

ومن خلال هذا العرض يظل حسه المقارني رفيعاً وهو يقارن باستمرار بين الأفكار والتقنيات والأساليب العربية والإفرنجية .

وإنه ليقف طويلاً عند ظاهرة مثل ظاهرة (المبالغة) ، ويتابع المواقف المختلفة منها في كل من العربية ، والفارسية ، والتركية ، والفرنسية .

٨ - تتوفر في كتاب (**تاريخ علم الأدب**) لمحات مقارنية شديدة الأهمية تدل على توفّر حس البحث المقارني ، والذوق النقدي أيضاً ، لدى المؤلف . وبالطبع ليس من الضروري أن يكون كل مايذكره المؤلف صحيحاً أو عميقاً ، ونحن هنا لانشير إلى دقة المعلومات وعمق التحليل بقدر مانشير إلى الموهبة المقارنية اللماحة . وفيما يلي بعض الأمثلة التي تُنبئ عن حسه المقارني :

---

(٤٦) لم يستقر هذا المصطلح بعد وهناك : الرومنتية ، والرومانتية ، والرومانسية ، والرومنتيكية ، والرومنطيقية والمصطلح المترجم (الابتداعية ، والإبداعية !!) .

أ ـ يعالج الكاتب موضوعات مقارنية مباشرة من مثل (ماقتبسه الإفرنج من قواعد الشعر العربي) في الفصل الرابع عشر من الكتاب . ويظهر المؤلف هنا موهبة علمية ممتازة ، وجلداً على البحث ، وميلاً إلى التفحص والتدقيق . وينتهي إلى التأكيد أن الظروف التاريخية والاجتماعية والسياسية والثقافية أتاحت الفرصة لانتقال الأفكار والأساليب والتقنيات العربية إلى الفرنجة في القرن الحادي عشر الميلادي من خلال الاتصال العربي الفرنسي الحربي وغير الحربي في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا . ويتابع هذه الاقتباسات بدقة وتفصيل .

غير أن ما يعجب المرء بالإضافة إلى ذلك حرص المؤلف على رسم خارطة للجو السياسي الاجتماعي الذي دارت فيه المبادلات الأدبية في تلك الفترة ، ومن هنا يعرج على وصف المنطقة جغرافياً وعلى وصف حروب المسلمين والفرنجة ، ويدل وصفه على معرفة مباشرة بجغرافية المنطقة ، ومعرفة تاريخية واضحة بالوقائع التي دارت .

ب ـ ومن الموضوعات المقارنية التي يعالجها ويبين رأيه فيها ويثبت التأثير العربي في الأدب الإفرنجي :

- إنشاد فقراء الإفرنج النشائد والمدائح العربية .
- أخذ التروبادور علم القوافي عن العرب .
- انتقال هذا العلم إلى شعراء الشمال وهم التروڤير .
- الأصل العربي لمسرحية (السيد) .
- اقتباس الإفرنج أقاصيصهم عن العرب .

جـ ـ يبدو الكاتب معجباً بڤيكتور هيغو ، ولكنه لا يغمض العينين عن نواحي الضعف في كتابته ، ويعترف بأن رواياته[٤٧] « لم تبلغ درجة الإعجاز لا بالنظر إلى المؤلفات السابقة ، ولا المؤلفات اللاحقة لها من هذا النوع » .

وذلك ما يدفعه إلى التساؤل عن سبب الشهرة الواسعة التي حظي بها هيغو محلياً وعالمياً ، ويجد لذلك جوانب سياسية ودينية وعلمية . وعند شرح السبب السياسي يبين تأثير مكانة

---

(٤٧) بمعنى مسرحياته غالباً .

الفرنسيين عند الأمم من ناحيـة لفت النظر إلى شعرائهم ، ويرجع سبب الشهرة العـالميـة لهيغو إلى قوة أمته وبالتالي قوة الأدب القومي الذي ينتسب إليه :

« وكان لقومه الحظ الأوفر من التقلبات السياسـية والتبـدلات الاجتماعيـة ، واستوقفوا نحوهم أنظار العالم المتمدن بأسره » .

وهـذا التعليـل لشهرة الكاتب خـارج بلـده معروف في الأدب المقـارن ، ذلـك أن كثيراً من الأدباء يحظون بأكثر مما يستحقونه من شهرة عالمية بسبب تـأثير أممهم في المحيـط الـدولي السيـاسي أو الحضاري . وبالمقابل يحرم كثيرون من الأدباء مما قد يستحقونه من شهرة عالمية بسبب ضعف مكانة بلدانهم على المستوى العالمي السياسي أو الحضاري .

١٠ ـ يبدو كتاب الخالدي سلسلة غنية من المقابلات العربيـة ـ الإفرنجيـة الفكريـة والأدبيـة وأحياناً المعتقدية . وهو يغتنم كل فرصة تسنح من أجل المقابلة بين الطرفين ، وأحيانـاً تـذهب بـه المقـابلـة مـذاهب بعيـدة . ولكنــه في النتيجــة ينجـح في رسم خطـوط كبرى لنـواحي التماثـل والاختلاف ، من شأنها أن توحي بأن التجربة التـاريخيـة الاجتماعيـة المتشـابهـة تنتج أفكاراً وآدابـاً متشابهة . كما أن كل ما يقدمه الكاتب من أمثلة يسهم في تأكيد تشابـه التجربـة الإنسـانيـة في مجـال الإبداع الفني والأدبي على الأقل .

ومن أمثلة مقارناته التي لاتعتمد على تأكيد التبادل أو التأثر والتأثير :

ـ المقارنة الشاملة بين الشعر العربي والشعر الإفرنجي مع بيان آراء كل طرف في شعر الآخر .

ـ المقارنة بين موضوع ملهاة (**تارتوف**) لموليير وأبيات للمعري تقترب منها في المغزى .

ـ المقارنة بين قواعد الاتباعية الجديدة وبيت لحسان بن ثابت في الصدق .

ـ المقارنة المستمرة بين هيغو والمعري ، والتشـديـد على تميز هيغو على شعراء العربيـة من خلال تنوعه وعمقه وأنفته من التقليدية والتكرار ، ويستثني من هذه المقارنة كلاً من المتنبي والمعري .

وأخيراً يحسن التأكيد أن الخالدي كان مؤهلاً تأهيلاً معقولاً لأن يكون باحثاً مقارنيـاً ، فقـد كان ذا ذوق أدبي حسن ، واطلاع جيد على الآداب العربية والأجنبيـة ، وكانت معرفتـه بـاللغـات وافية إذ أتقن العربية والفرنسية والعثمانية والفارسية ، وساعدته كذلك ظروفه الشخصيـة من خلال

إقـامتـه في فرنسـا في أواخر القرن التـاسع عشر وأوائل العشرين ، أي في الفترة التي بلغ فيهـا تـألق فرنسا الأدبي قمة من قممه العديدة ، وفي خلال إقـامتـه هـذه تعرف المؤلف على عـدد من المستشرقين الأوربيين وذكرهم وذكر آراءهم في كتابه . يضاف إلى ذلك كله ماظهر في ثنايا الكتـاب من حرص على الدقة وابتعاد عن المبالغة والإسراف ، وتقيد بالأمـانـة العلميـة من حيث الرجوع إلى المصـادر ، ومراقبة لهوى النفس إذ لم يسمح لتعلقـه الشخصي بڤيكتور هيغو أن يطغى على أحكامـه ، فلا غرو إذن أن يكـون لكتـابـه (**تـاريـخ علم الأدب**) فضـل السبـق في ريـادة البحث العربي المقـارن التطبيقي .

٤ ـ البحث المقارن التطبيقي بعد الخالدي

وبعد الخالدي يزداد بشكل واضح الاهتمام بالأفكار المقارنة ، ثم بالتـأليف في الأدب المقـارن . ففي سنة ١٩١٢ مثلاً نجد الشـاعر خليل مطران في مقـدمتـه لترجمـة مسرحيـة (عطيل) لشكسبير يتحدث عن اقتراب شكسبير من الذوق العربي ، ويطرح عـدداً من الأسئلـة بهـذا الصـدد يمكن أن يستشهد بها المرء للتدليل على اتساع الاهتمام بالمقارنة لدى الأدباء العرب ، يقول خليل مطران :

« فأما من جهة التعريب فأقول : إن في نفس شكسبير شيئـاً عربيـاً بلا منـازعـة ، وهو أبين فيهـا ممـا بـان في نفس ڤيكتـور هـوجـو[٤٨] . أقَرأً لغتنـا أم نُقلتْ إليـه عنهـا بعض الترجمـات الصحيحة ؟ .. لاأعلم ، ولكن بينه وبيننا شيئاً من وجوه متعددة ومشاكلة مُحيّرة ... »[٤٩] .

وكذلك يشير مؤرخو الأدب العربي الحديث إلى محاضرة مهمة ألقاها أحمد ضيف في القـاهرة عام ١٩١٨ بعنوان « الكلام البليغ ودراسته » وتضمنت دعوة إلى الموازنة والمقارنة .

كما يجد الإنسـان مثل هـذا التطلع في البيـانـات والآراء النقـديـة التي تفتحت في عشرينـات القرن ، وكان في مقدمتها بيانات مدرسة الديوان النقـديـة ، التي أشـارت دائمـاً إلى الأفق الإنسـاني لتطلعاتها .

ومنذ مطلع الثلاثينات بدأت تظهر في المقالات الأدبية في مصر بـالـذات اتجاهـات واضحـة للربط بين الأدب العربي والآداب الأُخرى من غربية وشرقية .

(٤٨) لاحظ اختلاف كتابة الكلمة بين الخالدي (هوكو) ومطران (هوجو) والطريقة المعاصرة (هيغو وهيجو) .

(٤٩) نقلاً عن ياغي : النقد الأدبي في لبنان ، جـ ١ ، ص ٣٥١

وقدمت مجلة (**الرسالة**) صفحاتها منبراً حياً لهذه الاتجاهات ، كما عملت على تزويد القارئ بلمحات عن الآداب الأوربية بوجه خاص ، مثل الآداب الإنكليزية والفرنسية والإيطالية والألمانية (الإسبانية قليلة) ، وكان هناك بعض مجال للآداب الشرقية مثل الأدب الفارسي والأدب الهندي . وظهرت كذلك سلسلة مقالات عن الأدب الياباني بقلم أحمد الشنتناوي في عام ١٩٣٣[٥٠] .

ويبدو أن سنة ١٩٣٣ بالذات قد حملت علامات انعطاف قوية في هذا الاتجاه ، فقد نشرت مجلة (**المقتطف**) ترجمةً عربية لمحاضرة بالفرنسية ألقاها ماريوس بك شمِّيل في النادي الكاثوليكي بالقاهرة في ١٩٣٣/٥/٢٢ حول موضوع : « لامرتين في ربوع الشرق » ، وهو موضوع مقارني واضح ، ولكن المحاضرة ، مع التقدير لسبقها ، أتت وصفية تمجيدية بعيدة عن التحليل[٥١] .

وفي مجلة **المقتطف** ذاتها ظهر في عام ١٩٣٣ أيضاً مقال براق بعنوان « مصر في الأدب الألماني » بقلم حسن رشيد نور ولكنه لم يكن سوى برقٍ خُلَّب ، إذ تبين أنه مجرد ترجمة لقصة بعنوان « قصة الموت الذهبي » تدور أحداثها في مصر .

ولعلَّ أهم ماظهر في هذه السنة (١٩٣٣) من ناحية البحث المقارني التطبيقي سلسلة المقالات التي نشرها في **الرسالة** الدكتور عبد الوهاب عزام حول « الأدب الفارسي والأدب العربي » ، والتي تضمنت مقابلات ومقارنات بين الأدبين ، ولكنها استقرت فيما بعد على الأدب الفارسي[٥٢] . واتصفت هذه المقالات بالعمق النسبي والإحاطة والمنهجية ، وهي تستحق أن تُعَدَّ أساساً للاتجاه التطبيقي في الأدب المقارن . إلا أنه من الملاحظ أن مصطلح (الأدب المقارن) لم يكن قد ظهر على صفحات الدوريات العربية في مصر وغيرها حتى ذلك الحين ..

وبعد ذلك ظهرت في **الرسالة** مقالات ذات طابع مقارني تطبيقي ، وتلفت النظر مقالة مبكرة جداً في موضوع مقارني حساس مازال يشغل الباحثين حتى الآن في الشرق والغرب ، وهو موضوع علاقة دانتي بالتراث العربي الإسلامي . وحملت هذه المقالة العنوان المقارني التالي : « دانتي ألليجيري والكوميديا الإلهية وأبو العلاء المعري » وتبعتها سلسلة مقالات في الموضوع نفسه .

---

(٥٠) انظر مثلاً : أحمد الشنتناوي : « الأدب الياباني » ، **الرسالة** ، ع ٥ ، س ١ ، ١٩٣٣/٣/١٥

(٥١) ماريوس بك شمّيل : « لامرتين في ربوع الشرق » ، **المقتطف** ، مجلد ٨٣ ، جـ ٢ ، يونيو ١٩٣٣ ، ص ص ١٣٩ ـ ١٤٩

(٥٢) د . عبد الوهاب عزام : « الأدب الفارسي والأدب العربي » ، **الرسالة** ، ع ٢ ، س ١ ، ١٩٣٣/٢/١ ، ص ص ١٧ ـ ١٨ وكان هذا المقال فاتحة السلسلة .

وفيها ينكر كاتبها دريني خشبة ، علاقة دانتي **برسالة الغفران** ، وكذلك **بالمعراج** ، متحدثاً عن « القصص الملفقة التي وضعت وضعاً على يد نجم الدين الغيطي »[٥٣] . وبصرف النظر عن الموقف من تحليلات دريني خشبة يمكن أن يسجل له هنا حرصه على الدقّة العلمية في وجه موجة الاعتداد القومي والديني التي كانت في مستهل يقظتها في تلك الفترة .

وفي هذه الفترة ظهرت أيضاً في **الرسالة** مقالات تطبيقية للسوري خليل هنداوي (الذي ستكون لنا وقفة عنده بعد قليل) ، وللسوداني المبارك إبراهيم . وبذلك يمكن القول إن ثلاثينات القرن العشرين كانت حجر الأساس في ظهور البحث التطبيقي في الأدب المقارن قبل أن يُعرف هذا الحقل المعرفي وقبل أن يسمع الباحثون بمصطلحه . فمثلاً على الرغم من وجود لمحات متكررة عن الآداب الأوربية في **المقتطف** فإن مصطلح (الأدب المقارن) لا يظهر إطلاقاً في فهارسها منذ عام ١٨٧٦ إلى عام ١٩٥٢[٥٤] ، ولهذا الأمر دلالته .

وقد ازدادت فترة منتصف الثلاثينات تألقاً على صفحات **الرسالة** بفضل سلسلة مقالات تطبيقية (١٩٣٥ ـ ١٩٣٧) حول الأدب العربي والأدب الإنكليزي بقلم الكاتب الشاعر الموهوب فخري أبو السعود ، الذي اعتادت المصادر التي أرّخت للأدب العربي أن تنسب إليه الريادة في الأدب العربي المقارن ..

وسيجد القارئ بعد قليل تصحيحاً لهذا الحكم ، مع التنبيه إلى أن سياق الكلام حتى الآن ، يتصل بالمقارنات التطبيقية التي لا يُفترض أن تكون مستندة بالضرورة إلى معرفة مسبقة بحقل الأدب المقارن . وإن جميع المقالات التي ذُكرت حتى الآن تتصل بهذا الجانب . وإذن تكون مقالات أبو السعود مبدعة في هذا الجانب التطبيقي الذي نسبنا ريادته إلى روحي الخالدي في

---

(٥٣) دريني خشبة : « دانتي الليجيري والكوميديا الإلهية وأبو العلاء المعري » ، **الرسالة** ، ع ١٥٩ ، س ٤ ، في ١٩٣٦/٧/٢٠ ، ص ص ١١٨٢ ـ ١١٨٥

(٥٤) أجريت مراجعة مدققة لفهارس مجموعة **المقتطف** الكاملة ، وكنت أرجع إلى المقالات الأصلية كلما توسّمت من خلال إيحاءات العناوين ما يمكن أن يتصل بالأدب المقارن ، ولكن النتيجة كانت سلبية تماماً . أضيف إلى ذلك أن المعلومات المنسوبة في هذا الفصل إلى الدوريات العربية هي نتيجة متابعة مضنية لمجموعاتها الكاملة ، بما في ذلك دوريات أخرى ، لم تذكر هنا ، لأن نتائجها أتتْ سلبية تماماً ، وهذه (الحصيلة الضئيلة لجهد كبير) كانت دائماً موضع قلق المقارنين وتشككهم في جدوى جهودهم .

الصفحات السابقة ، والذي نؤكد أن مجلة **الرسالة** المصرية كانت منبره الأول ، وأن فترة الثلاثينات كانت مرحلته التأسيسية وأن أكبر تألق في هذه المرحلة كان على يد فخري أبو السعود .

وإن كان من الإنصاف للمرحلة التأكيد أن مقالاته لم تكن بدعاً في الثلاثينات وإن كانت كشفت عن اطلاع وموهبة وحساسية نقدية وجرأة تُسَجّل له .

وفي هذا السياق تجدر الإشارة إلى أنه في الثلاثينات أيضاً ظهر الجزء الثالث من كتاب الأديب الحلبي قسطاكي الحمصي المعنون : « **منهل الوراد في علم الانتقاد** » .

وتضمن الكتاب بحثاً مطولاً عن « الموازنة بين الأُلعوبة الإلهية ورسالة الغفران » ، ص ص ١٥٤ ـ ٢٤٦ .

وهذه الموازنة تنحو منحىً نقدياً مقارنياً ، ويشير المؤلف[٥٥] في مقدمتها إلى أنه كان منذ ثلاثين سنة خلت ، أوّل من نبّه إلى اقتباس دانتي المشهور **ألعوبته الإلهية عن رسالة الغفران** لأبي العلاء المعري[٥٦] ، وظلَّ منذ ذلك الحين يتحين الفرص إلى أن اكتملت له هذه الدراسة التي يمكن اعتبارها أول دراسة تطبيقية مفصّلة حول موضوع محدّد في الأدب العربي المقارن . وتعتمد هذه الدراسة على قراءة جادة للعملين ، وعلى الرغم من أن المؤلف يفتقر إلى أدوات المقارنة العلمية فإن القيمة التاريخية لهذه الدراسة شديدة الأهمية .

وفي الأربعينات ظهر كتاب تطبيقي ذو أهمية في الأدب العربي المقارن وهو كتاب إلياس أبو شبكة بعنوان : « **روابط الفكر بين العرب والفرنجة** » .

وتحمل الطبعة الثانية تاريخ ١٩٤٥ ، وقد صدرت عن دار المكشوف ببيروت . وفي هذا الكتاب استعراض لعظمة الثقافة الفرنسية وتمجيد لدورها في العالم ، واعتداد بالثقافة العربية كذلك ، ومحاولة للربط بين الثقافتين وتأكيد لاستفادة الأدب العربي الحديث من الأدب الفرنسي

---

(٥٥) ولد قسطاكي الحمصي في حلب عام ١٨٥٨ وانتقل بعد ذلك إلى فرنسا ، وزار الآستانة وبيروت ، وتعددت زياراته إلى مصر وتعرف على شيوخ أدبائها ، وأسهم في الشعر والأدب والنقد . وكان الجزآن الأولان من كتابه (**منهل الورّاد**) أوّل محاولة عربية حديثة للتنظير في الأدب العام والنقد الأدبي . توفي في حلب عام ١٩٤١

(٥٦) ظهر كتاب (**منهل الورّاد في علم الانتقاد**) بجزأيه الأول والثاني في مصر عام ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ ، أما الجزء الثالث فقد ظهر في حلب عام ١٩٣٥

وتياراته ، وفي الكتاب أيضاً تأكيد لدور الترجمة في نقل الأفكار والأذواق ولحرية النقل والاقتباس من الأفكار الغربية .

وفي عام ١٩٤٦ ظهر كتاب شفيق جبري « **بين البحر والصحراء** » عن سلسلة اقرأ وهو كتاب صغير فيه لمحات ذوقية حول أدب الشرق والغرب ، ولكنه بعيد عن مناهج البحث المقارن .

وفي عام ١٩٤٨ ظهر كتاب الدكتور محمد عوض محمد بعنوان : **الشرق والغرب**(٥٧) ، وهو مجموعة شبه قصصية تحاول تصوير الفروق بين الحياة والفكر في الغرب ، والحياة والفكر في الشرق ، ويقف الكاتب من الحضارة الغربية موقف المؤيد والمتخوف في وقت واحد ؛ وهو الموقف النمطي الذي ساد معظم تصوّرات النصف الأول من القرن العشرين .

ومن فضول القول الإشارة إلى أن المقالات التطبيقية في الأدب المقارن استمرت في الظهور في فترة الأربعينات بل تشعَّبت واغتنت ، كما ظهرتْ بعض مؤلفات عن الآداب الأخرى ، ويعتبر أهم حدث تأليفي في هذه الفترة ظهور كتاب (**قصة الأدب في العالم**) الذي نهل الأدباء والدارسون العرب من معينه خلال العقود التي تلت(٥٨) ، وتدخلنا الخمسينات في مرحلة جديدة ، إذ تعدَّدت أقنية التواصل الثقافي بين الوطن العربي والعالم ، وأصبحت الكتابة عن الآداب الأجنبية ومقارنتها بالثقافة العربية ممارسةً شائعة لدى الأساتذة والكتاب المتخرجين في المدارس الأجنبية ؛ وبفضل الدكتور محمد غنيمي هلال بدأت مناهج الأدب المقارن وطرائقه تشقّ سبيلها إلى البحث الأدبي ، وإن يكُنْ بيطء في بادئ الأمر ، وأتى كتابه حول « دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر »(٥٩) تتويجاً لتراكمات الجهود السابقة ، وإيذاناً ببدء مرحلة جديدة في البحث الأدبي .

وتؤتي كل هذه المراحل أكلها ابتداء من الستينات ، إذ تأخذ بالظهور دراسات ومؤلفات ذات طابع علمي تدقيقي ، وبعضها يراعي ، ولو نسبياً ، مناهج البحث المقارني . وتعتبر دراسات

---

(٥٧) سلسلة كتب للجميع ، ع ٧ ، يوليه ١٩٤٨

(٥٨) أحمد أمين وزكي نجيب محمود (تصنيف) : **قصة الأدب في العالم** ، عدة أجزاء متسلسلة ، القاهرة ، ١٩٤٥

(٥٩) د . محمد غنيمي هلال : « **دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر** » ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٥٦ . وقد ظهر الكتاب نفسه دون أي تغيير في منشورات معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٦١ - ١٩٦٢

الدكتور لويس عوض سباقةً في هذا المجال وفي مقدمتها سلسلة حول المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث (قضية المرأة والفكر السياسي والاجتماعي .. إلخ)[٦٠] .

وقد تابع لويس عوض هذا الاتجاه واتسمت دراساته بالتدقيق والمنهجية والتركيز[٦١] ، ومن أهمها دراسته المنهجية حول التأثيرات العربية الإسلامية في دانتي ، ومن يقارن بينها وبين دراسة قسطاكي الحمصي ، التي جرت الإشارة إليها سابقاً ، يدرك تماماً أية مرحلة علمية مهمة قطع البحث الأدبي العربي خلال ثلث قرن من الزمان[٦٢] .

ومما يجدر ذكره هنا التفات بعض المؤلفين إلى البعد الإسلامي والشرقي بوصفه الفضاء المبدئي للمقارنة الأدبية العربية ، ومن هؤلاء : د . حسين مجيب المصري[٦٣] ، والدكتور طه ندا الذي أظهر في كتابه (**الأدب المقارن**) اتجاهاً واضحاً نحو المقارنة باتجاه الفضاء الإسلامي (الأدب العربي مع الأدبين الفارسي والتركي) ، وحاول وضع شبه أساس لهذه المقارنة[٦٤] .

وفي منتصف الستينات ظهرت أيضاً دراسة فاطمة موسى ذات العنوان المقارني : **بين أدبين : دراسات في الأدب العربي والإنكليزي**[٦٥] ، وهي مقالات منفصلة ، بعضها عن الأدب العربي ، وبعضها عن الأدب الإنكليزي ، ولا وجود للمقارنة فيها .

ومثل هذا العنوان شبه المضلل ظهر أيضاً على كتاب عبد الفتاح الديدي (**أدبنا والاتجاهات العالمية**)[٦٦] ، إذ يتبين أنه مجموعة مقالات عن الآداب الفرنسية والعربية مبعثرة لا يجمعها جامع ولا تكاد ترقى إلى مستوى مقالات فخري أبو السعود في الثلاثينات .

---

(٦٠) د . لويس عوض : **المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث** .
١ ـ قضية المرأة ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ، ١٩٦٢
٢ ـ الفكر السياسي والاجتماعي (القسم الأول من الحملة الفرنسية إلى عهد إسماعيل) ١٩٦٣

(٦١) صدر له في عام ١٩٦٥ ، **دراسات عربية ـ غربية** ، عن دار المعارف بمصر .

(٦٢) د . لويس عوض : **على هامش الغفران** ، القاهرة ، كتاب الهلال ، يونيه ١٩٦٦

(٦٣) نشر د . حسين مجيب المصري منذ عام ١٩٥٠ كتاباً بعنوان **من أدب الفرس والأتراك** ، وفي عام ١٩٥١ كتاب تاريخ الأدب التركي . والكتاب الذي يعنينا هنا حمل عنواناً مقارنياً واضحاً : « **في الأدب العربي والتركي ، دراسة في الأدب الإسلامي المقارن** » ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٢

(٦٤) د . طه ندا : **الأدب المقارن** ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٢ . مع العلم أن الكتاب ينتمي إلى مرحلة لاحقة وقد فرضه سياق الكلام .

(٦٥) فاطمة موسى : **بين أدبين : دراسات في الأدب العربي والإنكليزي** ، القاهرة ، مكتبة الأنكلو مصرية ، ١٩٦٥

(٦٦) عبد الفتاح الديدي : **أدبنا والاتجاهات العالمية** ، القاهرة ، الدار القومية ، ١٩٦٦ م .

ومن الكتب المتعة التي ظهرت في الستينات ومثّلت الوجه الآخر للمسألة ، كتاب الشوباشي (**رحلة الأدب العربي إلى أوربة**)[٦٧] ، وليس في هذا الكتاب إشارات إلى الأدب المقارن ، ولكنه يتضمن محاولة طيبة لإعادة التوازن إلى الدراسات المقارنية التي ركزت في معظمها على التأثيرات الغربية في الأدب العربي ..

وبالطبع يجب ألا ينسى المرء الإشارة بتقدير شديد إلى دراسات الدكتور محمد غنيمي هلال ، التي كانت تتناثر في الدوريات العربية دون أن تحمل الوهج الكافي للفت النظر إلى أنها أول دراسات من نوعها ، تحمل منهجية مقارنية متشددة على طريقة المدرسة الفرنسية التقليدية[٦٨] .

واستمر الإقبال على الدراسات المقارنية في السبعينات ، كما هو منتظر ، وارتقى خطوة جديدة من خلال الرسائل الجامعية التي يعدها الطلاب العرب في الغرب باللغات الأجنبية ، ثم تعاد طباعتها على شكل كتب بالعربية . ومع هذه الموجة بدأت تظهر عنوانات مقارنية دقيقة ليس لها نظير في الماضي مع تحديدات جزئية لزمان الظاهرة المدروسة ومكانها ، وهذا ما كان مثار عيبٍ في الماضي القريب بسبب سيادة النظرة الشمولية التعميمية آنذاك .

وبهذا الصدد قد يكون كتاب الخطيب الذي حمل العنوان المقارني التالي :

سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية :
دراسة تطبيقية في الأدب المقارن (١٩٧٣)

قد يكون هذا الكتاب هو الأكثر تمثيلاً لهذا التطور في الدراسات المقارنية بفضل التزامه المضني بمناهج البحث في الأدب المقارن ، وقد لقي اهتماماً من الباحثين وطبع عدة طبعات[٦٩] .

---

(٦٧) محمد مفيد الشوباشي : رحلة الأدب العربي إلى أوربة ، القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٦٨

(٦٨) جمعت هذه الدراسات في كتاب الدكتور محمد غنيمي هلال : **في النقد التطبيقي والمقارن** ، القاهرة ، دار نهضة مصر ، ١٩٧٥

(٦٩) د . حسام الخطيب : « **سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية : دراسة تطبيقية في الأدب المقارن** » . صدرت الطبعة الأولى في القاهرة عام ١٩٧٣ عن معهد البحوث والدراسات العربية ، ثم أعيد طبعه في دمشق عام ١٩٨١ (اتحاد الكتاب العرب) وعام ١٩٨٥ ، وهناك طبعة خاصة بجامعة دمشق ، وصدرت طبعة منقحة ومعدلة بدمشق أيضاً عام ١٩٩١ . وانظر دراستين للدكتور عبد النبي اصطيف عن الكتاب من زاوية مقارنية : الأولى بعنوان « سبل المؤثرات مخفورة .. » ، **الموقف الأدبي** ، ١٩٧٨/٩ ، والثانية في مقدمة الطبعة الخامسة ١٩٩١

ومن الكتب الجادة المدققة التي تستحق التنويه في السياق الحالي كتاب (**ملامح يونانية في الأدب العربي**) للدكتور إحسان عباس[٧٠] ، ويحدد فيه المؤلف مـاذا ترجم العرب من أدب يونـان قديماً ، ويدرس الطرق التي وظف فيها الأدب العربي الثقافة الإغريقية . ويُعدُّ هذا الكتاب إضافة حقيقية في حقل البحث المقـارني التطبيقي ، وعنـده يقف العرض الحـالي الـذي يقتصر على تقـديم بعض الأمثلة التي استدعاها سياق البحث ، دون أن يدعي استقصاءً أو انتقاء أو مفاضلة[٧١] .

ومع انتهاء عقد السبعينات لوحظ ازدياد ذو شأن في الإقبال على الأبحاث المقارنية التطبيقية بل أصبحت نوعـاً من الزيّ الشـائع (المودة) ، وتشعبت آفـاقهـا وتنوعت اهتمامـاتها لتشمـل فنـون الأدب المختلفـة ، وصـاحبهـا بـالتـدريـج وعيٌ نسبيٌ بـالانتماء إلى حقـل الأدب المقـارن ، وبضرورة الخروج من شرنقة تمجيد الغرب والالتحـاق بـه ، ومقـدرة نـسبيـة أيضـاً على تطبيق منـاهج الأدب المقارن العويصة . وقد سـاعـد انتشـار اللغـات الأجنبيـة في الأوسـاط الجـامعيـة على الاقتراب من الأصول اللازمة للبحث .

---

(٧٠) د . إحسـان عباس : **ملامح يونانية في الأدب العربي** ، بيروت ١٩٧٧

(٧١) ولو كان الأمر خلاف ذلك لوجب ذكر كثير من الأعمال التي لاينكر فضلها .

الفصل الثاني :

من المحاولات التطبيقية إلى التلمس النظري

١ ـ رافد الترجمة في الأدب المقارن

إلى جانب التيار التطبيقي الذي استبق المفهوم والنظرية والمصطلح ، كان هناك رافد الترجمة الذي أتت مواكبته لعملية الانتقال من التطبيق إلى التنظير متواضعة جداً ، خلافاً لما هو منتظر ، ولما كان عليه الشأن بالنسبة لنشوء الفنون والمذاهب الجديدة في الأدب العربي الحديث التي كان للترجمة في انبثاقها دور كبير .

وحتى في الحقل التطبيقي كانت الترجمات نادرة ، ربما لصعوبة الإحالات والإشارات التي بُنيت عليها الأعمال الأصلية ، ولغرابة موضوعاتها وأمثلتها وأسمائها (المغرقة في الآداب الغربية) عن القارئ العربي وكذلك عن المترجم العربي .

وإذا حصرنا الكلام بالحقل النظري ، نجد أنه حتى ثمانينات القرن العشرين ، ظهرت ترجمتان فقط لكتابين يحملان عنوان « الأدب المقارن » : أولهما لبول ڤان تييغم ، وثانيهما لماريوس فرانسوا غويار ، وكلاهما فرنسيان . ولذلك أسباب منها :

١ ـ ندرة الكتب النظرية الخالصة حتى باللغتين الفرنسية والإنكليزية .

٢ ـ غلبة النقل والاقتباس على المؤلفات المقارنية العربية إلى درجة أنه يمكن اعتبار جزء كبير من مادة هذه المؤلفات ترجمة متصرفة وخالية من الإشارة إلى الأصول في أغلب الأحيان[٧٢] .

---

(٧٢) انظر المقارنة التي أجراها سعيد علوش في : مدارس الأدب المقارن ، سابق ، ص ص ٢١٧ ـ ٢٢٣ ، وهو يتتبع بعض الأفكار في هجرتها عن طريق الترجمة أو الاقتباس ، ويقدم نماذج لهذه الهجرة من كتابات د . محمد غنيمي هلال وريمون طحان .

ومن الحق الإشارة هنا إلى أنه فيما عدا المناقشات الجدالية حول حدود الأدب المقارن ووظيفته ، وطبيعة مناهجه ، يمكن القول : إن ما أُنتج من أفكار تتعلق بصلب النظرية محدود جداً حتى في المنابع الأصلية الأوربية ثم الأمريكية ، ثم إن هناك جامعات غربية ما زالت حتى اليوم تنظر إلى الأدب المقارن نظرة لاتخلو من استخفاف أكاديمي ، وتمثل الجامعات البريطانية التقليدية هذا الاتجاه بوضوح .

وعلى أية حال كان كتاب (**الأدب المقارن**) لبول ڤان تييغم أولَ كتاب من نوعه يترجم إلى العربية ، وقد صدر دون إشارة إلى اسم المترجم ومكان النشر وتاريخه ، وتكرر هذا الإغفال العجيب في الطبعات المتعددة التي تلت ؛ فكأن الكتاب ترجمة مهربة لم يكن صاحبها يدري مدى أهميتها . ومن سخرية القدر أن هذه الترجمة المغفلة كان لها أوسع تأثير في تشكيل الذهن المقارني العربي ، واتكأ عليها معظم مدرسي الأدب المقارن وطلابه في الجامعات العربية ، وأخذوا منها أحياناً معترفين بالفضل وأحياناً كثيرة مستبيحين ماليس لهم[٧٣] . وهناك اتفاق عام على أن مترجم الكتاب هو سامي الدروبي[٧٤] ، ومكان نشره مصر (دار الفكر العربي بالقاهرة) ، وتاريخ ظهوره عام ١٩٤٨ في الغالب . وتحدَّد هذه المعلومات عادة دون أي مستند ، وإن كانت ترتكز أحياناً إلى بعض المعلومات الشخصية ، وأحياناً أخرى إلى الفراسة والتخمين . وفيما يتعلق بتاريخ الكتاب هناك من يرجع نشره إلى عام ١٩٤٥ استنتاجاً ، مثل الدكتور الطاهر أحمد مكي الذي يشير مستنداً إلى مقدمة الطبعة الأولى ، الممهورة بتوقيع ناشرها محمد محمود الخضري ، مدير دار الفكر العربي ، إلى أن الترجمة كانت جزءاً من سلسلة اعتزمت دار الفكر نشرها بعنوان : « دائرة المعارف الأدبية العالمية » ، على أن تتناول تاريخ مختلف الآداب القديمة والحديثة ، وكذلك المذاهب الأدبية المختلفة

(٧٣) وقد انتفع منه الناشرون كثيراً لأنه كان مقرراً في معظم الجامعات العربية قبل ظهور التآليف الجامعية . وجرى تصويره وطبعه عدة مرات في القاهرة وبيروت دون أية إضافة أو تنقيح .

(٧٤) مصدرنا العلمي الأساسي هو (دليل الكتب المصرية) الذي ينسب الترجمة إلى سامي الدروبي تحت عنوان (الأدب المقارن) ، القاهرة ١٩٧٢ . ويُعدُّ الدكتور سامي الدروبي من كبار أساتذة الجيل الطليعي في سورية بعد الاستقلال في علم النفس والأدب ، ويعدُّ كذلك من أبرز المترجمين العرب المعاصرين ، ولذلك يستغرب المرء إغفال اسمه في الطبعات اللاحقة على الأقل ، أي بعد أن عرف واشتهر . وقد عثرت على إحدى الطبعات ، الأكثر أناقة من غيرها ، وقد أثبت على الغلاف اسم الدكتور سامي الدروبي . ولكنها أيضاً خالية من أي دليل على مكان الطبع وتاريخه . وهي ليست مصورة ، وفيها تغييرات طفيفة أبرزها إيراد مفردات الفهرس بالتفصيل بدلاً من الإجمال السابق . ويدل نوع الحرف المطبوع ولقب دكتور المضاف إليه اسم المترجم وأناقة الإخراج على أن الطبعة تعود إلى الستينات .

من كلاسيّة ورومنتية ورمزية وغيرها ، ثم الأجناس الأدبية من شعر ورواية وقصة ومسرح ، على أن تنتهي بقاموس أبجدي للأدب العالمي . ويعلق الدكتور مكي على هذه الخطة بأنها خطة طموح ويؤكد « أنها تدخل في نطاق الأدب المقارن جملةً ، ولكنها أكبر من طاقة فرد ، ومن إمكانية دار نشر متواضعة ، ولا أعرف أن شيئاً تحقق من برامجها غير ترجمة (**الأدب المقارن**) هذه التي نعرض لها »[٧٥] .

وبعد عشرين سنة ونيف من ترجمة الدروبي ، ظهرت ترجمة أخرى لهذا الكتاب بقلم (سامي) آخر هو سامي الحسامي ، وإغفال آخر لتاريخ النشر[٧٦] . ولم يظهر لهذه الترجمة أي صدى لأنها لم تثبت بأي وجه تفوقاً على الترجمة الأولى أو تدقيقاً لبعض ما جاء فيها . ومن الإنصاف أن نشير إلى أن لغة الترجمة الأولى (الدروبي) أكثر صفاء وسلاسة وهي تدل على تفهم أوسع للموضوع في حين أن لغة الحسامي تحاول أن تقترب اقتراباً حرفياً من الأصل[٧٧] .

والكتاب الثاني الذي يلي كتاب ڤان تييغم في التسلسل الزمني هو كتاب (الأدب المقارن) لماريوس ـ فرانسوا غويار ، وقد ظهرت ترجمته في القاهرة عام ١٩٥٦ ، وكان تأثيره محدوداً ، لأن ڤان تييغم ظلّ المستند الأول عند أتباع المدرسة الفرنسية من جهة ، ولأن الترجمة ـ من جهة أخرى ـ أتت مشحونة بالأغلاط المطبعية ومفتقرة إلى أية مسحة شكلية مقبولة[٧٨] .

وبعد هذين الكتابين لا تظهر أية عنوانات كاملة في الأدب المقارن المترجم حتى مطلع الثمانينات ، وإن كانت تظهر في الدوريات الأدبية بعض الترجمات المهمة وفي بعض الكتب العامة ، وعلى قلة أيضاً .

ومن الإنصاف الإشارة إلى ترجمتين كان لهما تأثير فاصل في لفت النظر إلى وجود مفهومات أخرى في الأدب المقارن إلى جانب المفهوم الفرنسي الأصلي الذي ظلّ معتمداً في الجامعات والتآليف

---

(٧٥) د . الطاهر أحمد مكي : **الأدب المقارن : أصوله وتطوره ومناهجه** ، سابق ، ص ١٨٨

(٧٦) ب . ڤان تييغم : « **الأدب المقارن** » ، تر . سامي مصباح الحسامي ، بيروت ـ صيدا ، المكتبة العصرية ، بلا تاريخ . وقد عثرت على إشارات لهذا الكتاب في بعض فهارس دور النشر اللبنانية . ومن خلال المطابقة بينها صحّ لدي أنه ظهر عام ١٩٦٨ . وقد سبقت الإشارة إلى هذه الترجمة في القسم الأول من الكتاب الحالي من خلال نص مقتبس منها .

(٧٧) يؤلف موضوع الترجمات مشكلة عويصة يعنى بها الأدب المقارن من ناحية تأثيرها في نقل الأفكار وفعالية هذا التأثير .

(٧٨) ماريوس ـ فرانسوا غويار : **الأدب المقارن** ، تر . محمد غلاب ، القاهرة ، سلسلة ألف كتاب ـ ٤٤ ، ١٩٥٦ . وقد ظهرت للكتاب ترجمة ثانية في بيروت عام ١٩٧٨
ماريوس ـ فرانسوا غويار: **الأدب المقارن**، تر. هندي زغيب، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٧٨ ط١، ١٩٨٨ ط٢.

العربية اعتماداً تاماً حتى نهاية السبعينات على الأقل . (بتأثير ريادة محمد غنيمي هلال طبعاً) . وهاتان الترجمتان هما :

ـ « الأدب العام والمقارن والقومي » ، فصل من كتاب **نظرية الأدب** الذي ظهر مترجماً إلى العربية عام ١٩٧٢[٧٩] .

ـ « الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الإنساني »[٨٠] ، والنصف الأول من هذه الدراسة يعرف بالمشكلة المنهجية للأدب المقارن ، على حين أن نصفها الثاني يترجم بدقة نظرية هنري رماك .

وتنبع أهمية هاتين الترجمتين من كونها تمثلان أبرز اتجاهين في المدرسة الأمريكية التي أخذت تطغى على المدرسة الفرنسية في العالم ابتداء من السبعينات .

وفي الثمانينات ظهر عنوانان مقارنان عن وزارة الثقافة بدمشق وهما :

١ ـ انكسارات ، مقالات في الأدب المقارن لهاري ليفن ، ١٩٨٠ . ومعظم الكتاب مقالات تطبيقية حول جذور الأدب الغربي وعلاقاته .

٢ ـ الدراسات الأدبية المقارنة ، مدخل ، لبراڤر ، ١٩٨٦[٨١] .

كما ظهرت ترجمة كتاب « الأدب المقارن » بيشوا وروسو عن الكويت[٨٢].

---

(٧٩) رينيه ولك وأوستن وارين : « **نظرية الأدب** » ، وقد سبقت الإشارة الكاملة إلى هذا الكتاب ، وللحقيقة نذكر أن هذه الترجمة التي قام بها محي الدين صبحي وراجعها حسام الخطيب ظهرت باقتراح من الأخير وكانت جزءاً من خطة لترجمة سلسلة نقدية من الإنكليزية إلى العربية .

(٨٠) د . حسام الخطيب : « الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الإنساني » ، **المعرفة** ، جـ ١ ، ع ٢٠٤ ، ١٩٧٩/٢ . جـ ٢ ، ع ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ، ٣ ـ ١٩٧٩/٤ . جـ ٣ ، ع ٢٠٧ ، ١٩٧٩/٥

ويمكن القول إن هذه السلسلة من المقالات تعدُّ حتى اليوم أكمل تعريف بمذهب رماك ، وقد تبعتها مقالات أخرى للخطيب حول إسهامات رماك اللاحقة وذلك في دوريات عربية مختلفة أبرزها الآداب الأجنبية .

(٨١) عنوان الكتاب الأول بالإنكليزية: Harry Levin: **Essays in Comparative Literature.**

عنوان الكتاب الثاني : Prawer: **Comparative Literary Studies, An Introduction.**

ويعود هذا الكتاب إلى عام ١٩٧٣ ، وقد سبق ذكر الكتابين أعلاه .

(٨٢) كلودبيشوا وأندريه ـ ميشيل روسو: **الأدب المقارن**، ترجمة وتعليق رجاء عبد المنعم جبر، الكويت، مكتبة دار العروبة، ١٩٨٠.

وهكذا تستمر محدودية دور الترجمة في الأدب المقارن العربي . ومما يلفت النظر أيضاً قلة ترجمات المغرب العربي في هذا الحقل الذي كان الفرنسيون رواده . وقد شهدت الثمانينات ، على أية حال ، ظهور ترجمات متخصصة بالأدب المقارن في الدوريات الأدبية الجادة[٨٣] ، ولكن ظلّ نصيب الجانب النظري الذي عنه نتحدث هنا محدوداً جداً . وأبرز هذه الدوريات الآداب الأجنبية (دمشق) وعالم الفكر (الكويت) وفصول (القاهرة) .

٢ ـ الريادة النظرية
العنوان الأول والنص الأول
لخليل هنداوي

تمهيد :

درجت المصادر المعروفة حول تاريخ الأدب المقارن العربي على نسبة الريادة المصطلحية والنظرية إلى فخري أبو السعود من خلال سلسلة مقالات بهذا العنوان نشرها في الرسالة عام ١٩٣٦ . في البحث الحالي محاولة علمية لتصحيح هذا التاريخ شكلاً ومضموناً وتثبيت تاريخ جديد مفاده أن خليل هنداوي كان أسبق من غيره إلى استخدام المصطلح ، وكان الكاتب الوحيد في الثلاثينات الذي قدّم في الدوريات العربية تحديداً للمدلول الذي ينطوي عليه هذا المصطلح .

من أجل التنقيب في هذه الناحية ، وفي تاريخ الأدب المقارن العربي بوجه عام ، روجعت معظم الدوريات الأدبية العربية المهمة ، ولا سيا خلال النصف الأول من القرن العشرين مثل **المقتطف** ، الرسالة ، الثقافة (مصر) وبنتيجة التفحص تبين ما يلي :

ـ ليس لمصطلح (الأدب المقارن) وجود في فهارس مجلة **المقتطف** (١٨٧٦ ـ ١٩٥٢) .

ـ كانت الرسالة هي السباقة إلى استخدام هذا المصطلح عام ١٩٣٦ . ولكنه اختفى من صفحاتها بعد هذا العام ، فكأنه كان طفرة لم تستمر .

---

(٨٣) كتب إليّ مجدداً الدكتور عبد المجيد حنون ، من جامعة عنابة بالجزائر ، أنه يوشك أن ينتهي ، بالاشتراك مع زميل له ، من إنجاز ترجمة كتاب (ماالأدب المقارن) . وأظن أنه يشير إلى الطبعة المعدلة من كتاب كلود بيشوا وأندريه روسو التي شارك فيها بيير برونل . وكانت الطبعة الأصلية ظهرت في باريس عام ١٩٦٧ . (من رسالة بتاريخ ١٩٩١/١١/٢٨) .

- ظهر المصطلح في **الثقافة** عام ١٩٤١ ، ولكن على شكل عنوان فرعي ، ولم يتكرر كثيراً حتى نهاية الأربعينات .

- في نهاية الأربعينات بدأ يتكرر المصطلح ، ولكن أيضاً على قلة ، ومن أبرز إطلالاته عنوانان بقلم المقارني الفرنسي المعروف إيتيامبل Etiémble ظهرا في **الكاتب المصري** (رئيس التحرير طه حسين) عامي ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ وكتبا خصيصاً للمجلة .

- تظهر مجلة **الآداب** اللبنانية ـ العربية فقراً شديداً في استعمال المصطلح ، وهي التي حملت رسالة الثقافة العربية من **الرسالة** المصرية .

- تظل الدوريات العربية حتى الآن قليلة الاحتفال بالمصطلح .

- نشط المصطلح في السبعينات من خلال مجلة **المعرفة** (دمشق) ، وفي الثمانينات من خلال **المعرفة والآداب الأجنبية** (دمشق) **وفصول** (القاهرة) .

- ظهرت بعض الأعداد الخاصة بالأدب المقارن ابتداء من السبعينات أبرزها أعداد **المعرفة** (دمشق) ، **عالم الفكر** (الكويت) ، **الآداب الأجنبية** (دمشق) ، **الموقف الأدبي** (دمشق) ، **فصول** (القاهرة) .

وهذه مجرد مقدمة تعريفية وإطار للبحث الحالي ، لذلك لم تقرن بالتوثيق اللازم هنا ، وسوف تنشر هذه المادة العلمية الموثقة في فرص لاحقة .

العنوان الأول :

خلافاً لكل مانشر سابقاً في هذا الموضوع ، يتبين من مراجعة الدوريات العربية ذات الاتجاه الأدبي منذ أوائل القرن العشرين إلى منتصفه[٨٤] أن أول استعمال محدد لمصطلح (الأدب المقارن)

(٨٤) في سبيل التوصل إلى النتائج النوعية التي يقدمها البحث الحالي جرت مراجعة منظمة للدوريات التالية :

١ ـ **المقتطف** ، مصر ، ١٨٧٦ ـ ١٩٥٢ ، فؤاد صروف .

٢ ـ **الرسالة** ، مصر ، ١٩٣٣ ـ ١٩٥٣ ، أحمد حسن الزيات .

٣ ـ **الثقافة** ، مصر ، ١٩٣٩ ـ ١٩٥٣ ، أحمد أمين .

٤ ـ **الطليعة** ، سورية ، ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩ (سلسلة غير منتظمة) .

٥ ـ **الكاتب المصري** ، مصر ، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ ، طه حسين .

=

ظهر بقلم خليل هنداوي (حلب - سورية) على صفحات مجلة **الرسالة**(٨٥) المصرية بتاريخ ١٩٣٦/٦/٨(٨٦) من خلال العنوان الطويل التالي :

ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي
اشتغال العرب بالأدب المقارن
أو ما يدعوه الفرنجة «Littérature Comparée»
في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر
لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد
- تلخيص وتحليل -
للأستاذ خليل هنداوي

وقد تكرر العنوان نفسه في أعداد ثلاثة تالية ، إذ نشر بحث الهنداوي مُنجّماً على عادة الرسالة في ذلك الحين ، والمرجح أن مصطلح (الأدب المقارن) اكتسب شيئاً من الذيوع بفضل هذا العنوان المثير الذي تكرر في أربعة أعداد متلاحقة(٨٧) ، ربما للمرة الأولى في تاريخ الصحافة الأدبية العربية ، وكذلك طبعاً في تاريخ الكتاب العربي الذي لم يعرف هذا العنوان قبل عام ١٩٤٨ .

= وهذه هي المجلات التي كانت مظنة ظهور مصطلح (الأدب المقارن) . ومع ذلك جرى تصفح غير منظم لأعداد كثيرة من المجلات والدوريات العربية لتلك الفترة وتبين أنها بعيدة عن الموضوع كلياً ، مثل مجلات مجامع اللغة العربية ، والمجلات الأدبية المحافظة نسبياً .

(٨٥) كانت **الرسالة** أهم مجلة أدبية عصرية طوال فترة الثلاثينات على اتساع الوطن العربي كله ، ولم تتعرض لمنافسة جدية إلا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، إذ برزت في مصر مجلة **الكاتب المصري** بوجه خاص ، وفي لبنان مجلة **الأديب** ، التي يرجع ظهورها إلى وقت أبكر نسبياً (١٩٤٢) .

(٨٦) **الرسالة** ، ع ١٥٣ ، س ٤ ، في ١٩٣٦/٦/٨ ، ص ٩٣٨

(٨٧) بالإضافة إلى العدد ١٥٣ من **الرسالة** ظهر العنوان نفسه في الأعداد الثلاثة التالية :
- ع ١٥٤ ، س ٤ ، ١٩٣٦/٦/١٧ ، ص ٦٧٨
- ع ١٥٥ ، س ٤ ، ١٩٣٦/٦/٢٢ ، ص ١٠١٥
- ع ١٥٦ ، س ٤ ، ١٩٣٦/٦/٢٩ ، ص ١٠٦

ويرجع الفضل للدكتور صالح جواد الطعمة (جامعة إنديانا) في لفت انتباهي للمرة الأولى إلى هذه المقالات في مجلة **الرسالة** .

إن هذا السبق التاريخي إلى استعمال مصطلح (الأدب المقارن) مقروناً برديفه الفرنسي ، أو أصله على الأصح ، شديد الأهمية في تاريخ الأدب العربي الحديث . ويزيد الأمر أهمية أن الدراسات السابقة لتاريخ الأدب العربي المقارن ، بما فيها دراسات كاتب هذه السطور ، لم تلتفت إلى هذا السبق ، وكانت تنسب الريادة لفخري أبو السعود في سلسلة مقالاته عن الأدب المقارن في مجلة الرسالة نفسها وفي السنة نفسها .

ومن أقدم الدراسات التي ثبتت هذا الحكم ـ بل ربما كانت الأقدم إطلاقاً ـ دراسة محمد يوسف نجم الرائدة بعنوان (العناية بالأدب المقارن) ، وهي تبدأ على النحو التالي بحكم ليس فيه أي تحفظ :

« أول من عُني بالأدب المقارن في الأدب العربي الحديث هو المرحوم فخري أبو السعود في تلك المقالات التي نشرها على صفحات الرسالة سنة ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧ ، وقارن فيها بين الأدبين الإنجليزي والعربي »[٨٨] .

إلا أن معظم الأحكام المتعلقة بالبدايات الأولى للمصطلح استقت من دراسة تالية مفصلة للأستاذ عطية عامر ـ وهو من أوائل المتخصصين في الأدب المقارن في مصر . وفي هذه الدراسة التي قدمها المؤلف للمؤتمر التحضيري للرابطة العربية للأدب المقارن (عنابة ـ الجزائر ، ١٩٨٣) ونشرها في مجلة فصول[٨٩] القاهرية عام ١٩٨٣ ، يعلق على عنوان جانبي لإحدى مقالات فخري أبو السعود (في ١٩٣٦/٩/٢١) وضع قبل العنوان الرئيسي للمقالة وظهر فيه مصطلح (في الأدب المقارن) بقوله : « هذا العنوان الجانبي هو (في الأدب المقارن) وهذه أول مرة ـ في رأينا ـ يظهر فيها اصطلاح (الأدب المقارن) في تاريخ الدراسة الأدبية العربية في مصر »[٩٠] . ولا تشير هذه الدراسة إلى تقرير محمد يوسف نجم الذي ذُكر آنفاً ، وكذلك تغفل مقالات خليل الهنداوي التي سبقت الإشارة إليها ، والتي ظهرت قبل ذلك بثلاثة أشهر فقط ، وحملت عنوان : (الأدب المقارن) بشكل رئيسي ، كأنها لم تلفت نظر عطية عامر ، ربما لأنه كان يتتبع فخري أبو السعود

---

(٨٨) د . محمد يوسف نجم : (٤ ـ العناية بالأدب المقارن) ، من كتاب الأدب العربي في آثار الدارسين ، بيروت ، دار العلم للملايين . ص‌ص ٢٧٠ ـ ٢٧١

(٨٩) عطية عامر : (تاريخ الأدب المقارن في مصر) ، فصول ، الأدب المقارن ـ جـ٢ ، ع٤ ، م٣ ، ١٩٨٣ ، ص‌ص ١٣ ـ ٢٢

(٩٠) المصدر السابق . ص ١٨

فقط . والواقع أن مقالات فخري أبو السعود تثير مشكلة لم يجر الالتفات إليها قبل الآن ، ربما بتأثير حماسة الاكتشاف التي تطغى على الباحثين في حالات كثيرة ، وهذه المشكلة ذات شقين :

الأول : هل كان العنوان الفرعي الصغير (من الأدب المقارن) من وضع فخري أبو السعود ؟ أم من وضع محرر المجلة ؟

الثاني : هل كان لدى أبي السعود وعي ، ولو نسبي ، أن الأدب المقارن هو نظام معرفي أو تخصص أدبي ذو شخصية نوعية ؟

وبالنسبة للشق الأول من المشكلة يميل المرء إلى التأكيد أن العنوان الفرعي (في الأدب المقارن) كان من وضع محرر مجلة **الرسالة** للأسباب التالية :

أ ـ أتى المقال الذي حمل شارة (في الأدب المقارن) وسط سلسلة من المقالات الرائدة التي كتبها فخري أبو السعود في موضوع المقارنة أو التأثير المتبادل بين الأدب العربي والأدب الإنكليزي ، وأحياناً الأدب الغربي بوجه عام . ويحمل المقال المعني العنوان التالي :

« **في الأدب المقارن :**
الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والإنجليزي »[(٩١)]

وكان فخري أبو السعود قد نشر قبل ذلك خمسة مقالات على الأقل في موضوعات مقارنية وأتت خالية من شارة الأدب المقارن ، كان أولها عام ١٩٣٥ بعنوان :

« ظواهر متماثلة في تاريخي الأدبين العربي والإنكليزي »[(٩٢)] .

ومعظم هذه المقالات ذو طبيعة مقارنية واضحة ، ومع ذلك لم تشر أي من مقالاته هذه إلى مصطلح الأدب المقارن أو مفهومه ، لا من قريب ولا من بعيد ، وفجأة يأتي المقال المعني « الأثر الأجنبي .. » ويحمل شارة (في الأدب المقارن) ، ثم تستمر هذه الشارة مع مقالات أبي السعود المتلاحقة ، ولا يلاحظ الإنسان أي فارق بين المقالات التي سبقت شارة الأدب المقارن

---

(٩١) فخري أبو السعود : « الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والإنجليزي » ، الرسالة ، ع١٦٨ ، س٤ ، ١٩٣٦/٩/٢١ ، ص‌ص ١٥٣٤ ، ١٥٣٥ ، وهي مقالة عامة تشير إلى أن الإنكليز أغنوا آدابهم عن طريق الاتصال بالآخرين ، في حين أن الأدب العربي قصر في التفاعل مع الآداب الأخرى ولذلك لم يتطور .

(٩٢) الرسالة ، ع٨ ، س٢ ، ١٩٣٥/١/١٤ ، ص‌ص ٥٥ ـ ٦٠

والمقالات اللاحقة التي حملتها ، مما يؤكد بوضوح أن هذه الشارة من وضع محرر مجلة **الرسالة** ، الذي لم يكن يترك أي مقال دون أن يضع عليه تصنيفاً محدداً ، مثل : في الأدب الغربي ، في الأدب الفرنسي ، القصة ، ذكريات وتجارب ، الترجمة ، فصول ملخصة من الفلسفة اليونانية ، إلخ . ثم إن عطية عامر يتناول الموضوع تناولاً شكلياً ولا يذهب إلى ما هو أبعد من المصطلح ، أي لا يسأل هل تكشف مقالات (أبو السعود) عن أية إشارات إلى فهم المصطلح ، مع أن محمد يوسف نجم الذي سبقه بعقدين من الزمن تطرق إلى هذا الموضوع وانتهى فيه إلى الجزم الواضح بخلوّ ذهن (أبو السعود) من نظرية الأدب المقارن ، وهو استنتاج صحيح تماماً . يقول د . نجم :

« والحقيقة أن هذه المقالات تناولت هذين الأدبين من حيث وجوه الشبه والاختلاف ، دون الاعتماد على نظريات الأدب المقارن التي تعنى بدراسة الأدب القومي في علاقاته التاريخية بغيره من الآداب خارج حدود اللغة والقومية التي كتب بها ... »[٩٣] . وكذلك مما يشير إلى أن عطية عامر لم يكن مبرأ من التسرع في معالجته لموضوع فخري أبو السعود أنه يقرّر أن خاتمة مقالات (أبو السعود) كانت في نهاية عام ١٩٣٦ بمقال : « أثر الترف في الأدبين العربي والإنجليزي »[٩٤] ، ويبدو أن عامراً لم يكمل قراءة فهرس مجلد عام ١٩٣٧ ، ذلك أن فخري أبو السعود استمر في نشر مقالاته ذات الطابع المقارني ، مع ازدياد جرأته في المغامرة المقارنية بين الأدبين العربي والإنكليزي[٩٥] ، مما يزيد في تقديرنا لريادته في باب المقارنة التطبيقية ، ولكن ليس من ناحية السبق إلى المصطلح أو السبق النظري بوجه عام ، كما ذكرنا آنفاً .

وقد حمل آخر مقال له من هذه السلسلة عنوان : « التشابه والاختلاف في الأدبين العربي والإنجليزي »[٩٦] ، وكان ذلك في ١٩٣٧/٦/٢٨ ، وبعد ذلك توقف أبو السعود عن نشر مثل هذه المقالات واتجه إلى الشعر . ولكن المجلة أيضاً توقفت عن استخدام شارة الأدب المقارن ونسي هذا المصطلح تماماً حتى توقفها الأول عام ١٩٥٣ ، وذلك على الرغم من أنها ظلت تفسح المجال عريضاً لدراسات أو مقالات مشابهة لمقالات فخري أبو السعود ، ولا سيما مقالات جريس القسوس

(٩٣) د . نجم : « العناية بالأدب المقارن » ص ٣٧٠ ، في : **الأدب العربي في آثار الدارسين** ، سابق .

(٩٤) **الرسالة** ، ع ١٨٢ ، س ٤ ، ١٩٣٦/١٢/٢٨ ، ص ص ٢١١٤ - ٢١١٧

(٩٥) يلاحظ القارئ : أنني أكتب كلمة إنكليزي بالكاف ، وأحافظ على الطريقة الشائعة في كتابتها بالجيم كلما وردت مقبوسة . والحق أن المسألة محيرة ، فلماذا لا تكتب بالغين ، شأنها شأن : غوغول ويوغسلافيا وأوغندا .

(٩٦) **الرسالة** ، ع ٢٠٨ ، س ٥ ، في ١٩٣٧/٦/٢٨

(الأردن) حول موضوعات من الأدب العربي والأدب الإنكليزي[٩٧] ، وبعضها ظهر مع مقالات أبو السعود ولكنه لم يحمل شارة (الأدب المقارن) وإنما حمل شارة (في الأدب الإنجليزي) .

ب ـ ومما يرجح أن المجلة هي التي كانت تضيف هذه العنوانات الفرعية أو الشارات حذف هذه العنوانات من الفهرس الأسبوعي وكذلك من الفهارس العامة السنوية التي كانت تنشرها الرسالة . ومن هنا كان الباحث الذي يكتفي بمراجعة فهارس الرسالة لا يقع على عنوانات الأدب المقارن التي تخص فخري أبو السعود ، في حين أنه يقع على عنوان خليل هنداوي ، « اشتغال العرب بالأدب المقارن » لأنه عنوان رئيسي من وضع المؤلف نفسه . ومما يدعم هذه الحجة ويزيد المرء يقيناً أن المجلة نفسها لم تكتف بعنوان خليل هنداوي الطويل نسبياً بل أضافت له من عندها شارة خاصة فكان هناك عنوان فرعي في رأس الصفحة على الشاكلة التالية :

« ضوء جديد على الأدب العربي » ، وظهر هذا العنوان في المقالات الأربع جميعاً .

وهكذا لو قصرت المناقشة على الناحية التاريخية الشكلية الخالصة لكان من المؤكد أن قصب السبق في اعتماد مصطلح « الأدب المقارن » يعود إلى خليل هنداوي الذي استخدمه بتاريخ ١٩٣٦/٦/٨ ، وليس لفخري أبو السعود الذي استخدمه ، أو استخدمته المجلة ، ربما لتزيين مقاله بتاريخ ١٩٣٦/٩/٢١ ، وربما أيضاً تأثُّراً بسبق الهنداوي .

الشق الثاني (المشكلة المعرفية) :

وبانتهائنا من مناقشة الشق الأول نكون قد فرغنا من بحث الجانب الشكلي الخارجي من قضية تاريخ المصطلح ، ورجحنا أن يكون خليل هنداوي هو الأسبق . والحق أنه لو تركت جميع الحجج جانباً وقرئ فهرس الرسالة بالتسلسل التاريخي ، بصرف النظر عن التحقق من واضع شارة الأدب المقارن ، يكون خليل هنداوي هو الأسبق بثلاثة أشهر .

على أن الشق الثاني من المسألة ، وهو المتعلق بالمشكلة المعرفية ، لا يقل أهمية عن الشق الأول في إثبات سبق الهنداوي . وربما كان الهنداوي صاحب أول نص عربي (مفهومي) في موضوع الأدب المقارن ، ومن حق هذا النص أن ينشر على الملأ ، وهذا ما سوف نفعله في نهاية هذا المقال .

---

(٩٧) من جملة مقالات جريس القسوس مقال ذو أهمية خاصة من حيث الموضوع بعنوان :
« شكسبير والأدب العربي » ، الرسالة ، ع ٢٠٧ ، ١٩٣٧/٦/١٢ ، ص ص ١٠٢٤ ـ ١٠٢٦

فإذا بدأنا بفخري أبو السعود نجد أن استخدام شارة الأدب المقارن فجأة في منتصف سلسلة مقالاته لم يقدم ولم يؤخر شعرة واحدة ، لا في منهج العرض ولا في بؤرة التركيز ، وتكاد مقالاته تكون حلقة متجانسة من المقابلات بين الأدب العربي والأدب الإنكليزي أو الغربي بوجه عام . وإنه ليمسُّ أحياناً صلب موضوعات الأدب المقارن كما عرفت في فرنسا في الثلاثينات على يد بول ڤان تييغم[٩٨] ، وجان ـ ماري كاري ، وماريوس فرانسوا غويار[٩٩] ، فهو مثلاً يتحدث عن التأثر والتأثير والعلاقات والتماثلات ولا سيما في مجال الظواهر التاريخية ، وغير ذلك . إلا أنه ، مع ذلك ، لم يشر ـ ولو مرة واحدة ـ في سلسلة هذه المقالات إلى الحقل المعرفي الذي تنضوي تحت لوائه هذه الموضوعات ، وبالطبع ليس من واجب كل إنسان إذا كتب أن يقول : إنني أكتب في التاريخ أو الجغرافية والأنتروبولوجيا (وإن كان ذلك أفضل) ، ولكن من واجب أي رائد لحقل جديد تماماً أن ينبِّه ـ إذا كان على بيِّنة من أمر ما يفعله ـ إلى أهمية الحقل الجديد الذي يطرقه وكذلك إلى طبيعته ومنهجيته . ويلاحظ شيء من عزوف (أبو السعود) عن أية مناقشة نظرية للمصطلحات ، ربما بتأثير حرارته الداخلية في عملية الموازنة العربية الإنكليزية ، فمثلاً حين يقارن بين (الرومانسية والكلاسية في الأدبين العربي والإنكليزي)[١٠٠] ، لا يكلف نفسه أية مشقة في مناقشة المصطلح ، لا من حيث الصياغة ولا من حيث المدلول : مع أن هذا الأمر كان يستحق منه التفاتة لأنه ، من ناحية الصياغة على الأقل ، خرج نسبياً عن المصطلح الذي شاع في مصر حينذاك وهو الرومنتيكية والكلاسيكية ، وكان له الفضل في السبق إلى المصطلحين (الرومانسية والكلاسية) ، اللذين لقيا قبولاً متزايداً فيما بعد على مستوى الوطن العربي كله ، ولكن بشكل أبطأ في مصر . أما إذا اعتمد المرء ـ كما اعتمد عطية عامر على تأكيد الريادة بفضل انضواء موضوعات (أبو السعود) في منطقة الأدب المقارن ، فهناك حجج ووقائع في الرسالة نفسها من شأنها أن تحجب عن (أبو السعود) أي سبق بارز . ذلك أن موضوع المقارنات والمقابلات لم يكن جديداً ، بل هو قديم قدم عصر النهضة ، بدأ مع الطهطاوي والشدياق ونجيب حداد ، وتبلور في مطلع

(٩٨) ترجم كتاب « الأدب المقارن » لڤان تييغم عام ١٩٤٨ على الأغلب ، دون ذكر اسم المترجم ، ويرجح بعضهم أن يكون سامي الدروبي هو المترجم . وفيما بعد ظهرت ترجمة أخرى للكتاب في لبنان . سبقت الإشارة إليها . وكان هذا الكتاب هو الأكثر تأثيراً في الجيل الأول من مدرسي الأدب المقارن في الجامعات العربية .

(٩٩) ترجم كتاب غويار في مصر عام ١٩٥٦ ـ كما أسلفنا ـ وكانت طباعته سيئة ، مما أسهم في الحد من تأثيره .

(١٠٠) فخري أبو السعود : « الرومانسية والكلاسية في الأدبين العربي والإنكليزي » ، الرسالة ، ع١٩٢ ، س٥ ، ١٩٣٧/٣/٨ ، ص ص ٣٦٧ ـ ٣٧٣

القرن العشرين على روحي الخالدي وسليمان البستاني . وفي الرسالة نفسها كان هناك التزام منذ العدد الأول بإعطاء أفضلية واضحة للأبحاث ذات الطابع المقارني التطبيقي . ولو كانت المناقشة ذات منحى تطبيقي خالص لكان د . عبد الوهاب عزام هو صاحب الفضل والسبق ، فمنذ العدد الثاني من الرسالة بدأ بنشر سلسلة مقالات عن « الأدب الفارسي والأدب العربي »(١٠١) . ومن هنا نبدأ - كما كان يقول خالد محمد خالد ، ذلك أن أقرب شيء إلى الأدب العربي من الناحية المقارنية هو الآداب الإسلامية ، وقد أكمل عزام السلسلة في بضعة أعداد لاحقة ، ثم حصر كلامه بالأدب الفارسي بعد ذلك من خلال سلسلة طويلة من المقالات ، لم تنقصها المقابلات ولا دراسة التأثيرات التاريخية . والحق أن الدوريات العربية في مصر كانت تعجُّ في الثلاثينات بأمثال هذه المقارنات التطبيقية ، ومنها مقالات ماريوس شميِّل في المقتطف(١٠٢) ، وكذلك حسن رشيد نور(١٠٣) ، ودريني خشبة ، وعباس محمود العقاد ، وطه حسين وغيرهم .

ومما يلفت النظر أن فخري أبو السعود وقع ضحية المبالغات المسرفة ، ولا سيما من قبل أنصاره المتحمسين ، وكادت المبالغات تذهب بفضله ، فعطية عامر مثلاً يتحدث عنه بصيغ تنظيرية باهرة لاتنسب إلا لكبار المقارنين من مثل قوله :

«... أي أنه كان من أنصار الاتجاه النقدي في دراسة الأدب المقارن ، ولم يكن من أنصار الاتجاه التاريخي » .

ولا يكتفي عامر بذلك بل يسجل لصاحبه سبقاً مؤزراً على المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن التي اهتدت إلى الاتجاه النقدي في رأيه « ابتداء من عام ١٩٤٩ ، أي بعد فخري أبو السعود » . وهكذا في رأي عطية عامر « من حقنا أن نقول إن فخري أبو السعود قد خرج

---

(١٠١) د . عبد الوهاب عزام : « الأدب الفارسي والأدب العربي » .
الرسالة ، ع٢ ، س١ ، ١٩٣٣/٢/١ ، ص ص ١٧ - ١٨

(١٠٢) من أقرب المقالات إلى اهتمامات المقارنية الفرنسية مقالة ماريوس شميِّل بعنوان:
« لامارتين في ربوع الشرق » ، **المقتطف** ، مجلد ٨٣ ، جـ٢ ، ١٩٣٣/٦ ، ص ص ١٣٩ - ١٤٤

(١٠٣) يمكن أن نذكر هنا مقالته ذات الطابع الأثير لدى المقارنين الفرنسيين والأوربيين بوجه عام في تلك الفترة : حسن رشيد نور : « مصر في الأدب الألماني » .
المقتطف ، مجلد ٨٣ ، جـ٣ ، أكتوبر ١٩٣٣ ، ص ص ٢٩١ - ٣٠١ ، والعدد الذي يليه ، ١٩٣٣/١١ ، ص ص ٤٦٥ - ٤٧٤

بالأدب المقارن من مجال الاتجاه التاريخي قبل أن تبدأ المدرسة الأمريكية ثورتها ضد الاتجاه التاريخي »[١٠٤] .

ومقابل هذه الأحكام التمجيدية ، نجد مؤرخاً آخر للأدب المقارن ينفي عن (أبو السعود) أية صلة بهذا الحقل ، وهو الدكتور طاهر مكي الذي يشيد بدوره النقدي ولكنه يقطع ببعده عن الأدب المقارن : « أورد الكاتب أبحاثه التي سبقت كلها تحت عنوان جانبي هو (الأدب المقارن) لكنها في الحق ليست منه في شيء . وإنما هي ألوان من الموازنات بين الموضوعات قد تتشابه ، أو تختلف ، عَرَضاً بين الأدبين العربي والإنكليزي ومن ثمَّ فهي لا تدخل تحت مفهوم الأدب المقارن .. »[١٠٥] .

ويصف الدكتور مكي كتابات فخري أبو السعود بأنها كانت « مجرد إرهاصات باكرة قامت على أساس من المغامرة الفردية ، ولم يكن لها أي صدى في الحياة الأدبية ... » ويلاحظ كذلك « أنه لم يعلق عليها أحد بشيء ولم تفتح الباب أمام باحث آخر »[١٠٦] .

وخلافاً لما يحدث في مثل هذه الحالات المختلف عليها ، لا نظنّ أن الحقيقة تكمن في وسط العصا ، بل ـ مثلما أوضحنا سابقاً ـ تصعب نسبة الريادة النظرية أو التطبيقية في الأدب المقارن لفخري أبو السعود ، وإنما كان هاجسه يدور في إطار النقد الأدبي ، وهو أيضاً شاعر مبدع .

وسوف يقع أي قارئ في خطأ فاحش إذا ظن أن غرض هذا الكلام النيل من دور فخري أبو السعود في الدراسة الأدبية والنقدية . فهذا الرجل يعد من أوائل الدارسين ذوي النزعة النقدية العصرية ، وكان واسع الأفق شديد الإخلاص لعلمه ومبادئه ، وما نظن إلا أن ظلماً شديداً أحاق به من ناحية الإهمال على الأقل ، والجميع مطالبون بإنصافه ، ولكن الحقائق التاريخية والعلمية هي صاحبة الاعتبار الأول[١٠٧] .

---

(١٠٤) عطية عامر : تاريخ ...، ص ١٩

(١٠٥) د . الطاهر مكي : الأدب المقارن ، سابق ، ص ١٨١

(١٠٦) السابق ، ص ١٨١

(١٠٧) كان من حق هذا الاستطراد أن يظهر في الحاشية ، ولكن جرى إصرار متعمد على تضمينه في المتن تأكيداً لقناعة المؤلف بضرورة إنصاف (أبو السعود) من خلال معالجات تتناسب مع زيادته .

أما خليل هنداوي فهو الآخر أحاق به ظلم شديد ، إذ لم يشر أحد من قبل إلى نصه الرائد حول مصطلح الأدب المقارن ومدلوله . وإلى أن تظهر وثائق جديدة يمكن القول : إنه أول من استخدم هذا المصطلح وشرحه من خلال وعي نوعي لا تحسس عام . وقد كتب الهنداوي مقدمة لبحثه عن شرح ابن رشد ، في مقاله الذي جرى استهلال البحث الحالي به ، بلغ تعداد كلماتها (٢٧٠٠ كلمة) ، أي ما يكفي لأية مقالة تأسيسية مركزة على الطريقة العصرية ، وكشف فيها عن وعي نظري مبكر ، على الأقل من النواحي التالية :

أ ـ فرق منذ البدء بين المقارنة بمفهومها العام وبين المقارنات الحديثة النشأة ، وأشار إلى أن الأدب العربي القديم حفل بأشكال المقارنات في الماضي . وحدد الفارق الأساسي بين الطريقتين في أن المقارنات التي عرفها العرب سابقاً كانت تجري بين أديبين ينتميان إلى لغة واحدة وأدب قومي واحد ، في حين أن المقارنات الحديثة تجري « بين أدباء أمتين مختلفتين ثقافةً واتجاهاً وشعوراً »[١٠٨] .

ب ـ أشار إلى أن الأدب العربي القديم كان « سيد نفسه ، لا يميل إلى اقتباس قواعد البلاغة من غيره » ، لذلك طوى العرب الأدب اليوناني لأنه لم يُرْقهم ، وغيره أيضاً[١٠٩] . ومن هنا كانت أهمية شرح ابن رشد لكتاب أرسطو ، إذ إنها تدل على أن العرب جربوا أن يدرسوا الآداب الأجنبية ، وابن رشد هو « العربي الأول الذي كتب عن الأدب بطريق المقارنة »[١١٠] .

جـ ـ عبرت المقدمة عن قلق المؤلف من مصطلح الأدب المقارن ، ففي العنوان أولاً تطالعنا ملاحظته (الأدب المقارن أو ما يدعوه الفرنجة Littérature Comparée) . وفي المقدمة لم يذكر هذا المصطلح ثانية ، وإنما بدا أنه يميل إلى استخدام مصطلح (الأدب بالمقارنة) وأحياناً (الأدب بطريق المقارنة) ، وبذلك يعبر عن وعي فائق لأن هذا المصطلح (الأدب المقارن) مازال حتى اليوم موضع جدال . ومقترحه حول (الأدب بالمقارنة) قد يحمل حلاً للإشكال المصطلحي . وهو يعرف تماماً ما يعنيه هذا المصطلح :

---

(١٠٨) هنداوي : « اشتغال العرب بالأدب المقارن ... » ، سابق ، الرسالة ، ١٩٣٦/٦/٨ ، (انظر الإشارة المفصلة إليه في المتن سابقاً) .

(١٠٩) المصدر السابق والصفحة نفسها .

(١١٠) السابق ، ص ٩٣٩

« هذا هو الأدب بالمقارنة ، يعمل على درس ميزات أدب كل أمة بمقارنتها مع ميزات غيرها من الأمم . وهو أدب ـ كما قلت ـ حديث الخلق ، شجع على نشره شيوع رسالة الأدب الإنساني ، ولعل رسالة الفلسفة كانت أسبق من الأدب إلى هذه الرسالة »[١١١] .

د ـ يدعو المؤلف في ختام المقدمة إلى الإقبال على الأدب بالمقارنة حتى يتم تقريب الأدب العربي من الآداب العالمية وإخراجه عن عزلته التي ارتضاها لنفسه في القديم . وينطلق في هذا من تجربة ابن رشد الرائدة . ويبلور الهنداوي أفكاره بطريقة مركزة تشير إلى أنه لو تابع السير في مسالك الأدب المقارن لكان له شأن أي شأن . ويلفت النظر في أفكاره هذه تأكيده القضايا التالية دون مواربة أو تردد :

ـ العرب في الماضي جربوا أن يدرسوا الآداب الأجنبية ليستفيدوا ويفيدوا منها ، ولكن ليس على كثرة ، فالفلاسفة أشد إقبالاً على ذلك .

ـ دراسة الأدب الأجنبي اليوم أكثر ضرورة مما كان عليه الأمر في الماضي .

ـ آداب العالم اليوم تمازج وتتحد فكراً ومنهجاً .

ـ لا يليق بنا أن نترك الأدب العربي محصوراً في عزلته بحجة صيانته ووقايته ، إذ ليس هناك ما يخشى منه الأدب العربي .

ـ صيانة الأدب العربي في تعريضه للهواء والنور لا في حجبه عنها .

ـ يجب أن يبقى أدبنا محتفظاً بألوانه معتداً بها معتزاً بخصائصه[١١٢] .

والخلاصة أنه من خلال استقراء الدوريات الأدبية الرئيسية في فترة الثلاثينات يتبين أن صاحب الاستعمال الأول لمصطلح الأدب المقارن هو خليل هنداوي وليس فخري أبو السعود كما كان شائعاً . وأن (خليل هنداوي) استخدم هذا المصطلح عن بيّنة ووعي تسبيين ، وناقش مدلوله وشعر بقلقه ، فكان صاحب السبق شكلاً ومضموناً ، إلاّ أن تظهر وثيقة جديدة ، وما هذا مستبعداً في تاريخ المعرفة[١١٣] .

---

(١١١) السابق والصفحة نفسها .

(١١٢) انظر نص هنداوي في الملحق بهذا البحث .

(١١٣) وبالطبع يظل لرسالة أحمد حسن الزيات العربية المصرية الفصل الأول والقدح المعلّى في هذا المضمار .

وختاماً ، ربما كان ضرورياً التذكير بنقطة أخرى في تاريخ الأدب العربي المقارن جرى إيضاحها آنفاً ، وهي سبق روحي الخالدي (القدس ١٨٦٤ - ١٩١٣) في ريادة الدراسات التطبيقية في الأدب العربي المقارن ، وذلك من خلال كتابه المثير : (**تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو**) . الذي نشرته دار الهلال بمصر عام ١٩٠٤

وبهذه الدراسة عن ريادة الهنداوي النظرية إلى جانب ماتقدم عن ريادة الخالدي التطبيقية يؤمل أن يكون قد تحقَّق تصحيح علمي لتاريخ الأدب المقارن العربي نظرياً وتطبيقياً ، بعد أن ظل مدة طويلة مشوباً بشيء من التسرع والنقل المتكرر المفتقر إلى التمحيص الكافي .



ملحقان

ملحق ـ ١ ، تعريف موجز بالهنداوي :

ولد خليل الهنداوي في صيدا بلبنان عام ١٩٠٦ وتوفي في حلب بسورية عام ١٩٧٦

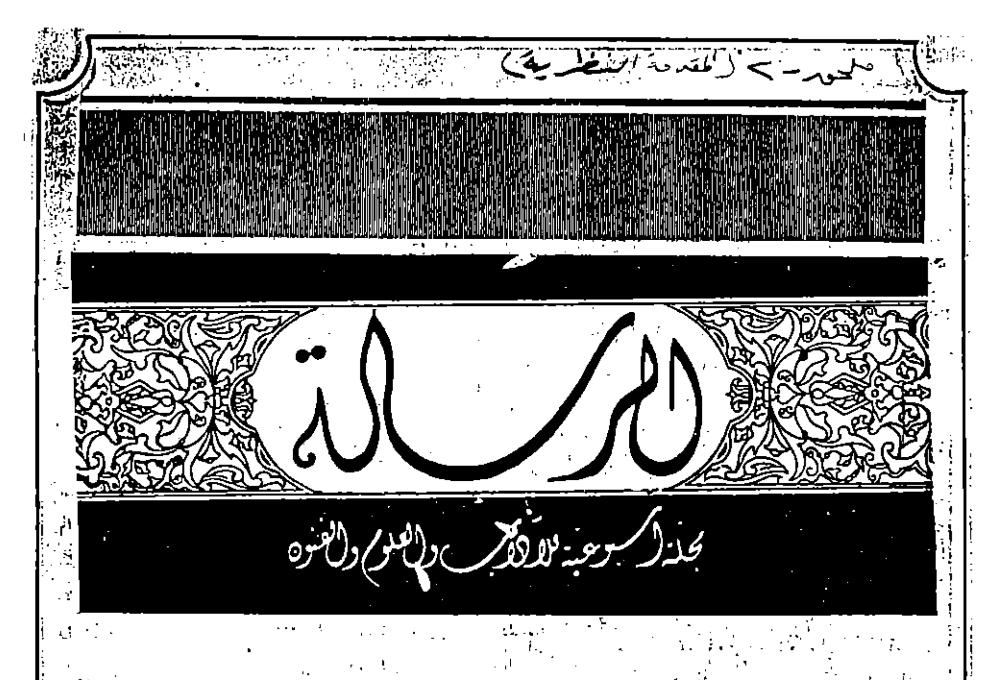
تلقى تعليمه الأساسي في صيدا وعمل فيها حتى عام ١٩٢٨ ، إذ غادرها إلى سورية وعين في دير الزور مدرساً للغة العربية وآدابها (١٩٢٩ ـ ١٩٣٩) . وقبيل نشوب الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩) انتقل إلى حلب ، « وحينئذٍ عرف حياة الاستقرار ، كما دخل طور النضج وازداد تألقاً وعطاءً » . وفي حلب استأنف عمله مدرساً للغة العربية وآدابها في ثانويات حلب ، وأبدع في مهنته وأخلص لها ، وأظهر براعة ممتازة في شرح النصوص وتذوقها وتقييمها .

وفي بداية عهد الوحدة بين سورية ومصر (الجمهورية العربية المتحدة) عمل مديراً للمركز الثقافي العربي بحلب ، وبعد تأسيس اتحاد الكتاب العرب عام ١٩٧٠ اختير رئيساً للمكتب الفرعي للاتحاد ، وبقي في هذا المنصب حتى وفاته في ١٩٧٦/٦/٩

كان خليل الهنداوي غزير الإنتاج متنوع الموهبة ، وقد سهر على تثقيف نفسه بنفسه ، وساعده على تنويع مطالعاته إتقانه اللغة الفرنسية ، وقد كتب الكثير في المقالة والمسرحية القصيرة والقصة القصيرة ، ونظم الشعر ، وله ترجمات كثيرة عن الفرنسية ، وله كذلك مشروع سيرة ذاتية . وقد نشرت وزارة الثقافة مختارات من أعماله الكاملة في جزأين . وفي أواخر حياته حظي الهنداوي ببعض مظاهر التكريم ، وكان أبرزها حفل تكريم أقامه اتحاد الكتاب العرب في رحاب كلية الآداب بجامعة حلب عام ١٩٧٤ . وبعد وفاته نال وسام الاستحقاق السوري (٢٧ تشرين الأول ١٩٧٦) ، وأصدرت مجلة (**الموقف الأدبي**) ملفاً خاصاً عنه (أيلول/تشرين الأول ١٩٧٦)[١١٤] .

---

(١١٤) عمر الدقاق ووليد إخلاصي : خليل الهنداوي ، مختارات من الأعمال الكاملة ، وزارة الثقافة ، دمشق ، جـ١ـ٢ ، ١٩٨٠ ، وقد اعتمدنا على مقدمة الجزء الأول في هذه النبذة عن سيرة الهنداوي .



4 me Année, No. 153.

بدل الاشتراك عن سنة

مـ	
٦٠	فى مصر والسودان
٨٠	فى الأقطار العربية
١٠٠	فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠	فى العراق بالبريد السريع
١	ثمن العدد الواحد

مكتب الاعلانات
٣٩ شارع سليمان باشا بالقاهرة
تليفون ٤٣٠١٣

الرسالة

مجلة اسبوعية للآداب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire, Scientifique et Artistique

Lundi - 8 - 6 - 1936

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
بشارع المبدولى رقم ٣٢
عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العدد ١٥٣ « القاهرة في يوم الاثنين ١٨ ربيع الأول سنة ١٣٥٥ — ٨ يونيه سنة ١٩٣٦ » السنة الرابعة

ضوء جديد على ناحية من الأدب العربي

إشتغال العرب بالأدب المقارن

أو ما يدعوه الفرنجة « littérature comparée »

في كتاب تلخيص كتاب أرسطو في الشعر

لفيلسوف العرب أبي الوليد بن رشد*

— تلخيص وتحليل —

للأستاذ خليل هنداوي

مقدمة:

إن الإنسان لولوع جداً بإظهار الحقائق عن طريق المقارنة، والمقارنة قد تكون مقارنة فرد بفرد أو شعب بشعب. أما الأولى فقد تكاد تكون شائعة في كل عهد لأنها رأس كل نقد. والأوائل لم يغمروا مثلاً امرأ القيس بما غمروه من فيض عبقريته إلا بعد أن قرنوا شاعرية غيره إلى شاعريته. والإنسان مسوق بطبعه الموروث إلى مثل هذه المقارنة التي قد تكون غريزية في كل كائن يفكر ويشعر. أما المقارنة الثانية فهي حديثة النشأة، لأن النقد لم يكن ليخطر في باله أن يقيم الأوزان بين أدباء أمتين مختلفتين ثقافة واتجاهاً وشعوراً. ومن كان يفكر في المقارنة بين شكسبير وراسين، ودانتي وميلتون، وبين ميزات الأدب الألماني والأدب الفرنسي؟ وكل واحد منهم يمت بوسائله إلى أمة مستقلة في تطورها وبيئتها. ولكن الأدب — كما يبدو — له سلطان قاهر، يرمي بالحواجز التي تفصل بين الحدود الصناعية ويقتحم في عوالم الفكر والخيال دون أن يصد اقتحامه شيء، لأنه الأدب...

وهكذا نشأت الصلات الأدبية بين الأمم إلا ما شاء ربك... وربطت بين المفكرين ربطاً لا يقوم على مصالح سياسية أو مطامع مادية وإنما يقوم على رفع منارة الفكر وإعلاء كلمة الفكر. فما أطهر هذه الرابطة لو أنها تخرج من هذا العالم غير المحدود إلى العالم الذي سودته الحدود! فتجد الأديب الفرنسي يحال الأديب الألماني دون أن تطغى على قلبه سورة الحقد. وتجد الأديب الألماني يكتب عن الأديب الفرنسي من غير أن تغلب عليه موجدة. ذلك أن عالم الفكر سما بهما فوق عالمهما المحدود الذي غمرته الحزازات وتقطعت بين وشائجه الأسباب. فهما يتفاهمان في ذلك العالم ويصافح بعضهما بعضاً

هذا هو الأدب بالمقارنة يعمل على درس ميزات أدب كل أمة بمقارنتها مع ميزات غيرها من الأمم. وهو أدب — كما قلت — حديث الخلق، شجع على نشره شيوع رسالة الأدب الإنساني. ولعل رسالة الفلسفة كانت أسبق من الأدب إلى هذه الرسالة. لأنها تنعتق من قيود العاطفة ولا تتخذ مطيتها إلا الفكر. والفكر أصلب عوداً من العاطفة. والفلسفة وحدها كانت أبعد العلوم الفكرية شيوعاً وذيوعاً في كل عصر، تكتسبها الأمم الغالبة من الأمم المغلوبة دون أن يلحقها عار الاكتساب، ودون أن تتحوط له. كما نقل العرب الفلسفة اليونانية بحذافيرها، وطبقوها على عقائدهم الفكرية والاجتماعية، حتى غدا اليونان أساتذة العرب في الفلسفة. أما الأدب اليوناني فلم يكتب له حظ الانتقال في كثير ولا قليل. ولعل ذلك يعود إلى اختلاف الإحساس والتعبير عند الأمتين. ومن عجب الأيام أن يمتزج المنطق اليوناني مع العقل، ويتبدل حتى يغدو جزءاً من العقل العربي. والأدب اليوناني لا يكتب له إلا الخيبة

ألم يتدارس العرب الأدب اليوناني، كما تدارسوا الفلسفة اليونانية؟ قد يظن أنهم درسوا شيئاً منه وسمعوا ألحان هوميروس فيه، ولكن ألحانه لم تطب لهم، لأن هذه الأساطير التي يطفح بها أدبهم جاءت في العهد الذي كان يسيطر فيه المنطق اليوناني على العقل العربي، فصموا عن هذه الألحان ولم يعيروها التفاتاً. وقد يظن أن الأدب العربي الذي كانت معجزة البلاغة منه كان سيد نفسه، لا يميل إلى اقتباس قواعد البلاغة من غيره، وما

* لنا وقفة على مقالات متفرقة من هذا الكتاب النفيس اعتمدنا عليها في دراستنا هذه. فرجو الرسالة أن تحيطنا علماً بهذا الكتاب وحبذا لو تعمل لجنة التأليف والترجمة والنشر على نشر هذا الأثر الكريم
(الرسالة) تلخيص كتاب أرسطو في الشعر لابن رشد طبع في مدينة فلورنسة سنة ١٨٧٢ ووقف على طبعه (فوسطو لازينيو)، ومنه نسخة في الخزانة الزكية تحت رقم ١١٠٤

فوق بلاغة الكتاب بلاغة . وقد يظن — وأرجح هذا — أن العرب طووا الأدب اليوناني — اعتماداً على الظن الثاني — ولم يلجوا فيه ، فلم يتم لهم ذلك الذوق اليوناني الذي يستطيع أن يحس لذة فنهم وعبقريتهم كما يحس أهله ! وبذلك طغى العقل اليوناني على العرب . أما أدبه فلم يكن له في الدائرة نصيب

على أن هذا الأدب الذي لم يترك له أثراً في الأدب العربي قد شغل بعض أذهان رجال من العرب ؛ شغلها عن طريق الفلسفة لا عن طريق الأدب . فابن رشد والفارابي قد ناقشا الشعر اليوناني لا بالطريقة الفنية التي ينبغي لصاحبها أن يتبعها ويتخذ لها السبل المختلفة في نفسها ، وإنما ناقشاه بالطريقة التي اتبعها أرسطو . فلولا أرسطو لم يتصد ابن رشد والفارابي للشعر اليوناني ، فهما في ذلك متبعان لا مبتدعان . فإذا أثنى ابن رشد على هوميروس فهو لم يثن بلسان نفسه وفن نفسه ، وإنما يثني لأن أرسطو أثنى عليه . وسبب ذلك واضح ، لأنهما قرآ تحاليل أرسطو لهوميروس ولم يقرآ لهوميروس نفسه . وبذلك ظل الأدب اليوناني بعيداً عنهما . وبالرغم من ذلك نرى ابن رشد قد استطاع أن يدرس قواعد شعرهم ويفيد من تلك القواعد ويعمل على تطبيقها في آداب أمته . وعمله هذا هو ما نريد منه « الأدب بالمقارنة » وهذه المقارنة برغم نقصها الفني جاءت مقارنة حسنة في بابها ، مبتدعة وقتها . ألقت على الأدب العربي ضوء دراسة جديدة . على أن أدباء العرب الذين وقفوا على هذه المقارنة وشعروا بهذا التفاوت لم يجدوا في أنفسهم ما يحملهم على مناقشة هذه القواعد والاستفادة منها ، وقد رأوا ما حل بإخوانهم الفلاسفة من الوشايات والمكائد التي كانت تنصب لهم ، وألوان الاضطهاد الذي نزل عليهم . أضف الى ذلك أن الألحان الوصفية والعاطفية في الشعر اليوناني كانت تتمشى في تضاعيفها العقيدة الوثنية والآلهة الكثيرة ، والعرب كانوا شديدي الغيرة على هذا الواحد زهواً به على الأمم ، فصرفتهم الأساطير عن تذوق ما في الأساطير

تذوق هذان الرجلان بعض روائع الأدب اليوناني ولكن طبيعتهما الأدبية لم تكن لتخول لهما أن يكونا زعيمي مدرسة في الأدب جديدة ، فلم يخرج تأثيرهما عما اختصا به . وهيهات أن يصنع الفيلسوف ما يصنعه الأديب في عالم أدبه . فلو أن ابن الرومي مثلاً تذوق هذه الروائع إلى حد بعيد لفعل أكثر مما فعل ، ولخلق للشعر أخيلة أخرى ونماذج أخرى ، ولكن ابن رشد ماعسى يستطيع أن يعمل وهو ليس بزعيم مدرسة أدبية : إنه يجادل ويحدد ويهدي إلى مناهج ومناهج ولكنه لا يخلق شيئاً

إن فضل ابن رشد على الأدب العربي في هذا الكتاب لفضل عظيم ، لأنه يدل على العربي الأول الذي كتب عن الأدب بطريق المقارنة ، ووفق في هذه المقارنة كثيراً ؛ ويدل بعد ذلك على أن العرب جربوا أن يدرسوا الآداب الأجنبية ليستفيدوا ويفيدوا من قواعدها ، وإن دراستنا — اليوم — للأدب الأجنبي أكثر ضرورة منها بالأمس ، بعد أن امتزجت عوالم الفكر واتحدت مناهج الأدب ، وأصبح لا يليق بنا أن نترك الأدب العربي محصوراً في عزلته بحجة صيانته ووقايته . وما الذي يخشى عليه ؟ وإنما صيانته ووقايته في تعريضه للهواء والنور لا في حجبه عنهما ، وفي تقريبه من الآداب العالمية حتى يسام معها في تأدية رسالتها لا في تنفيره منها وتنفيرها منه ، على أن يبقى أدبنا محتفظاً بألوانه ، ويبقى أديبنا عاملاً على إبدائها لا على إخفائها ؛ وبهذا نحقق غاية من غايات الأدب ، ونفتح لنا زاوية في عمارة الأدب ، ونكمل الخطوة الأولى التي خطاها الأوائل ولم يكملوها .

غرضه الكتاب وغرضه الشعر :

وقعت مصادفة على مقالات منثورة من هذا الكتاب ، وهي مقالات لا تكاد تؤلف المصنف كله ، وإنما وجدت أنها تعطي فكرة عامة عن الكتاب ومنهج صاحبه ومترجمه فيه . وقد بينت أن المترجم إنما عني به لأنه أثر من آثار أرسطو ، ولأن قواعده في الشعر ذهبت قوانين عامة ، لأن أرسطو الجبار الذي أراد أن يفرض سلطان العقل على كل سلطان أراد أن يوحد مملكة الشعر ويمسك على الإحساس كما أمسك على العقل ، جاهلاً أن الفرق بين هاتين المملكتين مملكة الإحساس ومملكة العقل فرق كبير ، ولكن الرجل استدرك وزعم أنه يذكر قوانين عامة للشعر ، وهو لا يخوض في تولد الإحساس وملاءمة التعبير عن الإحساس ، لأن هذا مما يتفاوت فيه العباقرة أنفسهم . فألف هذا الكتاب ليكون له كتاب في الشعر كما ترك كتاباً في الخطابة والموسيقا ، ... الخ ..

الباب الرابع
تطورات التأليف والتدريس
في الأدب العربي المقارن

الفصل الأول :

البداءات في التأليف والتدريس
المرحلة الأولى (من الثلاثينات إلى أوائل الخمسينات)

الفصل الثاني :

من البداءات إلى التأسيس
المرحلة الثانية (أوائل الخمسينات إلى نهاية السبعينات)

الفصل الثالث :

باتجاه التكامل والتنوع
المرحلة الثالثة (الثمانينات وما بعد)

ملحق وثائقي

الفصل الأول :

البداءات في التأليف والتدريس

المرحلة الأولى (من الثلاثينات إلى أوائل الخمسينات)

تمهيد :

من خلال استعراضنا السابق لنشأة الأدب المقارن تبين بوضوح أن هذا النسق المعرفي نشأ أصلاً في رحاب الجامعات الغربية ، ونما وترعرع في مكتباتها وقاعاتها وعلى صفحات مجلاتها ومنشوراتها ، ونضجت تخصصاته وتطورت اتجاهاته ومدارسه من خلال اهتمام المؤسسة الأكاديمية والباحثين الأكاديميين به ، حتى أصبح من أكثر التخصصات الأدبية التصاقاً بمقتضيات العمل الأكاديمي بحيث يصعب الحديث عن الأدب المقارن في النظرية أو التطبيق خارج إطار المؤسسة الأكاديمية .

وفي المجال العربي يلفت النظر أن الفضل في ظهور مصطلحه الأول ـ كما أسلفنا ـ يعود إلى منبر غير جامعي هو منبر مجلة الرسالة وإلى كاتبين من كتابها لم يكونا على ارتباط رسمي بالمؤسسة الجامعية وإن كانا متصلين بمهنة التدريس ، وهما خليل هنداوي وفخري أبو السعود . ويبدو أن الرسالة سبقت المؤسسة الجامعية إلى استخدام مصطلح الأدب المقارن بسبع سنين على الأقل . ففي حين ظهر المصطلح الأول (والوعي النظري الأول) للأدب المقارن على صفحات الرسالة في منتصف عام ١٩٣٦ تأخر ظهور هذا المصطلح في المؤسسة الجامعية إلى عام ١٩٤٦ حين نصّت مناهج دار العلوم في القاهرة على تدريس مادة جديدة أطلق عليها اسم (الأدب المقارن)[1] وكانت مقرراً مستقلاً لطلاب السنتين الثالثة والرابعة ثم اقتصرت على طلاب السنة الرابعة .

(١) يذكر الدكتور مكي أنه في ١٩٤٦/٤/٢٤ صدر القانون رقم ٣٣ بضم دار العلوم إلى جامعة القاهرة (فؤاد الأول حينذاك) ويضيف أن خطة الدراسة ، طبقاً للائحة الداخلية ، تضمنت « دراسة الأدب المقارن باسمه لأول مرة في جامعة عربية ، وكان نصيبه ساعتين أسبوعياً في الفرقتين الثالثة والرابعة ، وهي خطة سوف يصيبها التعديل فيما بعد لتصبح ساعتين في الفرقة الرابعة فحسب » .
مكي : الأدب المقارن ، ص ١٨٢

ويرجع عطية عامر هذا التاريخ إلى العام ١٩٤٥ ويذكر أن الأدب المقارن كان فرعاً من قسم سمي : « قسم الأدب المقارن والنقد والبلاغة » . وتولى رئاسته إبراهيم سلامة وعاونه عبد الرزاق حميدة[٢] . وقد يكون هذا التفاوت في التاريخ راجعاً إلى تطبيق الخطة الدرسية قبل صدور القانون ، وهذه ممارسة معروفة في الجامعات العربية . على أن هذا الاختلاف ليس الوحيد بين تقريري عطية عامر وأحمد الطاهر مكي حول تاريخ الأدب المقارن في مصر ، ففي حين يشير كل منهما إلى أهمية عام ١٩٣٨ في دار العلوم من ناحية ظهور مقرر جديد ذي قرابة للأدب المقارن اسمه « الأدب وقراءة النصوص ودراسة الآداب الأجنبية »[٣] ، ينفرد عطية عامر بإشارة سريعة إلى أن مناهج دار العلوم نصّت عام ١٩٣٨ على تدريس مادة جديدة أطلق عليها اسم « الأدب العربي المقارن » في فرقة التخصص ، وقام بتدريسها مهدي علام[٤] .

وهذا بالطبع تاريخ مهم جداً ولم نجد ما يسنده في التقارير الأخرى عن تاريخ الأدب المقارن في مصر ، كما أن الدكتور مكي الذي اتصفت تقاريره بالتدقيق والتفصيل والشهادة الشخصية المباشرة لا يشير إلى هذه الواقعة المهمة .

وفيما يتصل بمقرر (الآداب الأجنبية) الذي يتفق عليه الباحثان ، يقدم مكي تفصيلات وافية ، فيرجع تاريخ القرار الوزاري المتعلق به إلى ١٩٣٨/٧/٢٥ ، ويذكر أن المقرر كان مادة مستقلة عن اللغة الأجنبية ، « وكان الطلاب يدرسون الأدب اليوناني ويضطلع بتدريسه الدكتور إبراهيم سلامة ، والأدب الإنكليزي ويدرسه الأستاذ أحمد خاكي »[٥] .

وفيما بعد حذت جامعات عربية أخرى هذا الحذو ، وإن يكن بأشكال مختلفة ، ولكن محتوى المقرر وطريقة تدريسه والوعي النظري لأهميته ، كل ذلك ظلّ بعيداً عن روح الأدب المقارن وطرائقه ، وتركز التدريس على إعطاء دارس اللغة العربية فرصة الاطلاع على بعض النصوص الأجنبية باللغة الإنكليزية غالباً وبطريقة مبسطة جداً ، على الأقل بسبب تدني مستوى طلاب اللغة العربية في مجال اللغات الأجنبية . وبذلك يصعب اعتبار هذا المقرر جزءاً من التاريخ الحقيقي للأدب المقارن . ويبدو أن الدكتور مكي غير بعيد عن هذا الرأي[٦] .

(٢) عامر ، السابق ، ص ١٩

(٣) السابق ، ص ١٩ ، ومكي ص . ص ١٨١ - ١٨٢

(٤) عامر ، ص ١٨

(٥) مكي ، ص ١٨١

(٦) السابق ، ص ١٨٢

ومهما يكن من أمر فإن سبْق دار العلوم إلى تـدريس الآداب الأجنبيـة والأدب المقـارن لطلاب اللغة العربية مسألة تستحق التنويه ولا سيما حين تقارن بما كانت تتصف به أقسام اللغة العربية في جامعات كثيرة من تزمت وانغلاق ، أو أقسام اللغات الأجنبيـة من رتـابة وتقليـديـة ، حتى إن الأدب المقـارن في هـذه الأقسـام تـأخر في الظهور وقنـع بمستـوى متـواضـع ، في حين كان منتظراً أن تتولى ، بحكم اتصالها باللغات الأجنبية ، دَوْر الريادة في إدخال الأدب المقارن إلى المنطقة العربية . ومما يلفت النظر أنه حتى في مجال الترجمة لانجد لهذه الأقسام الأجنبية إسهامات تستحق الذكر في باب الأدب المقارن في المرحلة الأولى.

التأليف :

وقد رافق السبق الأكاديمي لدار العلوم في مجال التدريس سبق آخر في مجال التأليف الجامعي . في الأدب المقارن ، إذ سرعان ماقتضت ضرورات التـدريس أن يُقـدم (مـدرس المقرر) على التأليف في الأدب المقارن .

وعن دار العلوم أصدر عبد الرزاق حميدة بعنوان « **في الأدب المقارن** »(٧) في شباط (فبراير) ١٩٤٨ ، وبذلك كان أول كتاب جامعي عربي يحمل هذا العنوان .

ويعدُّ عام ١٩٤٨ عام البدء في تأليف الأدب المقـارن ، إذ ظهر فيـه أيضـاً مؤلَّف غير جـامعي بعنـوان مشـابـه ، « **من الأدب المقـارن** » ، لنجيب العقيقي(٨) . ومن الـواضـح أن الارتبـاط بين تدريس الأدب المقارن في الجامعات والتأليف فيه ارتباط عضوي لا فكاك منه . وباستثناء كتـاب العقيقي هذا (الذي لانعرف له ارتباطاً واضحاً بالعمل التدريسي) ، كان مسلسل التـأليف الـذي توالى بعد ذلك تلبية مباشرة لمتطلبات التدريس الجـامعي ومقتضيـاتـه . ومن هنـا يصعب الفصل بين تاريخ التدريس وتـاريخ التـأليف في الأدب العربي المقـارن ، بل إن مثل هـذا الفصل ، حين يحدث ، يعاني من الاصطناع والتحل . وينطبق هذا الحكم ـ ولو بنسبة أقل ـ على تاريخ التأليف المقارني في الغرب وسائر مناطق العالم .

العقيقي :

ويجمع باحثو الأدب المقارن على أن الكتابين الأولين اللذَيْن حملا عنوان (الأدب المقارن) عام ١٩٤٨ لم يتضمنا أكثر من تلمس لطرائق الأدب المقارن . وقد ظهر كتاب العقيقي مصحوباً بادعاءات كبيرة ، وقوبل أيضاً باهتمام وتوقعات عريضة في الصحافة الأدبية ، ونوّه به مثلاً الدكتور شوقي ضيف تنويهاً قوياً ، في حين قنع كتاب عبد الرزاق حميدة بإرضاء احتياجات طلابه . وهناك شبه إجماع لدى المتخصصين على أن عنوان العقيقي « خادعٌ تماماً » ، كما يقول د . مكي ، وأن الكتاب « ليس من الأدب المقارن في شيء وإنما يتناول قضايا نقدية خالصة »[(٩)] .

وكذلك تحدّث عنه عطية عامر بازدراء شديد ، وأخرجه من تخصص الأدب المقارن إخراجاً كاملاً ، واتهمه بجهل التطورات المعاصرة له في مجال البحث المقارني في مصر ، وجرده من أية قيمة ، وذهب إلى أبعد من ذلك وتمنى لو أن العقيقي لم يقدم على تأليف كتابه « وليته لم يفعل »[(١٠)] .

فكأنما المؤسسة الأكاديمية نفرت من تدخل العقيقي . والحق أن العقيقي ـ على الرغم من ضخامة جهده المبذول ـ لم يكشف عن أي نفَس منهجي أو تدريب أكاديمي نوعي في الأدب المقارن . وأتت مهمته ذات طابع تجميعي ، وحشد في كتابه معلومات شتى عن الأدب الغربي ، وآراء عامة حول مسائل نظرية في الشعر مثل الشعور والجمال والمثال والخيال والكلام والإلهام ، كما أفرد فصلاً لمسائل من الشعر العربي مثل الغزل والوصف والمدح والمذاهب الأدبية . وكانت موضوعاته وطرق معالجته أقرب إلى النقد النظري والأدب العام .

وبعد سبعة عشر عاماً من ظهور الطبعة الأولى ، وبعد أن تتابعت تطورات مهمة في حقل الأدب المقارن عربياً وعالمياً ، أصدر العقيقي طبعة ثالثة من كتابه هذا ، توسعت على ثلاثة مجلدات مطولة ، وحملت إعلانات عريضة عن فتح أدبي جديد في (١٥٠٠ ص) تتضمن ، حسبما

---

(٧) عبد الرزاق حميدة : في الأدب المقارن ، القاهرة ، فبراير ١٩٤٨

(٨) نجيب العقيقي : من الأدب المقارن ، دار المعارف بمصر ، ١٩٤٨

(٩) مكي ، ص ١٨٩

(١٠) عامر ، ص ٢٠

ورد تحت عنوان الغلاف الداخلي :

« دراسة في خصائص الأدب ، وتطبيقها على الآداب الأوربية ، ومقارنتها بأدب العرب بالعربية واللغات الأجنبية ، في : الشعر والمسرحية والفلسفة والمدارس الأدبية ، مع مقارنة التقويم الهجري بالتقويم الميلادي »[11] .

وقد حوى المجلد الأول فصلاً عاماً في الشعر تناول مسائل عامة في : الشعور ، الجمال ، المثال ، الخيال ، الإلهام ، والكمال . وتبعه الفصل الثاني على شكل محاولة تطبيقية لهذه المسائل في الآداب الأوربية من فرنسية وإنكليزية وإيطالية وإسبانية واسكندنافية وغيرها . وتناول الفصل الثالث الأدب العربي في عصوره المختلفة ، وانتهى بمقالة تحمل عنواناً مقارنياً واضحاً : « أثر أدبنا في الآداب العالمية » (ص ٢٦٠) .

وخصص الفصل الرابع للفنون الأدبية في الشعر العربي كالغزل والوصف والمدح ، مع نظرة موسعة إلى المدارس الأدبية .

وظهر المجلد الثاني عام ١٩٧٦ فإذا هو موسوعة شاملة تتضمن مقدمة وافية عن صلات العرب بالغرب في عصر النهضة ، يتبعها تعريف شامل بالأدباء العرب من مصر وفلسطين والأردن والعراق وسورية ولبنان والمهجر . ويؤكد المؤلف أنه الأول من نوعه في التأليف العربي . والحق أنه جهد علمي موسوعي كبير .

وفي السنة نفسها صدر المجلد الثالث ، ودار الفصل الأول منه حول « التجديد في الأدب العربي » ، وحوى مقالات عن الترجمة إلى العربية ، وترجمة الروائع العربية إلى اللغات الأجنبية ، ودراسات حول المذاهب الأدبية في الغرب والاتجاهات النقدية وتمثلاتها في الأدب العربي الحديث .

---

(١١) نجيب العقيقي : من الأدب المقارن ، جـ ١ ، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٥ ، وهذه الطبعة في ٤٣٩ ص . ولم أستطع التوصل إلى أية معلومات عن الطبعة الثانية التي تشير إليها الطبعة الثانية دون أي تحديد .
وقد صدر المجلدان الثاني والثالث عام ١٩٧٦ عن الدار نفسها ، الأول في ٤٦٦ ص ، والثاني في ٣٢٠ ص . وهكذا بلغ مجموع الأجزاء الثلاثة ١٢٢٥ ص ، أي أقل بقليل مما أراد له المؤلف !

وخصص الفصل الثاني للأدب الفرنسي الحديث ، وحوى تفصيلات واسعة حول تاريخ الأدب الفرنسي الحديث ، مع عرض لموضوعاته وسير مؤلفيه ونماذج منه ، وهي أخلاط منوعة مثيرة .

وتتبع الكتاب فهارس موسعة بأسماء المؤلفين والكتب مرتبة حسب أحرف الهجاء .

ويعطي الكتاب بأجزائه الثلاثة انطباعاً بأن المؤلف أراد أن يقدم إطاراً موسوعياً لدراسة الأدب العربي من خلال منظور مقارني شامل . ومن حق أن الكتاب لا ينبئ عن معرفة منهجية نوعية بالأدب المقارن كما كان معروفاً في ذلك الإبان ، ولا يكشف عن إحساس بالتطورات التي حدثت من حوله ولا سيما في مجال الدراسات المقارنية للأدب العربي ، إلا أنه من الظلم الشديد أن يحكم عليه بالإعدام شنقاً على نحو مافعله عطية عامر . فالكتاب ـ على الرغم مما يعانيه من استعراضية واختلاط وحشو ـ غني بالمعلومات المفيدة للباحث المقارني في وقته . وهو لا يخلو من إدراك شامل لنطاق الأدب المقارن بالمفهوم الأوسع ، وربما الأمريكي مع أن ثقافة المؤلف فرنسية خالصة . وهناك أيضاً نواح مقارنية خاصة يمكن إجمالها بما يلي :

١ ـ تخطيط الكتاب قريب من الفهم المقارني . فهو يقدم عناصر فهمه للظاهرة الأدبية ومقوماتها ولا سيما للشعر ، ثم يستعرض تمثلات هذه العناصر في الآداب الأوربية المختلفة ثم في الأدب العربي بعصوره المختلفة . أي أنه يقدم دراسة متجاوزة للحدود اللغوية والتاريخية والجغرافية والثقافية .

٢ ـ في كل ماقدمه المؤلف كانت له عين على الأدب العربي وأخرى على الآداب الأوربية ، بل إنه يحاول توظيف كل معلوماته عن الأدب الفرنسي بالذات من أجل فهم الظاهرة الأدبية العربية .

٣ ـ كان مفهوم (العالمية) في الأدب في صدارة تفكيره . وحرص كثيراً على طمأنة القارئ العربي إلى وجود امتدادات عالمية لأدبنا العربي سواء من خلال مقالته المشار إليها آنفاً (أثر أدبنا في الآداب العالمية) أم من خلال حديثه عن أدب المهجر .

٤ ـ عُني بإبراز كيفية انتشار المذاهب الأدبية الغربية والاتجاهات النقدية في الأدب العربي الحديث .

٥ ـ عني بموضوعات مقارنية خالصة مثل الترجمة من العربية وإليها ، والانتشار والتلقي ، من خلال مستويات نسبية طبعاً .

٦ ـ ثم إن كلامه عن الأدب والأدباء في الوطن العربي يكاد يوحي أنه يريد أن يخلق جواً مشتركاً يتجاوز الحدود .

٧ ـ تضاف إلى ذلك نقاط مقارنية خاصة ، من مثل إشارته إلى « أن تاريخنا الأدبي في حاجة إلى نقاد ذوي دراسة عميقة واطلاع شامل على الأدب المقارن » .

وقد وردت هذه الملاحظة في الصفحة الأخيرة من الجزء الأول[١٢] كأنما هي إشارة إلى ضرورة إعادة دراسة الأدب العربي من زاوية مقارنية .

٨ ـ تكشف كتابات العقيقي عن إتقان تام للغة الفرنسية ومعرفة ممتازة مباشرة بالأدب الفرنسي .

وبوجه عام ، يذكر كتاب العقيقي بمحاولة قسطاكي الحمصي ذات الطابع الموسوعي في مجال النقد ، إذ حاول الحمصي في كتابه « **منهل الورّاد في علم الانتقاد** » أن يضع أسساً لعلم النقد الأدبي تجمع مبادئه من تجارب الغرب والشرق[١٣] . وربما كان العقيقي آخر ممثل لهذا الاتجاه الموسوعي في الأدب العربي الحديث .

وخلافاً للطبعة الأولى ، قوبلت هذه الطبعة الثالثة (١٩٧٥) بفتور كشف فعلاً عن تطور في الأذواق والمناهج المتعلقة بالبحث الأدبي عامة والمقارني خاصة في البلاد العربية . وتكمن مشكلة

---

(١٢) العقيقي ، جـ ١ ، ص ٤٠٢

(١٣) قسطاكي الحمصي : « **منهل الورّاد في علم الانتقاد** » ، جـ ١ ـ ٢ القاهرة ، ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ . وظهر الجزء الثالث عام ١٩٣٥ (سابق) .

العقيقي في إصراره على الاستمرار في الاتجـــاه الأفقي التجميعي بـــدلاً من التركيز على التخصص والتعمُّق . على أن هذا الحكم لا يستتبع إنكاراً لما تضمنه كتابه من معلومات غزيرة ولما بـذل فيـه من جهود واسعة ، ولما كشف عنه من أفق مقارني واسع .

حميدة :

وهناك اتفاق بين الباحثين على أن الكتـاب الآخر في عـام ١٩٤٨ ، وهو أول كتـاب جـامعي مقارني ، لم يكن أوفر حظاً من قرينه في الاقتراب من منـاهج الأدب المقـارن ، وإن كان كشف في المقدمات النظرية عن إدراك مبدئي لهذا الحقل المعرفي الجديد آنذاك على الثقافة العربية .

ونظراً للأهمية التاريخية التي يتمتع بها هذا الكتـاب ، نقـدم اقتطـافـات من العرض الشخصي المنصف الذي عرضه الدكتور الطاهر أحمد مكي ، تلميذ عبد الرزاق حميدة في دار العلوم :

١ ـ « وقد درست الكتاب مع من درسوه ، وأُخذتُ يومها بطرافة موضوعـاتـه ، وبـأسلوبـه الشيّق العذب ، إلى جانب ما كان عليه الأستاذ نفسه من روح فكهة ، وبشاشـةٍ ودود . وحين أعود إليه اليوم ، بعد أن أمضيت رفقةَ الأدب المقارن دارساً أعواماً طويلة ، أُدرك أن أستـاذنـا الـدكتور عبد الرزاق حميدة ألمح في مقدمة الكتـاب إلى الخطوط الرئيسيـة للعلم ، في دقـة لا بـأس بهـا ، وأن غايته دراسة العلاقات بين الآداب » .

٢ ـ ثم يقدم الدكتور مكي مقاطع من كلام أستاذه يتبيّن منها فهمـه لطبيعـة الأدب المقـارن ولا سيما فيما يتصل بالعلاقات بين الآداب .

أ ـ « وأن هذه العلاقات واسعـة المدى ، تشمل تـأثير أدب في أدب ، وتـأثُّر أديب بـأديب ، وأخذ عصر عن عصر ، وتشابه حركات أدبية وتباينها ، ونهوض مدارس أدبية مختلفـة أو متشـابهـة ، في أزمنة ولغات متعددة ... » .

ب ـ « وأن هذه العلاقـات تحتـاج إلى براهين وشواهـد ، وأن من يتصـدى لهـا لا يستغني عن الوقوف على فعـل البيئـة والـدين والعلوم السيـاسيـة والاقتصـاديـة والحروب والاتصـال التجـاري والعلمي ، وخصـائص الأمم وطبـائـع الأجيـال ، وتطـور الأفكار في الآداب وتـوجيههـا بـألـوان مختلفة » .

٣ ـ يعلق الدكتور مكي على أفكار أستاذه وتطبيقاته فيجد أنها صحيحة نظرياً ولكن المؤلف « حاد عنها في مجال التطبيق ، وانتهى به الحال إلى عدد من الموازنات ، يجد بعضها سنداً له من اتجاهات المقارنة الأمريكية ، وبعضها الآخر لا تسنده أية مدرسة » . ويذكر مكي أمثلة للمقارنات التي لا سند لها من مقارنة وصف المتنبي شعب بوان ووصف حمدونة بنت زياد وادياً في الأندلس ، وكذلك مقارنة بشار وأبي العلاء ، ثم ربطها بشعراء آخرين مثل ميلتون وألكسندر بوب . وواضح من الكلام أن مكي يُقرّ المقارنات التي تجري بين شعراء مختلفي اللغة ، ويسمي المقارنات بين الأدباء المنتمين إلى لغة واحدة بالموازنات ، ويبين أن حميدة لم يكن يشعر تماماً بالفرق بين المقارنة والموازنة ، وإن كان حسه السليم قاده في حالات كثيرة إلى هذا التفريق[١٤] .

وبالطبع يذكّرنا هذا الكلام بتحديدات محمد غنيمي هلال التي أصبحت فيما بعد أشبه بدستور للبحث المقارني العربي .

واستكمالاً للصورة يحسن أن نشير إلى أن الدكتور محمد غنيمي هلال لم يكن راضياً عن هذا الكتاب ووصفه بأنه « يحلل أوجه التشابه العامة بين بعض القصائد العربية مع شرح ما هو مشترك بين مواضيع هذه القصائد وبعض مواضيع أحد الأديبين الفرنسي أو الإنكليزي دون وجود أي منظور تاريخي . زد على ذلك أن أوجه التشابه كانت سطحية جداً »[١٥] .

أما عطية عامر فيخرجه مثلما أخرج كتاب العقيقي بلا هوادة ولا رويّة :

« لا صلة لهذا الكتاب في الأدب المقارن بمعناه السليم ، وإنما سلك المؤلف فيه طريقة الموازنات الأدبية في أبسط صورها »[١٦] .

إبراهيم سلامة :

وكان الكتاب الجامعي الثاني في الأدب المقارن للدكتور إبراهيم سلامة ، الذي ينتمي إلى دار العلوم أيضاً ، وأتى تلبية لحاجة الطلاب إلى مرجع ، شأنه شأن سابقه ، بل إن الطلاب هذه المرة هم

---

(١٤) مكي : الأدب المقارن ، ص ص ١٨٢ ـ ١٨٤

(١٥) د . محمد غنيمي هلال : « دراسات الأدب المقارن في الجمهورية العربية المتحدة » Les étûdes de Littérature Comparée dans la Republique Arabe Unie, Yearbook of Comparative and General Literature, No 25 - VIII, The University of North Carolina, Chapel Hill, 1959, p 11

(١٦) عامر ، السابق ، ص ٢٠

الـذين أعـدّوا الأصـول الأولى للكتـاب ، وقـام الأستـاذ بإكمالهـا ثم إصـدارهـا في طبعـة فريـدة لم تتكـرر[١٧] ، وقد حملت العنوان المقارني التالي :

« **تيارات أدبية بين الشرق والغرب : خطة ودراسة في الأدب المقارن** » ، **القاهرة ١٩٥١ .**

ومنذ البدء يكشف إبراهيم سلامة عن تطور واضح في الوعي النظري للأدب المقـارن بوصفـه نسقاً معرفياً جديداً في ذلـك الحين يبحث عن مكان لـه في سلم المعرفـة . وليس ذلـك بمستغرب عن إبراهيم سلامة لثلاثة أسباب على الأقل :

الأول : أنه درس في القارة الأوروبية (جنيف ثم باريس) ، أي عايش قضية الأدب المقـارن من خلال لغته الفرنسية وثقافته الأوروبيـة ، وقـد اطلع على كتـاب (**الأدب المقـارن**) لفـان تييغم وأورده في مصادره . ومن هنا نـدرك فرقـاً بينـه وبين سـابقـه عبـد الرزاق حميـدة الـذي درس في بريطانيا ، وعني نتيجة لذلك بتذوق النصوص وبـالابتعـاد عن المماحكات النظريـة وبـالتركيز على الأدب الإنكليزي والآداب التي تتصل به .

الثاني : أنه أفاد من تجربة سابقهِ ومن التطورات المتسارعة في الحقل المعرفي في مصر بـالـذات خلال تلك الفترة ، ولا سيما من ناحية السعي الحثيث لتحديث الثقافة العربية عن طريق استقبال المؤثرات الغربية والعالمية .

الثالث : أنه كان طُلَعَةً ذا ثقافة حيّة ، حريصـاً على اجتـذاب طلابـه وسـامعيـه بكل بريق جديد ، ولا ننـسَ أنـه كان منوّع التخصص (التربيـة وعلم النفس والأدب) وأنـه عمل خـارج مصر (بغداد) قبل عودته إلى دار العلوم أستاذاً للبلاغة والنقد الأدبي[١٨] .

ويمهد إبراهيم سلامة لكتابه بتحديد موضوع دراسته :

« هذه دراسة تقارنية وإن أردت الدقة والتحديد فقل : إنها محاولـة في دراسـة هـذا العلم ، أو هي إسهام مع المسهمين في هذه الناحية التي يحاول العلماء فيها ـ منذ نهاية القرن التاسع عشر ، وفي

---

(١٧) مكي ، ص ١٨٦ ، وهو يورد تفصيلات حية حول ظروف تأليف الكتاب ، ويحدد صدوره بعام ١٩٥٢ مع أن الكتـاب نفسـه يحمل تاريخ ١٩٥١

(١٨) للتفصيل انظر أيضاً العرض الحي الذي قدمه مكي ، ص‌ص ١٨٥ ـ ١٨٨

أوائل القرن العشرين ـ أن يعملوا لتكوين أدب خاص يطلق عليه هذا الاسم (الأدب المقارن) ، يجد له مكاناً بين علمين تقرّرا منذ القديم هما (علم الأدب) و (علم التاريخ الأدبي) »[١٩] .

وهكذا يسجل سلامة لنفسه نقطة مهمة من الناحية النظرية هي وعيه للمشكلة المنهجية لهذا النسق المعرفي الجديد من جهة ، وإحساسه ـ من جهة أخرى ـ أن مجال الإسهام في تحديد منطق الأدب المقارن ومنطقته مازال مفتوحاً ، ومن هنا استعداده للإدلاء بشهادته التي حرص على وصفها بأنها (تقارنية) . وسنجد أنه يفضل هذه الكلمة في دراساته اللاحقة .

ثم يضيف إلى هذه الناحية الإيجابية نقطة جديدة ، قد تكون حتى ذلك الحين غريبة عن التفكير الأدبي العربي ، وهي إدراكه للطبيعة المقارنية للأدب نفسه كفعالية إبداعية مطلقة الحدود ، وذلك مقابل المفهومات العربية العامة التي تربط الأدب بالظاهرة القومية والمحلية ربطاً محكماً . وإن سلامة ليحلق تحليقاً في هذا الفهم النظري الذي بقي ، مع الأسف ، بذرة تنتظر من يأخذها بأسباب النمو والإزهار :

« ورأينا أن الأدب نفسه لو درس دراسة صحيحة لكان منه أدب مقارن ، فأنواعه ونوازعه ودفعاته موجودة في كل أمة لها ، إلى تفكيرها ، حسُّها ووجدانها »[٢٠] .

ويضيف سلامة إلى ذلك نقطتين نظريتين متصلتين بالنقطتين السابقتين ومبنيتين عليهما وهما :

أ ـ إمكانية خضوع الظاهرة الأدبية للقانون والقاعدة (مادامت عامة مشتركة وما دامت هناك مناهج فعالة تلاحقها وتتابعها) .

ب ـ إمكانية التوصل إلى العالمية الإنسانية التي هي غاية الأدب المقارن ومبتغاه .

ويمكن أن يمضي المرء إلى أبعد من ذلك في تسجيل نقاط إيجابية من خلال البيانات النظرية والجمل المتفرقة التي قدمها هذا الرائد المتألق . ولكن حين توضع هذه البيانات في إطارها المتكامل يبدو فيها الكثير من التباين والتضارب والاضطراب المنهجي . وإنه ليعمد إلى تعريف الأدب

---

(١٩) إبراهيم سلامة : تيارات أدبية بين الشرق والغرب ، خطة ودراسة في الأدب المقارن ، مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ، ١٩٥١ ، ص ٣

(٢٠) السابق ، ص ٢٨

المقارن مثلاً ـ وهذا لب الموضوع ـ فنجده يقدمه بأشكال مختلفة وأحياناً بلغة خطابية تجعل منه كل شيء ولا شيء في وقت واحد . ومن خلال هذه التعريفات المتلاطمة يتحدث عن التأثيرات والعلاقات ، ويشرق ويغرب ـ كما يدل عنوان كتابه ـ ويخلط الدُّرَّ بالآجُرّ . ومن جملة ذلك مثلاً تفريقه بين الأدب العام والأدب المقارن بقوله إن الكتاب يمكن أن يؤثر في عقول العامة فلا يكون له شأن في الأدب العام ، ولكن يكون له كل الشأن في الأدب المقارن !!

وقد أطلق عطية عامر حكم الإعدام على كتاب سلامة وعمل على إظهار تناقضاته واضطرابه الشديد[٢١] ، تماماً مثلما أنكر فضل الرائدَيْن السابقين العقيقي وحميدة .

ويلاحظ الدكتور مكي ، وهو أقرب الباحثين إلى روح الإنصاف وخصوصية الفترة وإلى طبيعة الأستاذ وكتابه ، أن الأستاذ يقحم في الأدب المقارن ما ليس منه وينتقل استطراداً من مسألة إلى مسألة لينتقل إلى باب النقد غالباً والنقد المقارن في أفضل الأحوال . ويؤكد أخيراً :

« والحق أن الكثير من مباحث الكتاب تجيء على هامش الأدب المقارن »[٢٢] .

والجدير بالذكر أن إبراهيم سلامة ألّف في الفترة نفسها كتاباً مطولاً من خمسمئة صفحة وفي مدة قصيرة جداً بعنوان : « **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان ، دراسة تحليلية نقدية تقارنية** »[٢٣] .

وفي هذا الكتاب (المقارني) لا توجد أية إشارة إلى الأدب المقارن أو مناهجه أو نظرياته ، مع العلم أن منهجه الفعلي مقارني ، وفيه جهد واستقصاء وجدية وتدقيق ، وهي صفات تقربه جداً من (عدة الباحث المقارن) ، ويلاحظ في العنوان إصرار على مصطلح (تقارني) . وقد توفي إبراهيم سلامة عام ١٩٥٧ ولم يترك آثاراً أخرى ، مع الأسف . وكان آخر منصب شغله عميد كلية الآداب بجامعة القاهرة .



---

(٢١) عامر ، ص ١٩

(٢٢) مكي ، ص ١٨٨

(٢٣) إبراهيم سلامة : **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان** ، دراسة تحليلية نقدية تقارنية ، القاهرة ١٩٥٢ ، ط ٢ . ولم أطلع على الطبعة الأولى .

وهكذا استطاعت هذه الفترة القصيرة التي امتدت من منتصف الثلاثينات حتى مطلع الخمسينات (١٩٣٦ ـ ١٩٥٢) ، وانقطعت أوصالها خلال الحرب العالمية الثانية وانتعشت بعد الحرب مباشرة ، أن تحمل من المؤشرات ما يبيح للمؤرخ الأدبي أن يعتبرها (مرحلة البداءات) في تاريخ نظرية الأدب العربي المقارن . وقد كانت الومضات المحدودة التي التمعت في الثلاثينات (ولا سيما عند خليل هنداوي وفخري أبو السعود) مجرد حركة جنينية تأجلت ولادتها إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية . ومن الناحية التدريسية كانت الحاضنة مؤسسة (دار العلوم) ، واستمرت دار العلوم في حضانة الأدب المقارن والسهر على ولادته وتنشئته في مرحلة البداءات والمرحلة التأسيسية التي تلت ، إذ تمت الولادة من خلال اعتماد (الأدب المقارن) مادة أساسية في مناهج دار العلوم بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة .

أما من الناحية التأليفية فكانت الحاضنة مجلة الرسالة في الثلاثينات ، وتمت الولادة خلال السنوات التي أعقبت الحرب الثانية ، في شكل ثلاثة مؤلفات ، اثنان عام ١٩٤٨ والثالث عام ١٩٥١ . وكانت القاهرة ، بمناخها الأكاديمي المتقدم وجوّها الثقافي النشط هي الإطار العام الذي انبثقت من نسيجه هذه التطورات في المرحلة الأولى .

واستكمالاً لصورة هذه المرحلة تحسن الإشارة إلى واقعة مثيرة سجلتها مجلة الكاتب المصري عامي ١٩٤٧ و ١٩٤٨ ، وهي نشر مقالين في الأدب المقارن للكاتب الفرنسي إيتامبل أعدّهما خصيصاً لهذه المجلة التي كان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين . وكان الأول بعنوان « التروبادور وشعراء الأندلس »[٢٤] ، وهو مقال خفيف يلخص كتاباً معروفاً لروبير بريفو عن (شعراء التروبادور) ، ويميل إلى نظريته في الرفع من قيمة التأثير العربي في شعراء التروبادور ، ويستقي منها عبرة إنسانية في التواصل الثقافي بل يدعو إلى إعادة التجربة في العصر الحاضر . ويتناول المقال الثاني باختصار ما سماه المؤلف « نهضة الأدب المقارن »[٢٥]، وكان ذلك إبان سنوات تدريسه الأدب المقارن في الجامعة المصرية وقبل انقلابه على المدرسة الفرنسية التقليدية.

---

(٢٤) رينيه إيتامبل: « التروبادور وشعراء الأندلس » ، Troubadours et Poetes Hispano-Mauresques ، الكاتب المصري ، ع ١٧ ، مجلد ٥ ؛ ١٩٤٧/٢ ، ص ص ٩٦ ـ ١٠٠ . والمقال من ترجمة عبد العزيز الأهواني .

(٢٥) ر. إيتامبل : « نهضة الأدب المقارن » ، Renouveau de la Littérature Comparée ، الكاتب المصري ، ع ٢٨ ، مجلد ٧ ، ١٩٤٨/١ ، ص ص ٦٤٦ ـ ٦٤٩

الفصل الثاني :

من البداءات إلى التأسيس

المرحلة الثانية (أوائل الخمسينات إلى نهاية السبعينات)

من الملاحظ أن الرواد الثلاثة ، عبد الرزاق حميدة وإبراهيم سلامة (وإلى حدٍّ ما نجيب العقيقي) ، لقوا جميعاً تقديراً ونَصَفة من معظم الدارسين ، باستثناء المتخصصين الذين عَدُّوا الأعمال المبكرة تجارب بعيدة عن روح الأدب المقارن . وكان أقسى هؤلاء المتخصصين ، وهم قلة قليلة ، عطية عامر الذي لم يرحم أحداً . وهذا هو حكمه المشترك على الأستاذين الأولَيْن تأليفاً وتدريساً :

« ولم يكن إبراهيم سلامة من المتخصصين في الأدب المقارن ، وكذلك كان الأمر مع عبد الرزاق حميدة ، ولهذا كان من الطبيعي أن نجد قصوراً واضحاً في فهمهما للأدب المقارن ، كما نجد اضطراباً وتضارباً في تحديد هذا الأدب .. »[٢٦] .

وقد رأينا في السابق حكمه التفصيلي على السابقين الثلاثة . والعجيب أنه يمجد فخري أبو السعود وينسب إليه مضاهاة المدرسة الأمريكية وسبقها ، مع أن الأخير لم ينطق بكلمة عن الأدب المقارن :

« من حقنا أن نقول إن فخري أبو السعود قد خرج بالأدب المقارن من مجال الاتجاه التاريخي قبل أن تبدأ المدرسة الأمريكية ثورتها ضدَّ الاتجاه التاريخي »[٢٧] .

ومثل عطية عامر كان محمد غنيمي هلال في موقفه من السابقين ، وقد مرت بنا أمثلة من أحكامه المفردة ، أما الحكم بالجملة فقد ورد في مقالته المشهورة عن (الأدب المقارن في الجمهورية

(٢٦) عامر ، ص ١٩

(٢٧) السابق ، ص ١٩

العربية المتحدة) ، إذ يتحدث عن الأساتذة الذين درسوا قبله في الخارج وعن الذين لم يدرسوا ، ويقول فيهم :

« ولكنْ لا هؤلاء ولا الآخرون كانوا يبحثون عن الأدب المقارن الصحيح . فهم في مقارناتهم لم يعيروا أدنى اهتمام للروابط التاريخية التي تكوِّن روح مهمتنا الحقيقية . وكانت دراساتهم تنتمي بالأحرى إلى المقارنة الأدبية أو الأدب العام »[٢٨] .

ويعتبر محمد غنيمي هلال الحرب العالمية فاصلاً بين اللاتخصص والتخصص ، إذ تحسَّن حال الدراسات المقارنية بعدها ، وأُوفد بعض الدارسين إلى الخارج ، وظهرت بعض الترجمات عن الفرنسية « ووجهت الجامعات المصرية أيضاً أهمية أكبر إلى المقارنة في مجالات أخرى غير الأدب مثل مجالي القانون المقارن واللغويات العامة المقارنة »[٢٩] .

ويوضح هلال في هذه المقالة التاريخية أن محاضراته في دار العلوم تغطي نقطتي الأدب المقارن والنقد المقارن . ويبين أنه حتى تاريخ كتابة المقالة (١٩٥٩) كان المتخصص الوحيد في تدريس الأدب المقارن في الجمهورية العربية المتحدة (مصر وسورية) . ويؤكد هذه الفكرة في نهاية المقالة بقوله : « وحتى اليوم أنا أتابع تحمل عبء تدريس هذه المادة بأكمله وحدي »[٣٠] ويشير إلى « أننا بالكاد تجاوزنا الطور الجنيني » . وأخيراً يختم المقالة بجملة واحدة تذكر المستقبل بتفاؤل وثقة .

محمد غنيمي هلال

وتدلُّ هذه المواقف على أن التخصص المقارني ، ممثلاً بعامر وهلال على الأقل ، كان يدرك أنه يقوم بمهمة إنهاء مرحلة في تاريخ الأدب المقارن ، هي المرحلة التي اصطلحنا على تسميتها بمرحلة (البداءات) ، واستهلال مرحلة جديدة تستقي مشروعيتها من التخصص الأكاديمي ، وهي التي تستحق أن تسمى (مرحلة التأسيس) .

وقد استهلها المتخصص بحملة قامت على تسفيه ما كان سائداً قبله من بداءات وإرهاصات ، وذلك انطلاقاً من الالتزام بوجهة نظر محددة مبتوتة والولاء لعاصمة التخصص الأوربية

(٢٨) هلال : « دراسات الأدب المقارن » سابق ، ص ١١ (عن الفرنسية) .

(٢٩) السابق ، ص ١١

(٣٠) السابق ، ص ١٣

(باريس) . ففي عام ١٩٥٢ عاد الدكتور محمد غنيمي هلال من بعثته الباريسية وتولى في مطلع عام ١٩٥٣ تدريس الأدب المقارن في دار العلوم ، وفي السنة نفسها أصدر كتابه (**الأدب المقارن**)[٣١] مشفوعاً بتأكيدات تخصصية عريضة ، وبالغائية كاملة للتجارب التي سبقته ، وملتزماً دروس أساتذته الفرنسيين مثل ڤان تييغم وغويار وجان ماري كاريه ، وهم أعمدة ما يسمى بالمدرسة الفرنسية التقليدية .

وتلخص مقدمة الطبعة الأولى بجمل موقف المتخصص الأول في الأدب المقارن في تاريخ المشرق العربي . ومن المفيد أن نقدم موجزاً لمؤشراتها العامة :

ـ الأدب يقوم على ركيزتين متلاحمتين هما الشكل والمضمون .

ـ كلمة (المقارن) يجب أن تؤخذ بمعناها التاريخي لا اللغوي ، أي تناول العلاقات التاريخية للأدب القومي خارج نطاق اللغة التي كتب بها .

ـ الأدب المقارن لا يُعنى بدراسة ما هو فردي في الإنتاج الأدبي فحسب ، بل يدرس الأفكار الأدبية والتيارات الفكرية والقوالب العامة والأجناس الأدبية ووسائل العرض الفنية .

ـ العلاقات والتأثيرات تتناول الشكل مثلما تتناول المضمون وكلاهما يدخلان في نطاق الأدب المقارن .

ـ الكتاب يمكن أن يسمى « المدخل لدراسة الأدب المقارن » أو « الأدب المقارن ومناهج البحث فيه » ؛ لأنه دراسة ذات طابع عام تتناول في قسمها الأول « معنى الأدب المقارن ، وتاريخ نشأته ، والوضع الحالي لدراسته في أوربة ، مع دعوة لإقرار منهج منظم له بالجامعات المصرية » . وتتناول في قسمها الثاني « فروع الدراسات في الأدب المقارن وطرق البحث فيها » .

ـ هناك اكتفاء بالأسس والأفكار العامة ، وهي معروفة لدى المتخصصين في الغرب ولكنها « قد تكون مجهولة عند غيرهم » .

ـ عند شرح الأفكار العامة بذلت جهود « إلى اختيار ما يوضحها من أمثلة خاصة بعلاقات الأدب العربي بالآداب الأخرى »[٣٢] .

(٣١) د . محمد غنيمي هلال : « الأدب المقارن » ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٨٧ . وهذه هي الطبعة التي أُتيحت لي مراجعتها ، وفيها مقدمات الطبعات الأولى والثانية والثالثة .

(٣٢) جميع الإحالات والاقتباسات المنسوبة إلى مقدمة الطبعة الأولى مأخوذة من المصدر السابق ، ص ص ٥ ـ ٨

إن هذه المقدمة شديدة الأهمية في تاريخ الأدب العربي المقارن لأنها رسمت منذ البدء خطوط مفهومات مرحلة التأسيس التي دامت حوالي ثلاثة عقود من الزمان على الأقل . وأهم المؤشرات التي حملتها هذه المقدمة :

١ ـ المنحى العلمي واضح في تقحُّم الموضوع مباشرة ، وفي تعريف العنوان ، وكذلك في اللغة التي تحاول أن تراعي الدقة ، وهذه فضائل مبكرة بالنسبة للدراسات الأدبية في أول الخمسينات .

٢ ـ لغة التخصص واضحة والمصطلح متبلور .

٣ ـ الأفكار مقررة مسبقاً ، وهناك التزام بمنهج محدّد ، وتأكد من صواب المنهج ، وغياب لأية احتمالات أو اجتهادات أخرى . فالمدرسة الفرنسية (الوضعية التاريخية) هي الأساس والمنبع ، والأدب المقارن هو علم دراسة العلاقات التاريخية بين الآداب خارج نطاق اللغة القومية ، والأدب القومي هو الأساس وتخدمه اللغة ، وكل مقارنة لاتقوم على العلاقات التاريخية تخرج عن نطاق الأدب المقارن .

٤ ـ المادة الأصلية غزيرة ولذلك لابدَّ من الاكتفاء بالمقدمات والأسس العامة . وهي تحتاج لكتب ومؤلفات . ومنهلها الأساسي هو الغرب .

٥ ـ التحدي النوعي المطروح أمام المؤلف العربي هو تطعيم هذه الأسس بأفكار عربية أو بالحالة الخاصة لتجربة الأدب العربي .

٦ ـ وهذا يعني أننا إزاء حالة استنبات نوعي لعلم معيّن في تربة عربية . وهو أمر يخرج عن المرددات الشائعة حتى تلك الفترة حول خصوصية الأدب العربي وتفوق اللغة العربية ، كما يقرب مناهج الدراسة الأدبية العربية من المناهج العلمية الوضعية . والحق أن هلال واعٍ تماماً لما هو مقدم عليه ، إذ يختم المقدمة بتأكيد الهدف العام للكتاب المتجه « إلى ترغيب الباحثين في هذا العلم من علوم الأدب ، وإلى الدعوة إليه ، وإلى شيء من التوجيه العام في بحوثه ... »[٣٣] .

والجدير بالذكر أن محمد غنيمي هلال لم يحِدْ فيما بعد عن هذه المنطلقات والمؤشرات ، وإنما ظلَّ وفياً لرؤيته الأولى ، وقد وسع كتابه في الطبعة الثانية عام ١٩٦١ من خلال محور محدد هو « التوسع في شرح صلات أدبنا العربي بالآداب العالمية في نواحيها المختلفة »[٣٤] .

(٣٣) السابق ، ص ٨

(٣٤) السابق ، مقدمة الطبعة الثانية ، ص ٣

ويُخشى أن يَكون لهاجسه هذا الملحّ في (تعريب) الجانب التطبيقي من (علم الأدب المقارن) أثره في التضخم غير الطبيعي الذي آل إليه الكتاب ابتداء من الطبعة الثانية ، إذ بدا المؤلف راغباً في التعريج على أي موضوع أدبي يمكن أن تكون له صلة بمفردات أبحاث الكتاب .

وهناك هاجس آخر في مستوى هذا الهاجس ، وهو التطلع إلى ربط الأدب المقارن بالنقد الأدبي ، أو على الأصح بالنقد (المقارن) ـ وهي تسمية كان يستعذبها المؤلف ـ وبالتالي إلى استثمار نتائج الأدب المقارن في حلبة النقد الأدبي (العربي بوجه خاص) . وربما من هنا كان توسعه في الطبعات اللاحقة في دراسة المذاهب الأدبية والأجناس الأدبية من خلال تفصيلات وأمثلة تتجاوز النطاق الطبيعي المرسوم للكتاب . ويحلو لبعض الدارسين أن يوحي بأن الدكتور هلال (جيّر) ما فاض لديه من أبحاث في كتابه : « **مدخل إلى النقد الأدبي الحديث** » ، ١٩٥٨ ، إلى الطبعة الثانية من « **الأدب المقارن** »[٣٥] .

والمشكلة أن هذين التطلعين ، التوسع التطبيقي العربي والإفادة النقدية ، تطلعان لا يفتقران إلى المشروعية ، وهما يؤلفان قسماً جوهرياً من رسالة محمد غنيمي هلال إلى أدب قومه .

ومن أهم ما يمكن أن يضاف من مؤشرات في مجال الحديث عن الطبعتين الثانية والثالثة من (الأدب المقارن) :

أ ـ تبلور الأساس الفكري للأدب المقارن في هدفية إقامة التوازن الخلاق بين القومية والإنسانية ، بحيث تُوجَّه أبحاث الأدب المقارن إلى تأصيل الروح القومي من خلال الكشف عن تميُّزه وتفاعله في وقت واحد مع الإبداعات الإنسانية الأخرى ، ومدى إسهامه في التراث العام للإنسانية .

ب ـ جدوى الأدب المقارن « في الكشف عن طبيعة التجديد واتجاهاته في الأدب القومي والآداب العالمية »[٣٦] .

جـ ـ الصلة الوثيقة بين الأدب المقارن والنقد الأدبي .

---

(٣٥) نشير إلى مطالعة صريحة بهذا الشأن للدكتور الطاهر أحمد مكي الذي تمنى لو أن الكتاب بقي على صورته الأولى مع إضافة بعض التفاصيل ، ولاحظ أن توفر المادة النقدية والرغبة في تضخيم الكتاب دفعا بالمؤلف « إلى إضافة صفحات كثيرة إلى (الأدب المقارن) تتصل أصلاً بالنقد الأدبي وصلتها بالمقارنة هامشية » ، مكي ، ص ص ١٨٩ ـ ١٩٠

(٣٦) السابق ، مقدمة ط ٢ ، ص ٢

د ـ ازدياد التفاؤل بمستقبل الأدب المقارن وتشديد « الدعوة إلى العناية بالدراسات المقارنة والإسهام فيها وتشجيعها »[٣٧] ، بوصفها دعوة إلى نمط جديد في التفكير الأدبي القومي ـ الإنساني .

ومرة أخرى ، كان أهم ما يميز الدور التأسيسي الذي قام به محمد غنيمي هلال هو التزامه التام بخط فكري منهجي محدد لا يحيد عنه ؛ وفي وسط ثقافي آخر غير الوسط الثقافي العربي ربما اعتبر هذا التماسك خاصية سلبية ، أو أقرب إلى السلبية لأنه يبنى على التزمت وأحادية النظرة ، ويطوي الكشح عن التطورات المتسارعة في الحقل العلمي ، ولكنه في الوسط الثقافي العربي يحمل إيجابية لاتنكر بسبب ما يتصف به هذا الوسط في مرحلته الحاضرة من تخبط وانتقائية واقتطافية ، وربما عشوائية في الأحكام والتقديرات . يضاف إلى هذه الخاصية أن المؤلف وقف نفسه على الأدب المقارن وعلى قرينه النقد الأدبي المقارن أيضاً ولم يطفَّ إلى كل اختصاصات الأدب وما فوق الأدب كما يفعل كثير من الدارسين العرب .

وقد كان هلال مؤهلاً تأهيلاً كاملاً لأن يكون مؤسس (علم) الأدب العربي المقارن ، بما اجتمع له من شهادة رفيعة متخصصة ، وبما أتقنه أو عرفه من لغات أجنبية (الفرنسية ، الفارسية ، الإنكليزية ، الإسبانية) ، وبما اتصف به من عقلية منهجية وإخلاص للحقيقة العلمية وحماسة ريادية ، وأخيراً بما ألزم به نفسه من الموازنة بين النظرية المقارنية وتطبيقاتها ، وبين مبادئها الغربية وتمثلاتها الشرقية أو العربية ، وحتى في مجال التطبيقات والتمثلات كان هناك توازن بين العلاقات الغربية للأدب العربي والعلاقات الشرقية الإسلامية ، وهذا ما لانجده إلا عند القلة القليلة من الباحثين .

وها هو تفسير هذه الأحكام من خلال مؤشرات مؤلفاته .

أ ـ في نظرية المقارنة :

« **الأدب المقارن** » ، بطبعاته المختلفة . ويمكن أن يُعدّ في صدارة قائمة أكثر الكتب العربية المعاصرة تأثيراً في الفكر الأدبي . ولو اقتصر الكلام على الكتب المتخصصة ذات الموضوع المفرد لكان كتاب غنيمي هلال الأول أو الثاني في القائمة . ومن المهم الإشارة إلى أن بضعة الكتب الجامعية المقارنية التي ألفت حتى مطلع الثمانينات كانت تستقي منه بشكل مكشوف أو مستور .

---

(٣٧) السابق ، مقدمة ط ٣ ، ص ج

ويكفي أنه كتاب متماسك في موقفه النظري ، أي يمكن أن يكون الإنسان معه أو ضده[٣٨] ، ويكفي أيضاً أنه كتاب علمي رهن نفسه لقضية واحدة مبنية على التفتح القومي والإنساني .

ومن الملاحظ أنه لم تجرِ وقفة مفصلة عند مباحث هذا الكتاب ومضمونه في القسم الحالي لأن الإشارة سبقت إليه في القسم الأول من كتابنا لدى شرح أفكار النظرية الفرنسية (التقليدية) . وقد صحّ لدينا أن شروح غنيمي هلال تضاهي الشروح الفرنسية الأصلية دقةً ووضوحاً ، وربما تفضُلها بما يراعيه المؤلف العربي من تفصيلات ضرورية لمصلحة القارئ العربي .

٢ ـ « **النقد الأدبي** » ، بطبعاته المختلفة .

وقد صدر هذا الكتاب أولاً بعنوان « المدخل إلى النقد الأدبي » في القاهرة عام ١٩٥٨ ، ثم طبع عدة طبعات في القاهرة وبيروت بعنوان (النقد الأدبي) . وهو نقد مقارن بمعنى الكلمة ، أكمل فيه المؤلف نظرية المقارنة من زاوية النقد الأدبي ، وتناول أسس النقد الغربي والنقد العربي والتيارات النقدية المعاصرة . واستُقبل الكتاب استقبالاً إيجابياً في الستينات ، وقال فيه د . محمد يوسف نجم :

« وهذا الكتاب يُعتبر خلاصة الجهود الجامعية في هذا الموضوع . وهو تنقيح وتهذيب للجهود السابقة ، جهود الشايب وطه إبراهيم وأحمد أمين ، والفرق بينه وبينها هو الفرق بين عصرين وثقافتين »[٣٩] .

٣ ـ « **دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر** » ، ويعدُّ هذا الكتاب تثبيتاً وتركيزاً لمجمل أفكار المؤلف المقارنية . وإن اختيار مثل هذا العنوان يشير إلى الإلحاح ثانيةً على نوعية الرسالة التي حملتها النظرية المقارنية عند غنيمي هلال إلى الأدب العربي . وهنا يكرر المؤلف تحديداته (الفرنسية) المتزمتة لموضوع الأدب المقارن[٤٠] ، ولا يخرج عن كتابه السابق بهذا

(٣٨) بالطبع لانناقش هنا صحة المادة العلمية للكتاب ولا الموقف الفكري ، وحسبنا أن نتناوله في السياق الحالي من خلال منطقه الخاص .

(٣٩) د . محمد يوسف نجم : (النقد الأدبي) ، من كتاب (**الأدب العربي في آثار الدارسين**) ، تأليف صالح العلي وآخرين ، بيروت ١٩٦١ ، ص ٣٦١

(٤٠) د . محمد غنيمي هلال : **دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر** ، القاهرة ، ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ ، ص ١٥

الصدد اللهم إلا من ناحية بعض القلق الذي يبديه تجاه المصطلح إذ يقترح تسميات أخرى تذكرنا بمقترحات فان تييغم وغويار التي سبقت الإشارة إليها في القسم الأول من الكتاب الحالي ، فهو يعرض مصطلحات مثل (التاريخ المقارن للآداب) ، و (تاريخ الأدب المقارن)[٤١] ، وكان قبلها قد أشار إلى مصطلح جديد هو (علم الأدب المقارن الحديث)[٤٢] .

ويروّج الكاتب بقوة إلى دعوة دراسة علاقات الأدب العربي بالآداب الأخرى ، وهذه الدعوة هي جوهر الكتاب . ويوطد ثانية نظرته الثنائية (القومية ـ الإنسانية) كأساس للموقف المقارني ، الذي يفترض فيه أن يزيد شخصية الأدب القومي تبلوراً وتمايزاً وأصالة من جهة وأن يؤكد المفهوم الإنساني ويغني تراث الإنسانية المشترك من جهة أخرى .

ويلتفت بحق إلى ضرورة التخلص من مفهوم السرقات الأدبية في الأدب العربي ، ويبيِّن أن رواسب دراسة السرقات الأدبية عقبة من العقبات في سبيل الدراسة المقارنة الحديثة ، لا بد من تذليلها قبل البدء في هذه الدراسات وشرح مناهجها .

يضاف إلى كل ما سبق إلحاحه الدائم على التعريف بالمذاهب الأدبية الغربية ومتابعة امتداداتها في حقل الأدب العربي ، ومن ذلك مثلاً كتابه (**الرومنتيكية**) ، القاهرة ، ١٩٥٦

ب ـ في التطبيق :

ومما يسجل لغنيمي هلال أنه لم يفصل النظرية عن التطبيق ، وأن كتبه النظرية كالأدب المقارن والنقد الأدبي كانت مثقلة بالأمثلة والتطبيقات من الشرق والغرب ، وكما ذكرنا سابقاً كانت هناك محاولة لإقامة توازن في دراسة علاقة الأدب العربي بالآداب الأخرى قائمة على ميزان تاريخي ـ جغرافي فعلاقات الماضي شرقية إسلامية ، وعلاقات الحاضر غربية عالمية .

ومن هنا كانت مثلاً ترجمة « ليلى والمجنون أو الحب الصوفي » من تأليف الشاعر الفارسي عبد الرحمن الجامي ، وقد زوّد الترجمة بمقدمة وتعليق لشرح إشاراتها التاريخية والفلسفية وبيان مصادرها العربية . وبالمقابل أغنى محمد غنيمي هلال المكتبة العربية بعدد من الترجمات عن

= بوجه خاص . وكان هذا الكتاب قد صدر عن دار نهضة مصر عام ١٩٥٦ ثم ظهر دون تغيير في الطبعة المشار إليها هنا عن معهد الدراسات العربية العالية .

(٤١) السابق ، ص ١٦

(٤٢) السابق ، ص ٣

الفرنسية ، يمكن أن يذكر منها كتاب (ما الأدب ؟) لجان بول سارتر ، وهي ترجمة مشفوعة بتقديم وتعليق (١٩٦١) .

وأخيراً ، من المشكلات التي تعترض التدقيق في إسهام غنيمي هلال تداخل منشوراته فكثير من كتبه الصغيرة ليست إلا فصولاً من أحد كتابيه **الأدب المقارن** أو **النقد الأدبي** .

وفي مجال الكلام على إسهام محمد غنيمي هلال لا بد من الإشارة إلى أنه أول عربي - مشرقي على الأقل - كتب عن الأدب العربي المقارن بلغة أجنبية . وتقف مقالته « دراسات الأدب المقارن في الجمهورية العربية المتحدة » وحيدةً في « الكتاب السنوي للأدب المقارن » الذي تصدره الرابطة الدولية للأدب المقارن[٤٣] . وهي مقالة قصيرة نشرت عام ١٩٥٩ وتضمنت تقريراً موجزاً عن حالة الأدب المقارن في الجامعات المصرية بوجه خاص ، وفيها إشارة إلى جامعة دمشق أيضاً . وقد سبقت الإشارة آنفاً إلى هذه المقالة واقتبسنا منها بعض آراء غنيمي هلال .

وقد اخترقت المنون شمعة محمد غنيمي هلال وهو في زهوة حماسته (١٩٦٨) ، فلم تكتمل رسالتاه التأليفية والتدريسية ، ويذكرنا ذلك بوفاة جوزيف تكست المبكرة ، وهو رائد من رواد الأدب المقارن في فرنسا في مطلع القرن العشرين .

والجدير بالذكر أن الملتقى العربي الأول للأدب المقارن (عنابة ١٩٨٣) وجه تحية تقدير إلى الرواد الأوائل للدراسات المقارنة في الأدب العربي الحديث وفي مقدمتهم روحي الخالدي ، رائد الأدب العربي المقارن ، والدكتور محمد غنيمي هلال مؤسسه وحجته[٤٤] .

---

(٤٣) حتى عام ١٩٨٨ وابتداء الثلاثينات لا يرد في الكتاب السنوي أية مادة عن الأدب العربي سوى مادة غنيمي هلال المشار إليها (١٩٥٩) ومادة أخرى للتوتنجي قصيرة تتضمن بشكل رئيسي عرضاً لجهود غنيمي هلال نفسه لا أكثر :

Cilbert Tutungi: «Comparative literature in the Arab world», **Yearbook**, 1964, p.64.

(٤٤) انظر تقرير حسام الخطيب بعنوان : « ملتقى الأدب المقارن في عنابة : هل يكون بداءة تاريخية ؟ » ، **المعرفة** ، ع ٢٥٧ ، تموز ١٩٨٣ ، ص ١٦٣

مع العلم أن غنيمي هلال لم يقابل بتقدير كافٍ ربما بسبب تداخل النزعات الأيديولوجية والموقفية والشخصية من جهة وبسبب الحملة (العقائدية) التي شُنت على المدرسة الفرنسية من جهة أخرى .

امتداد المرحلة في الجامعات العربية :

كانت دار العلوم هي الجهة الجامعية المؤسسة ، وكان محمد غنيمي هلال هو الأستاذ المؤسس . وقد تطورت الأمور بعد ذلك تطوراً غير سريع ، وفي عام ١٩٥٣ أدخل إبراهيم سلامة مقرر « الأدب المقارن » في كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وفي عام ١٩٥٦ بدأت دراسة الأدب المقارن في جامعة عين شمس على يد محمد غنيمي هلال ، وبعد ذلك سرت العدوى إلى الجامعات المصرية الأخرى[٤٥] ، ثم إلى الجامعات العربية . وكان التطور بطيئاً جداً في الستينات ، سواء من ناحية الاعتراف بمقرر (الأدب المقارن) أم من ناحية مضمونه حيث كان يقتصر في جامعات كثيرة على دراسة نصوص من الآداب الأجنبية ، وما زال كذلك في بعض الجامعات حتى يوم الناس هذا (مطلع التسعينات) .

وقد دخل الأدب المقارن إلى الجامعات الرسمية في سورية ولبنان ابتداء من عام ١٩٧١[٤٦] ، وإن كانت جامعة بيروت العربية سبقت إليه (١٩٦٣) بحكم تأثرها بالجامعات المصرية . وتسارعت خطوات قبول الأدب المقارن في الجامعات العربية ابتداء من منتصف السبعينات . وبعضها يدرسه كمادة اختيارية وبعضها كمادة رئيسية ، لكن يصعب الحديث عن أي اهتمام نوعي بالأدب المقارن في جامعات المشرق العربي . وما زالت طبيعة المادة غير واضحة . وقد عاد من الإيفاد في النصف الثاني من الثمانينات متخصصون شبان من مختلف الجامعات الأجنبية وحملوا معهم تباينات جديدة ، بسبب ضآلة البرنامج النظري الذي درسوه في الجامعات غير الفرنسية واكتفاء كثيرين منهم بالرسائل التطبيقية دون تحضير منهجي مناسب .

وقد دار معظم الحديث حتى الآن على جامعات المشرق العربي . أما جامعات المغرب العربي فلها وضع خاص . وتعد **جامعة الجزائر** أسبق من غيرها إلى تدريس الأدب المقارن ، إذ بدأت به (في العهد الاستعماري) منذ عشرينات القرن العشرين بحكم تبعيتها آنذاك لجامعة باريس ، وكان في البدء مادة مستقلة ثم أصبح شهادة متميزة وقسماً مستقلاً . ومع استقلال الجزائر في أول الستينات استمر الاهتمام بالأدب المقارن واضحاً وكانت (شهادة الأدب المقارن) واحدة من أربع شهادات

(٤٥) في عام ١٩٥٧ عاد من باريس كل من أنور لوقا وعطية عامر وقد تخرجا على يد (كاريه) .

(٤٦) كان أول من درّسه في جامعة دمشق حسام الخطيب وإحسان النص ، ثم انفرد به الخطيب حتى نهاية الثمانينات باستثناء فترات غيابه عن الجامعة . وتولى الخطيب تدريسه أيضاً في كليتي الآداب والتربية في الجامعة اللبنانية ببيروت من ١٩٧٧ - ١٩٨١

تـؤلف الإجـازة بـاللغـة العربيـة . وابتـدأت فرنسيـة اللغـة والمضمـون ثم عُرِّبت عـام ١٩٦٨ . وفي عام ١٩٧٥ حدثت تطورات في التنظيم الجامعي ، وأصبح الأدب المقارن مادة مستقلة في الجامعات الجزائرية وانفردت جامعة قسنطينة بإنشاء معهد خاص بالأدب المقارن .

وقد شهدت الجزائر في منتصف الستينات قيـام (الجمعيـة الجزائريـة للأدب المقـارن) وظهور مجلة (**دفاتر الأدب المقارن**) التي أصدرت ثلاثة أعداد سنوية (٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨) ، وكانت فرنسية اللغة وأحياناً فرنسية الطابع[٤٧] .

وفي **المغرب** ابتـدأ تـدريس الأدب المقـارن في (الربـاط) عـام ١٩٦٢ على يـد د . أمجـد الطرابلسي (من سورية) . وتعثرت الدراسة بعد ذلك إلى أن انتعشت ثانيـة في الربـاط وفـاس في منتصف السبعينات وتحولت إلى (شهادة الأدب المقارن)[٤٨] .

أما في **تونس** فقد تـأخر تـدريس الأدب المقـارن إلى عـام ١٩٧٢ ـ ١٩٧٣ . وتولى التـدريس المنجي الشملي ، والسيدة كيوز Guilloze ، والقروي . ويجري التدريس بالعربية والفرنسية[٤٩] .

ومن المنتظر أن تحمل جامعـات المغرب العربي إلى الأدب العربي المقـارن أنفـاساً جـديـدة . ويرجع تأخر الإسهام الغربي حتى الآن إلى حداثة الجامعات ، التي أنشئت بعـد الاستقلال وتعرضت لفترات من عـدم استقرار الخطـط الـدرسيـة بسبب ظروف التعريب وظروف أخرى متعـددة الجوانب ، غير أن المؤشرات الحالية تبشر بوجود نهضـة تـأليفيـة شـاملـة في المغرب العربي من جهـة وبرسوخ تقليد بحثي على أسس علمية منهجية .

امتداد مرحلة التأسيس في البحث والتأليف

خلال الـسنوات العشر التي تلت ظهور كتاب محمد غنيمي هلال ، لم يظهر سوى كتـاب واحـد في الأدب المقارن ، ليس في القاهرة هذه المرة ولكن في بغداد ، وذلك من تـأليف **صفـاء خلوصي** . ولم يتضمن الكتاب إلا إشارة خاطفـة إلى مـا كان يحـدث في مصر من تطورات مقـارنيـة ، تنـاولت

(٤٧) راجع التفاصيل في مكي ص ١٩٢ ـ ١٩٣ ، وهو يقدم تقرير شاهد عيان ويتحدث عن إسهامه في تعريب شهادة الأدب المقارن في الجامعات الجزائرية .

(٤٨) راجع التفاصيل في العرض الموسع الذي قدمه سعيد علوش ، سابق ، ص‌ص ٢٨٥ ـ ٢٩٢

(٤٩) راجع المصدر السابق ، ص ٢٩٢

بجملة واحدة كتاب عبد الرزاق حميدة في الأدب المقارن . وقد قدم هذا الكتاب ـ كما أشار مؤلفه ـ مزيجاً من نظرات الأدب المقارن وتطبيقاته العملية ، وعبَّر عن حماسة قوية لإدخال الدراسات المقارنة في الجامعات العربية ، وعدّ الأدب المقارن طريقاً إلى النهوض الثقافي العربي الشامل . كما تضمّن إشادة بالتراث العربي وطالب « بوضع منهج عام لدراسة الأدب المقارن ، في العربية ، وذلك بأن نبدأ باستخراج عناصره من كتبنا القديمة ، فنحن أول من درس الأدب المقارن »[٥٠] .

وأهم ما يميز كتاب خلوصي أنه عرض بعض الاتجاهات الأمريكية في الأدب المقارن ، وبذلك خرج عن مناخ فترة الخمسينات ، من ناحية تبنيها شبه الكامل لمفهومات المدرسة الفرنسية التقليدية على أن كل ذلك اتخذ شكل آراء سريعة فاصلة وحلول تقدم بغير مناقشة . ويرجع ذلك طبعاً إلى شعور المؤلف بأنه يرتاد حقلاً جديداً على الدراسات العربية ، وعنده أن الأدب المقارن لم يدخل حتى ذلك الحين في الدراسات الأدبية المقارنية (ص٤) .

ويتألف الكتاب من مقدمة مختصرة عن الأدب المقارن والمدرستين الأمريكية والفرنسية (ص ٦ ـ ٩) ، تليها فكرة عن أثر الأدب المقارن في دراسة الأدب العربي (ص ١٠ ـ ١٤) . وبعد ذلك تأتي المادة الرئيسية للكتاب وهي مجموعة دراسات تطبيقية في الأدب المقارن تتناول بوجه خاص علاقات الأدب العربي وتشابهاته شرقاً وغرباً .

ويختتم الكتاب بقسم موسع عن (المدارس الأدبية) ، ص ٢٧١ ـ ٢٤٤ . وعلى الرغم من أن هذا الكتاب لم يترك ما كان يرجى له من أثر في الاتجاه المقارني العربي وندرت إليه الإشارات في أدبيات المقارنة العربية التي تلت ، فإنه يستحق أن نقف عند بعض آرائه بسبب أهميتها الذاتية . والغريب في أمر هذا الكتاب أن صاحبه لم يكف عن نشاطه التأليفي فيما بعد ، وحتى يوم الناس هذا (١٩٩٢) ، ومع ذلك كان صداه شبه معدوم ، ربما بسبب ظروف الكتاب العربي ، وربما بسبب عدم انخراط المؤلف المتواصل في المؤسسة الجامعية .

على أية حال يمكن التنويه بالنواحي الرئيسية التالية في كتاب خلوصي :

١ ـ يقدم الكتاب بعض أفكار المدرسة الأمريكية في الأدب المقارن ، ويقارن بينها وبين الأفكار الفرنسية ، ويتناول بالانتقاد الحاد اضطراب ڤان تييغم بين التشابه والتأثير :

---

(٥٠) صفاء خلوصي : دراسات في الأدب المقارن والمذاهب الأدبية ، مط . الرابطة ، بغداد ١٩٥٧ ، ص ٥ من المقدمة .

« إن محاولة الفرنسيين التفلسف في تعريف الأدب المقارن وتحديده هو الذي أوقعهم في أمثال هذه المغالطات ، وبوسعهم أن يتحاشوا ذلك بأن يقولوا إن المشابهات والاختلافات جزء من (الأدب المقارن العام) ، ودراسة التأثيرات الواضحة عن طريق الترجمة هي (الأدب المقارن الخاص) ، وبذلك تنتهي الخلافات القائمة حول هذا الموضوع على جانبي المحيط الأطلسي » . (ص ٧) .

وهكذا ينهي خلوصي المعضلة بجرة قلم ويقدم تعريفه للأدب المقارن :

« الأدب المقارن هو فرع من الأدب العام ، الذي هو بدوره صنف من أصناف تاريخ الأدب ، وهو يمثل دراسة الموازنات والتيارات الأدبية تأثيراً وتأثراً في أدبين أو أكثر » . (ص ٦) .

غير أن شروح خلوصي لا تتطابق تماماً مع هذا التعريف الذي استهل به مقدمته . وهو يظهر باستمرار ميلاً باتجاه الأفكار الأمريكية الواسعة . ومن السهل أن يلاحظ الإنسان أن ثقافته الإنكليزية كانت عاملاً مهماً من عوامل ازدرائه الجريء (الذي ليس له ما يماثله في الخمسينات) لأفكار الفرنسيين . وعلى أية حال كان المقترح الذي قدمه حول (الأدب المقارن العام) و (الأدب المقارن الخاص) نتيجة لاطلاعه على أطراف من المناقشات الدائرة بالإنكليزية آنذاك حول معضلة الأدب المقارن .

٢ ـ ومن النواحي النظرية المهمة في هذا الكتاب ، التركيز على الترجمة ودورها في الأدب المقارن ، وهو يشيد بأهمية الترجمة إشادة عامة . ويشير المؤلف إلى كتاب سابق له بعنوان (**فن الترجمة في ضوء الدراسات المقارنة** » . ومن المعروف أن المؤلف تابع الاهتمام بالترجمة ويُعَدُّ من أبرز المؤلفين العرب في دراسة هذا الموضوع .

٣ ـ وبالنسبة للأدب العربي يقدم المؤلف تأكيدات جازمة حول الأثر الإيجابي للأدب المقارن في دراسة الأدب العربي من النواحي الرئيسية التالية :

أ ـ الأدب المقارن « لن يسيء إلى الطابع القومي لأدبنا ، فلأدبنا مناعة خاصة مسندة بتراث أربعة عشر قرناً » ، ص ١٢

ومن الملاحظ أن هذا التأكيد يتكرر في كتابات المقارنين العرب باستمرار ، ويمثل رداً ضمنياً على اعتراضات تقليدية قائمة أو متوقعة .

ب ـ التراث العربي يقدم مادة خصبة للدراسة المقارنة :

« فنحن أول من درس الأدب المقارن دون أن نشعر ، ففي كتاب **نقد الشعر** و **نقد النثر** لقدامة بن جعفر (وغيرها) مادة بكر لدراسة العناصر الأجنبية في البلاغة العربية ومدى تأثير مقاييس النقد اليونانية والأساليب والتشبيهات الفارسية في أدبنا العربي » . (ص ٥) .

والملاحظ في هذا النص المقبوس أن المؤلف يخلط بين وجود مادة خصبة للدراسة المقارنة في التراث العربي وكون العرب أول من درس الأدب المقارن . وهو يكرر هذا التخليط في أكثر من موضع . ومن المؤسف أن الكتابة العربية حتى اليوم لا تريد أن تتخلص من سيكلوجية المفاخرات التراثية .

جـ ـ الأدب المقارن هو طريقنا إلى فهم الأدب العربي وإلى إحداث نهضة أدبية ونهضة تدريسية بوجه خاص . فهو يردُّنا من تيار السِّيَر والتراجم الذي يسيطر على تدريس الأدب في بلادنا إلى الاتصال بالنصوص :

« والدعوة لدراسة الأدب المقارن كفيلة بإحداث انقلاب في دروس المطالعة والإنشاء والترجمة والنقد الأدبي والبلاغة . وسيرى المربُّون الفرق الهائل بين الطريقة القديمة والطريقة الحديثة المرتكزة على (المقارنة النصية) وإيجاد الترابط بين موضوع وآخر على أسس من الأدب المقارن »[٥١] .

وهذه لفتة تربوية مهمة تضاف إلى لفتات صفاء خلوصي المقارنية المتنوعة ، وتؤكد أنه كان قميناً أن يحتل مكانة تأسيسية في مرحلة (التأسيس) لو تابع أفكاره بتركيز وعناية وحرص على اتصال أوثق بالمؤسسة الجامعية العربية .

---

(٥١) السابق ، ص ١٤

كتابان في الستينات

(خفاجة)

وبعد عشر سنوات من ظهور كتاب غنيمي هلال ظهرت أول محاولة في مصر لحمل المشعل : إذ أصدر محمد عبد المنعم خفاجة كتاب : **دراسات في الأدب المقارن**[٥٢] ، في مئة وتسع وخمسين صفحة . ويضم القسم الأول دراسات عامة في الأدب المقارن (ص ١ ـ ٧٠) ، وتلي ذلك دراسات تطبيقية لمدرسة أبولو ومظاهر التأثيرات والتأثرات المختلفة حولها .

وفي التصدير يتحدث المؤلف عن أهمية « دراسة مظاهر التأثرات والتأثيرات المختلفة بين أدبنا العربي والآداب العالمية » لأنها « لا تزال مجهولة أو شبه مجهولة » .

ويلح على ما يمكن أن يفيده أدبنا العربي من هذه الدراسات ، ويتحدث بلهجة تبشيرية خطابية عن أخذ الغربيين من العرب . ويقتبس مقطعاً من د . محمد النويهي يشير فيه إلى أن الأدب المقارن بتركيزه على التشابه يقودنا إلى معرفة ما هو مختلف أي ما هو خاص بنا[٥٣] ، مع تأكد خاص بأن نتائج الأدب المقارن مبتوتة سلفاً لمصلحة الأدب العربي . ويشير إلى أنه منذ عشر سنوات ما زال يدعو إلى الاهتمام بالأدب المقارن ودراسة العلاقات بين أدبنا العربي والآداب الأخرى[٥٤] .

ويقدم خفاجة تعريفه للأدب المقارن فإذا هو يعادل « التاريخ المقارن للآداب » أو « تاريخ الآداب المقارن » ، وهو علم وتاريخ[٥٥] ، مع تركيز على دراسة التأثرات والتأثيرات بوصفها لبّ اهتمامات الأدب المقارن ، ومن هنا يحدد نطاق الأدب المقارن وبحوثه بالعلاقات بين الآداب الحديثة المعاصرة وكذلك القديمة[٥٦] . وتذكر عباراته بكتابات غويار وڤان تييغم ، وتبدو أفكاره تلخيصاً لبعض ما فهمه من كتابيهما في الأدب المقارن . وهناك بعض الإشارات لمحمد غنيمي هلال .

---

(٥٢) د . محمد عبد المنعم خفاجة : **دراسات في الأدب المقارن** ، دار الطباعة المحمدية ، القاهرة ١٩٦٢

(٥٣) السابق ، ص ٥ ـ ٦

(٥٤) السابق ، ص ٦ و ١١

(٥٥) السابق ، ص ١٠

(٥٦) السابق ، ص ١٧

وفي سنة ١٩٧٢ أصدر خفاجة طبعة ثانية موسعة ، مبقياً على التصدير والقسم النظري ومضيفاً مباحث مطولة حول : المذاهب الأدبية ، والأجناس الأدبية ، وعلاقات الأدب العربي بالشرق الإسلامي (الفرس والترك) ، وعلاقاته بالغرب . وقد احتذى نموذج غنيمي هلال وطريقته ، موسعاً أبحاثه ومصادره ، ربما لغرض التوسيع نفسه ، ناقلاً من هنا وهناك بطريقة تزويقية . وقد بلغ هذا القسم ١٩١ ص .

ويؤسف المرء أن يقرر أن الرصيد الأساسي لعبد المنعم خفاجة ـ كما يبدو من كتابه هو حماسته لأدبه العربي ولعالمية الأدب وتدفق أسلوبه ، أما ما عدا ذلك فليس سوى تقارير مدرسية عادية ومعلومات تجميعية مكررة . إن الكتاب لا يتقدم خطوة واحدة على كتاب غنيمي هلال ، وإنما يسير على نمطه ويكرّس أحادية النظرة في الفكر المقارني العربي ولا يستشير أي مرجع نظري بعد مراجع هلال . بالإضافة إلى أن منهجه يفتقر إلى دقة البحث المقارني وعلميته .

(حسن)

ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن كتاب حسن جاد حسن[٥٧] (١٩٦٧) ، الذي ينحو منحى غنيمي هلال وغويار ، ويحاول أن يسبقهما في التركيز على قضايا التأثر والتأثير وعالمية الأدب . وفي الموقف الاستبعادي التلقيني ، إذ يكتب فصلاً كاملاً عن الأدب المقارن وقضية العلاقات مملوءاً بالتحذيرات المتزمتة والنواهي الصارمة عن مخالفة الوصايا العشر للمدرسة الفرنسية التقليدية .

وهكذا تأتي حصيلة الستينات فقيرة كمّاً وكيفاً ، فهناك كتابان مدرسيان تلقينيان يقدمان شهادة لسبق محمد غنيمي هلال أو ربما لطغيان تأثيره[٥٨] ، ويوفران برهاناً على أن مرحلة التأسيس لم تتقدم خطوة واحدة بالمفهوم العلمي ، وإن كانت توطدت جامعياً على أساس اتخاذ المدرسة الفرنسية التقليدية أنموذجاً غير منازع .

---

(٥٧) حسن جاد حسن : الأدب المقارن ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ، القاهرة ١٩٦٧ ، وهناك ط٢ عام ١٩٧٥

(٥٨) يعدُّ سعيد علوش ٢٨ إحالة في كتاب حسن على كتاب غنيمي هلال ، ثم يقدم جدولاً طويلاً للاقتباسات من هلال دون إحالة ، ويشير في نهايتها إلى أن الأمر ينطبق على عبد المنعم خفاجة . انظر بوجه خاص ص ص ٢٣٢ ـ ٢٤٥ من كتاب علوش ، سابق .

السبعينات : امتدادات التأسيس وإرهاصات التنوع

ومقابل هذا الجدب الذي رأيناه في الستينات ، تحمل لنا السبعينات أنفاساً مهمة ، لاتكرر تماماً ماسبق ولكنها لاترقى إلى مستوى مرحلة جديدة ، بل لعل الظاهرة المشتركة فيها هي الوعي المقارني بوجه عام ، وهو أولاً وعي بالأهمية العلمية لمنهج المقارنة ، وثانياً وعي محدود بوجود وجهة نظر أخرى في الأدب المقارن إلى جانب وجهة النظر الفرنسية (التقليدية) . والملاحظ أن الشعور بوجود هذه النظرة الأخرى (الأمريكية) لم يؤدِّ إلى الخروج على النظرة التقليدية وإنما ـ على العكس ـ أدى عملياً إلى تمسك اختياري بها ، وذلك بدلاً من التمسك السابق الذي لم يكن موضع تساؤل لأنه كان الخيار الوحيد . وإذن يمكن القول إن السبعينات حملت امتداداً لمرحلة التأسيس ، وفي الوقت نفسه حملت بذور مرحلة جديدة ، ولا سيا في أواخر الفترة .

ويلفت النظر في هذه الفترة وجود تطور ، ولو محدوداً، من الناحية الكمية ، إذ أمكن إحصاء خمسة أعمال تحمل عنوان الأدب المقارن بشكل واضح ، كما يظهر في القائمة اللاحقة ، وذلك بالإضافة إلى إشارات بدأت تتكرر في الكتب النقدية إلى الأدب المقارن ، وهذا التطور الكمي طبيعي جداً لأنه يعكس التطور العام في نسبة المؤلفات الأدبية العربية .

ومما يلفت النظر من الناحية الجغرافية استمرار قصب السبق للدارسين المصريين ، ولكن هذه المرة من خلال النشاط التدريسي والتأليفي في بيروت . ومن المعروف أن السبعينات شهدت انتقال مركز الثقل في صناعة النشر بالدرجة الأولى وفي النشاط الثقافي أيضاً إلى لبنان . والكتب الأربعة التي تحمل عنوانات مقارنية في هذه الفترة طبعت في لبنان ، والخامس طبع في بغداد ، فكأن بغداد حافظت على إسهامها الذي بدأه صفاء خلوصي في الخمسينات ، وسوف يتابعه في الثانينات ـ كما سنرى ـ داود سلوم . والحقيقة أن الاهتمام بالأدب المقارن تصاعد بقوة في بيروت أواخر السبعينات ، وساعد على ذلك عاملان ، أحدهما عام هو الانتعاش الثقافي الحي ، والثاني خاص هو جو الانفتاح الفكري العالمي الكوزموبوليتاني المتحرر من المعوقات التقليدية السائدة في أغلب العواصم العربية ، وهو الجو المناسب للدراسات المقارنة .

وبالطبع لا يفاجئنا ، حين نأخذ بعين الاعتبار التطور الشامل الذي خاضته الثقافة العربية في هذه الفترة ، وجود تطور ملحوظ في المصطلح المقارني واللغة النقدية ، التي لم ترق إلى مستوى اللغة البحثية المباشرة ، ولكنها تخلصت عند كثير من الباحثين من النزعات الخطابية والبلاغية .

وبما أن هذه الفترة وما يليها تتعلق بدارسين معاصرين ما زالت إسهاماتهم مستمرة وما زالت أمامهم فرص لبلورة مواقفهم النظرية ومناهجهم التطبيقية ، فإن الدراسة الحالية ستنحو بشأنهم منحىً عاماً مختصراً يكتفي ببيان المؤشرات العامة ، ويتجنب التقييم الجارح الذي يتبنى طريقته بعض الدارسين من خلال فوقية لا تليق بالتواضع العلمي ، ويقينية لا تناسب الطبيعة الرجراجة للدراسات الأدبية والإنسانية .

(كفافي) :

ويستهل الدكتور محمد عبد السلام كفافي المرحلة بكتاب ضخم مثير في خمسمئة وخمس وخمسين صفحة (٥٥٥ ص) ، يبدو مبرّأ من التزمت المقارني في الموقف والمنهج ، ويغلب عليه جانب العرض الممتع في إطار أفق واسع نظرياً وتطبيقياً وذوق نقدي لا يخفى . وفي هذا الكتاب (**الأدب المقارن**)[٥٩] ، تتوطد بعض أسس الفترة من النواحي التالية :

أ ـ الإحساس بوجود مدارس أخرى غير المدرسة الفرنسية ، ولا سيما المدرسة الأمريكية ، مع الإشارة إلى الوضع المقارني في ألمانيا وبريطانيا . وهذا كله تحسس عام لا يدخل في التفاصيل ولا يعكس ظله على المواقف التطبيقية ، وإن كان يظهر فهماً عاماً جيداً للفروق بين الاتجاهات المختلفة .

ب ـ محاولة وضع الأدب المقارن في إطار عام من التطور الفكري والثقافي والنقدي وربطه بجو الانفتاح العالمي ، وهي بذور موجودة ـ والحق يقال ـ عند المقارنين الأوائل ، ولا تشكل خروجاً مفاجئاً في هذا الاتجاه ، مما يزيد من الاعتبارات التي تدعو الدارس الأدبي لتأكيد استمرار مرحلة التأسيس حتى نهاية السبعينات .

جـ ـ الاهتمام بالتطبيق من الزاوية التي تناسب الأدب العربي وهي زاوية الروابط الشرقية الإسلامية وبوجه خاص علاقة الأدب العربي بالأدب الفارسي .

د ـ التركيز على العلاقة التاريخية ومفهومات التأثر والتأثير أي الانتهاء عملياً إلى التمسك بالأسس والمنطلقات الفرنسية الأصلية ، وذلك في إطار نظرة توفيقية مرنة قائمة على التفهم ومتخلصة من الاستبعادية . ويبدو ذلك جلياً في ناحيتين اثنتين بوجه خاص :

---

(٥٩) د . محمد عبد السلام كفافي : الأدب المقارن ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١

الأولى : طريقته في تعداد مجالات الأدب المقارن بحيث لا يتخلى عن طبيعته الأساسية (العلاقات والصلات الدولية) ، ويتسع في آن واحد لكل ما يخدم فهم الظاهرة الأدبية خارج حدودها ، سواء من جهة التعرض للتشابهات والتماثلات غير القائمة على التأثر والتأثير أم من جهة علاقة الأدب بالفنون الأخرى . وهو يخصص فصلاً موسعاً لبسط مجالات الأدب المقارن (ص ص ١٧ ـ ٣١) .

الثانية : تناوله المتحمس لعلاقة الأدب بالفنون وتاريخ دراسة هذه العلاقة . ويكاد يكون كفافي الباحث العربي الوحيد في هذه المرحلة ـ وربما فيما بعدها ـ الذي تناول هذه المسألة تناولاً جدياً ، بل أضاف إليها بعداً جديداً حين أكّد أن مقارنة الأدب بغيره من الفنون ترجع إلى زمن سحيق ، وقد شارك فيها المنظرون والفلاسفة القدامى ولا سيما اليونان . وقد خصص فصلاً كاملاً لهذا الموضوع (ص ص ٣٣ ـ ٤٥) .

إن معظم مؤلفي عقد السبعينات ، وهم في الوقت نفسه أساتذة مقرر الأدب المقارن في عواصم المشرق العربي ، يشاركون كفافي منطلقاته العامة بأشكال متفاوتة ، مع حرص كل منهم على أن يكون له إسهام ما وتميّز واجتهاد ، ولو من ناحية إثبات سعة الاطلاع .

(طه ندا) :

فطه ندا مثلاً في (الأدب المقارن) يستمر في تفهم منطق المدرسة الفرنسية ولا يشغل نفسه بمناقشة منطلقاتها لأنه يعتبرها وليدة بيئة معينة وثقافة خاصة بتلك البيئة ، ويقنع نفسه ، بعد تأكيد أهمية الأدب المقارن ، باستعارة أبرز مفهوماتها (التأثر والتأثير) لتأكيد دفع الدراسات المقارنة العربية باتجاه الشرق الإسلامي ، والأدب الفارسي ثم الأدب التركي بوجه خاص ، وبيان إشعاع اللغة العربية والأدب العربي في هذه المجالات .

ويُعدّ طه ندا من أبرز فرسان هذا الاتجاه . والجدير بالذكر أن اتجاهه العربي الإسلامي الشرقي لا يمنعه من تفهم الظروف التاريخية والثقافية التي نشأ الأدب المقارن الأوربي في إطارها والتي دفعته دفعاً إلى التركيز على الآداب الأوربية ، وعلى التأثيرات الأوربية في آداب المناطق والأمم الأخرى وثقافاتها :

« والأدب المقارن ، باعتباره دراسة أوربية النشأة والاتجاه ، يتخذ مادة دراسته من الآداب

الأوربية والتيارات الفكرية عند الأوربيين ، ويهتم بالأحداث التاريخية والعلاقات الاجتماعية وأصدائها في آدابهم . وهذا كله أمر طبيعي لأن أي دراسة أدبية تنشأ في بيئة معينة تحمل في مظهرها وطياتها سمات تلك البيئة » .

فكأن الكاتب يحاول أن لا ينخرط في سياق النزعة التهجمية على المقارنين الفرنسيين الأوائل التي تأخذ عليهم تركيزهم على الآداب الأوربية ، أو ما يسمى بالنزعة الأوربية Euro-Centrism ، ويعمل على مضاهاتهم بطريقة عملية من خلال التركيز على العلاقة الإسلامية للأدب العربي وإثبات وجود عالم أدبي ثقافي آخر له مناخه وعلاقاته ، مؤكداً أنه يشق « طريقاً مغايراً لطريق الأوربيين تختلف فيه مادة الدراسة وبواعثها وأهدافها »(٦٠) .

(عبد المنعم إسماعيل) :

ويشارك في هذا الاتجاه العام أيضاً عبد المنعم إسماعيل في كتابه (نظرية الأدب ومناهج البحث الأدبي)(٦١) ، وهو كتاب غير خاص بالأدب المقارن ، ولكن له دلالته من حيث بدء دخول المنهج المقارني في صلب التفكير الأدبي العربي ويقدم الكتاب تعريفات مبدئية للأدب المقارن ، شأنه شأن مؤلفي المرحلة ، ويقدم دليلاً إضافياً على التصاق مرحلة التأسيس بمفهومات المدرسة الفرنسية الأصلية وممثلها محمد غنيمي هلال . إلا أنه لا يجهل وجود مدارس واتجاهات أخرى ، ويلاحظ بحق وجود أوساط في بريطانيا بوجه خاص وكذلك في أمريكا لا تحفل بالأدب المقارن ، كما لا يفوته أن يشير إلى انفتاح المدرسة الأمريكية . ويبدو موقفه الفكري في صف الانفتاح والتلاقح بين الآداب والثقافات ، ولا سيما حين يتعلق الأمر بالأدب العربي الحديث الذي لا تخفى أصوله الفكرية والأدبية والغربية .

(إبراهيم عبد الرحمن) :

وغير بعيد عن هذا الاتجاه كتاب د . إبراهيم عبد الرحمن محمد الذي يجمع الحسنيين :

(٦٠) د . طه ندا : (**الأدب المقارن**) ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٥ ، ص ٥ ـ ٧
ولطالما تمنى المرء أن ينحو الباحثون العرب هذا المنحى بتقديم وجهات نظر أو إسهامات درسية مقابلة بدلاً من الاتهام والسلبية . والجدير بالذكر أن طه ندا كان عازفاً عن الخوض في المناقشات النظرية للأدب المقارن ، ومصادره فقيرة ، إلا أنه استند إلى مصدر إنكليزي هو كتاب (**الأدب المقارن**) لهنري غيفورد ، ومن خلاله عبَّر عن « عدم التسليم التام » بالفروق اللغوية (ص ٢٥) ، وكذلك ذكر (**نظرية الأدب**) لولك ووارن (ص ٣٢) .

(٦١) د . عبد المنعم إسماعيل : **نظرية الأدب ومناهج البحث الأدبي** ، جـ١ ، دار الناشر العربي ، القاهرة ١٩٧٧

(النظرية والتطبيق في الأدب المقارن)[٦٢] ، كما يجمع الأدب المقارن والنقد ، إذ يطالعنا منذ البدء بمحاولة الاتجاه بالأدب المقارن وجهة النقد الأدبي مؤكداً أن الأدب المقارن :

« ليس سوى وسيلة من وسائل نقد النصوص والأعمال الأدبية وتقويمها ، أو هو ـ إذا أردنا تحديد ذلك بدقة ـ صورة للنقد في شكله الحديث »[٦٣] .

ويقترب بذلك اقتراباً شديداً من منحى غنيمي هلال ، ويكرر اهتمامه بالنواحي النقدية بل يحاول أن يوجه المقارنات التي يعقدها على طريقة ڤان تييغم لتقدم حصيلة نقدية ، ويقوده ذلك إلى استطرادات تبعد به عن ڤان تييغم وتقربه كثيراً من هلال . ومن خلال هذه المطابقة بين الأدب المقارن والنقد يخطر له أن يوحي بأن الأدب المقارن يمكن أن يكون عملاً إبداعياً مثلما أن النقد الأدبي ـ عنده ـ عمل إبداعي[٦٤] .

ولكن أنفاس مرحلة التأسيس (الغنيمية) لاتقتصر على هذه الناحية النقدية بل تتعداها إلى لبّ المفهوم المقارني ، إذ يتتلمذ على ڤان تييغم من ناحية تأكيد الطبيعة العلمية ـ التاريخية للأدب المقارن ، دون أن يظهر أي إحساس بإمكان وجود تضارب ـ ولو بشكل جزئي ـ بين التركيز على هذين القطبين والحديث عن الأدب المقارن بوصفه إبداعاً من جهة ، وبوصفه نقداً أدبياً من جهة أخرى . وعنده أن الأدب المقارن يحاول « ككل علم تاريخي أن يشمل أكبر عدد ممكن من الوقائع المختلفة الأصل ، حتى يزداد فهمه وتعليله لكل واحدة »[٦٥] .

ويؤكد أن التأثر والتأثير أمر حتمي ، ولا يخلو أي أدب مهما كانت أصالته وعراقته من التأثر بآداب أمم أخرى غريبة عنه . وهي تأكيدات حرص على وضعها في الواجهة معظم مؤلفي مرحلتي البداءات والتأسيس ، ربما رداً على الاعتقادات التي كانت سائدة حول صفاء اللغة العربية والأدب العربي ونقاوتهما من الأخلاط . وهكذا يجعل إبراهيم عبد الرحمن التأثر والتأثير محور دراساته .

---

(٦٢) د . إبراهيم عبد الرحمن محمد : النظرية والتطبيق في الأدب المقارن ، ط١ ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٧٦ . وقد طبع ثانية في بيروت عام ١٩٨٢ (دار العودة) ، وثالثة في القاهرة (مكتبة الشباب) ١٩٨٤ . وفي بعض المراجع : إشارة إلى طبعة أخرى في القاهرة عام ١٩٧٨ ولم أتحقق من ذلك .

(٦٣) السابق ، ط٢

(٦٤) السابق ، ص ٦

(٦٥) السابق ، ص ٥

ولا يظهر عنده أي إحساس بالخلافات النظرية حول الأدب المقارن ، سواء في داخل المدرسة الفرنسية أم خارجها في إطار الغرب ، وهكذا لا يرد ذكر لإيتامبل ولا للمدرسة الأمريكية ولا لأصداء أقرانه من المؤلفين العرب ، ويقرر بهدوء ويقينية أن المصطلح تبلور وانتهى بمفهوم « دراسة التأثير والتأثر المتبادلين بين الأعمال الأدبية » ، وأنه « قد فرض نفسه على الدارسين منذ وقت طويل ، بحيث اكتسب مفهوماً علمياً محدداً ، ولم يعد الكتاب والمؤلفون في تاريخ الآداب المختلفة يتساءلون عن مفهوم هذا المصطلح ، لوضوح غايته وتحدد ميدانه »[٦٦] .

ولا يدري المرء مصدر هذه اليقينية المطلقة . وكان يكفي المؤلف لو تابع وقائع أي مؤتمر مقارني من المؤتمرات العالمية أو الإقليمية التي عقدت في فترة جمعه مواد كتابه ليعرف إلى أي مدى تتضارب الاتجاهات المقارنية عالمياً وعربياً أيضاً . إلا أن المؤلف لا يفوت على نفسه في بعض المناسبات الإشارة إلى تطورات حديثة في النظرية المقارنية غيرت من النظرية القديمة « التي كانت تشترط لقيام دراسة مقارنة أن تكون بين أدبين من لغتين مختلفتين ؛ فهناك شعوب مختلفة تتكلم لغة حديثة واحدة ، كالإنكليزية مثلاً التي يتكلمها شعبان مختلفان في كل شيء هما : الشعب الإنكليزي والشعب الأمريكي . ولا يستطيع الباحث المنصف ، مهما كان تحفظه العلمي ، أن يزعم أن الأدبين الإنكليزي والأمريكي المكتوبين بلغة إنكليزية واحدة لا تصح المقارنة بين ظواهرهما الفنية المتشابهة »[٦٧] .

ويصلح المقطع السابق لأن يكون نموذجاً للمشكلة النوعية تعاني منها كتابات إبراهيم عبد الرحمن المقارنية ، وذلك بصرف النظر عن الجهد الحقيقي المبذول فيها . وتتلخص هذه المشكلة في نقص المتابعة الخاصة بتطورات النظرية المقارنية من جهة ، وفي انحراف زاوية المناقشة أو العرض عن المنحى المقارني . فمثلاً في هذا المقطع يوجد إغفال لكل المناقشات المتضاربة التي دارت في الأدب المقارن منذ نشأته حول مشكلة عدم التطابق بين الحدود اللغوية والحدود القومية أو السياسية ، كما يوجد إغفال للمناقشات الخصبة والبعيدة الجذور عن طبيعة العلاقة بين الأدبين الإنكليزي والأمريكي[٦٨] .

---

(٦٦) السابق ، ص ٥

(٦٧) السابق ، المقدمة ب .

(٦٨) سبق الكلام على هذه النواحي في القسم الأول من الكتاب الحالي .

وفي النهاية ليست المسألة مسألة (تصح أو لاتصح) إنما هي مسألة طبيعة المناقشة هل هي مقارنية (أي بين أدبين مختلفين) أم هي موازنة (داخل الجدران كما يقول رماك) .

وعلى الرغم من عدم تركيز المناقشة الحالية على النواحي التطبيقية لأن الموضوع هو تطور الوعي النظري ، فإن من حق المؤلف الذي قسم كتابه مناصفة بين النظرية والتطبيق أن تذكر جهوده التطبيقية ولا سيما من ناحية حسن اختياره لثلاثة موضوعات شديدة الأهمية في الحقل المقارني وهي الغزل العذري ، ومأساة أوديب ، وأسطورة بيجماليون . ولكن هنا أيضاً تعاني المناقشة من انحراف الزاوية ، إذ ينتقل المؤلف بين دراسة العلاقات والتأثيرات وبين الأحكام والاستطرادات النقدية ، ويتوصل إلى استنتاجاته دون أن يراعي تعددية الآراء والمواقف المتصلة بالظاهرة المدروسة ، فكأن الدرس الجامعي أو النفس التلقيني ألقى بظله على الدرس المقارني . ويلفت النظر في باب الغزل العذري اعتقاد المؤلف أنه ، من خلال المقارنة بين الأدبين العربي والفارسي ، قد خرج بنظرية جديدة مفادها أن هذا النوع من الغزل « نتاج شعبي يعبر أصحابه من خلاله عن قضايا بيئتهم تعبيراً رمزياً »[٦٩] .

وفيما بعد لاتقدم للقارئ البيانات الكافية حول أهمية هذه النظرية من ناحية ماتقدمه من جديد في الفهم المقارني لظاهرة الغزل العذري التي كتب عنها الكثير الكثير في الشرق والغرب .

وأخيراً يخشى أن تكون إعادة طباعة كتاب (**النظرية والتطبيق ..**) دون تغيير في طبعتين على الأقل (١٩٨٢ ، ١٩٨٤) بعد عام ١٩٧٦ ، وفي عاصمتين مختلفتين (بيروت والقاهرة) قد حملت تأكيداً جديداً لاستمرار مرحلة التأسيس حتى مطلع الثمانينات .

(بديع محمد جمعة) :

ويستمر خط التفحص النظري والاختيار ، والاهتمام بالتطبيق من ناحية الالتفات إلى العلاقة الشرقية الإسلامية للأدب العربي عند د . بديع محمد جمعة ، الذي تذكّر مقدمة كتابه التنظيرية الطويلة بزميله في المؤسسة الأكاديمية العصرية إبراهيم عبد الرحمن محمد . وإن كانت هذه المقدمة ـ والحق يُقال ـ تنبئ عن تطور لاينكر في استيعاب الدرس المقارن وفي الفهم العام (غير التخصصي) لطبيعة المدرسة الأمريكية بالمقارنة مع المدرسة الفرنسية . ويتناول جمعة بمرونة

---

(٦٩) السابق ، المقدمة ب .

بعيدة عن المماحكة آلية الخلاف النظري ويحاول أن يتجاوز الخوض في مسألة المفاضلة بين الآراء والتحليلات عن طريق مخرج عملي تطبيقي ، بعيداً عن الترجيحات النظرية الخالصة . وهكذا ينتهي إلى تبني الاتجاه التاريخي الفرنسي لأنه قابل للتطبيق بالمقارنة مع الاتجاه الأمريكي المفتوح الذي يتطلب من الإنسان الإحاطة بكل العلوم والفنون . ومن هنا يقرر جمعة قصر الأدب المقارن « على المجال الضيق ، وهو مجال الآداب المختلفة ، دون الربط بين هذه الآداب وبين الفنون المختلفة وسائر العلوم »[٧٠] .

وهذه نقطة عملية لافتة للنظر ربما بسبب ورودها لأول مرة في مناقشات مرحلة التأسيس بمثل هذه المباشرة والوضوح . ولكن بالطبع لو تأمل فيها الإنسان ملياً لوجد أنها ليست حجة ذات اعتبار لأن إمكانيات الدراسات الحديثة تتجاوزها عن طريق العمل المشترك أو عمل الزمرة من جهة ، وتكنولوجيا البحث المتطورة من جهة أخرى . ولهنري رماك مناقشات في هذا الصدد سبق أن جرت إشارة إليها في القسم الأخير من عرض نظرية رماك في الكتاب الحالي . وعلى أية حال انتهت اختيارات بديع جمعة الواعية إلى التطابق مع جملة منطلقات مرحلة التأسيس ، ولكن ربما بطريقة أكثر نضجاً وبلغة أقرب إلى المصطلح العلمي . ويلفت النظر في مقدمته ومن خلال مناقشاته التطبيقية :

١ ـ تكرار مصطلح (علم الأدب المقارن) .

٢ ـ تبني تعريف محمد غنيمي هلال للأدب المقارن ، وإيراده بنصه ، ومحاولة تفسيره من خلال بعض الإضافات الثقافية العامة :

« وبناء على هذا التعريف يمكن القول بأن علم الأدب المقارن يعتمد على دعامتين أساسيتين هما : اختلاف اللغة والصلات التاريخية ، وتفصيل ذلك :... »[٧١] .

ويأتي التفصيل معتمداً على منطق المدرسة الفرنسية التقليدية مع تلوينات من مقارنين آخرين مثل عبد السلام كفافي وطه ندا .

٣ ـ التركيز على فائدة الأدب المقارن في خدمة الأدب القومي وتفتيح آفاقه ، وفي الوقت نفسه تأكيد فائدة الأدب المقارن بالنسبة (لحركة الأدب العالمي) وللتفاهم الثقافي الإنساني بوجه

(٧٠) بديع محمد جمعة : دراسات في الأدب المقارن ، دار النهضة ، بيروت ، ١٩٧٨ ، ص ١٥

(٧١) السابق ، ص ١٦ . وانظر التفصيلات في الصفحات التي تليها .

عام ، مع الإشارة إلى فضل المقارنة في تقوية الدعوة إلى (أدب عالمي واحد) . وهذا تطور مهم في التفكير المقارني العربي ، ولكن لا يبدو أن صاحبه مستوعب تماماً لمغزاه .

٤ ـ الإشادة بدور الأدب المقارن في تطور النقد الأدبي وتاريخ الأدب ، على طريقة غنيمي هلال مؤسس مرحلة التأسيس .

٥ ـ الاستناد في المادة النظرية إلى المقارنين العرب من زملاء المؤسسة الأكاديمية ، وعدم الرجوع إلى أي مصدر أجنبي بما في ذلك المصادر المترجمة المعروفة. وهو يعتمد بوجه خاص على غنيمي هلال في فهم المدرسة الفرنسية وعلى عبد السلام كفافي وطه ندا في فهم المدرسة الأمريكية . ولعل هذا الموقف الفريد يحمل دليلاً جديداً على التصور المرحلي الذي اعتمدناه هنا والذي ينهي مرحلة التأسيس مع نهاية السبعينات ، ذلك أنه أصبح في مقدور مؤلف جامعي عام ١٩٨٧ أن يكتفي بالمراجع العربية وأن يقدم من خلالها حلاً عملياً تطبيقياً ، وبالطبع نذكر هذا الأمر من باب (تقدير) الواقع وليس (إقرار) هذه القناعة المبكرة جداً في مجال التخصص المقارني .

ريمون طحان :

وعلى الرغم من السبق الزمني لكتاب « **الأدب المقارن والأدب العام** »[٧٢] ، ١٩٧٢ ، فقد آثرنا تأجيل الكلام عليه إلى النهاية بسبب اختلافه النسبي عن المراجع السابق ذكرها في النواحي التالية :

أ ـ الاستقاء من المصادر الفرنسية الأصلية مباشرة ، دون وساطة محمد غنيمي هلال أو الترجمات العربية ، بل دون الاكتفاء بالمراجع الفرنسية المتكررة في كتابات مرحلة التأسيس . ويلفت النظر هنا استعانة ريمون طحان بالمراجع العامة الموسوعية ، ربما اختصاراً للوقت والجهد ، ثم إنه يذكر بعض المراجع الإنكليزية دون أن تتبين استفادته النوعية منها .

ويستنتج المرء من طريقة ريمون طحان في العرض أنه كان مستعجلاً من أجل تلبية حاجة طلابه إلى مرجع مختصر ، وفوّت على الدرس العربي المقارن فرصة استفادة ثانية متبصرة مباشرة بعد تجربة محمد غنيمي هلال التي لم يظهر ريمون طحان أية بادرة لتجاوزها .

(٧٢) د . ريمون طحان : الأدب المقارن والأدب العام ، دار الكتاب ، بيروت ١٩٧٢

ب ـ ربطه المباشر بين الأدب المقارن والأدب العام ومطالبته بتحديد اختصاصها[٧٣] ، وإعطاء وزن للأدب العام يتجاوز ما عرف من قبل .

إلا أنه هنا أيضاً يقدم مطالبته بطريقة آلية مفرغة من مضمونها العلمي . ثم إن تحديده للعلاقة بين الأدبين متكئ اتكاءً حرفياً على تحديدات ڤان تييغم في الفصل الأخير من كتاب الأدب المقارن . ولا يوجد هنا ، ولا في أية فقرة من فقرات الكتاب أية محاولة لمناقشة المسائل المطروحة بطريقة غير مدرسية .

جـ ـ اطلاعه النسبي على نتف من الآراء المتضاربة مع الاتجاه التاريخي الفرنسي سواء في داخل فرنسا (اعتراضات إيتامبل) أم في خارجها (المدرسة الأمريكية) . إلا أنه هنا أيضاً يقفز بسرعة فوق هذه الآراء ، بل إنها لتختلط عنده حتى تتداخل حدودها تداخل مفاهيم المركزية الأوربية مع نقائضها في ثورة إيتامبل على (المدرسة التقليدية) .

وفي خاتمة المطاف ينتهي المؤلف إلى تأكيد النظريات الفرنسية الأصلية بطريقة مدرسية مباشرة . ويقرر أن كلاً من الأدب المقارن والأدب العام يهتمان بدراسة « العلاقات الثنائية التي تقوم بين أدبين أحدهما قومي والآخر أجنبي » ... و « يركزان على مشكلة العلاقات التي تكون إما تاريخية غير مشكوك بصحتها وإما غامضة ومبهمة نستجليها من جو مشترك »[٧٤] .

ويصعب على المرء أن يقف بجدية علمية أمام تخطيطات ريمون طحان ومقترحاته المدرسية بشأن النهوض بالأدب المقارن . بل هنا أيضاً يتذكر المرء التفصيلات الحيّة التي كان غنيمي هلال يقدمها باستمرار بين يدي مقترحاته الجوهرية للنهوض بالأدب المقارن ، ويشعر بالأسف ثانية لهذه الفرصة التي فوّتها على الدرس العربي المقارن أستاذ جامعي لا يشكو من فقر في المؤهل العلمي أو عجز في الاتصال بالمنابع الأصلية ، أو سبق إلى إدراك أهمية الأدب المقارن[٧٥] .

---

(٧٣) السابق ، ص ١٣٢

(٧٤) السابق ، ص ١٢٩

(٧٥) تعتمد هذه الملاحظة على معرفة مباشرة بجهود ريمون طحان التدريسية . وله مقالتان مبكرتان حول (أصول الأدب المقارن) في الثقافة الدمشقية ، ١٩٦٦/٢ و ١٩٦٦/٣

صالح عبد المطلب :

ويعطينا كتاب (**الأدب المقارن والأدب العام**) لريمون طحان فرصة للاطلاع على بعض ماآلت إليه آراء مرحلة التأسيس فيما بعد ، وذلك من خلال تعليق للأستاذ صالح عبد المطلب ، أحد مؤلفي فترة التأسيس ، على كتاب الدكتور طحان . ولئن فاتنا التعرف على آراء عبد المطلب من خلال كتابه (**دراسات في الأدب والنقد**)[٧٦] فقد واتت الفرصة من خلال التعليق المذكور الذي يعود إلى عام ١٩٨٧ . ففي مقالة بعنوان « تلاقي الآداب في ضوء الأدب المقارن ... »[٧٧] يبدأ بمقدمة حول الأدب المقارن مكتوبة بلهجة تبشيرية إصلاحية تركز على تأكيد الخصائص الخاصة للشعوب ورفض أي اتجاه عالمي (كوزموبوليتاني) من خلال اعتداد قومي تراثي متزمت . فكلمة (إنسانية) مثلاً تثير غضبه ، وهو متعاطف مع المدرسة الفرنسية التقليدية لأنها أقرب إلى التزمت القومي ، ومناهض للمدرسة الأمريكية لأنها تقوم على الكوزموبوليتانية التي لاتعني شيئاً سوى الهيمنة .

ومن خلال هذا الموقف يقدم الكاتب مراجعة لكتاب (**الأدب المقارن والأدب العام**) ، وينسب إلى مؤلفه التخبط بين المدرستين الفرنسية والأمريكية ، وكذلك يقرِّعه لإغفاله دور العرب وثقافتهم في مناخ التأثيرات العالمية ويبني مناقشته على أساس إشادة مطلقة بدور العرب في التأثير بالآداب الغربية دون أي اعتراف بوجود تأثير مقابل . وهذه المراجعة (الساخنة) غير مبنية على تدقيق في التقاط خواص الكتاب المراجَع .

---

(٧٦) عبد المطلب صالح : دراسات في الأدب والنقد المقارن ، مطبعة الشعب ، بغداد ١٩٧٣

(٧٧) عبد المطلب صالح : « تلاقي الآداب في ضوء الأدب المقارن ، مع نموذج تطبيقي » ، **الأقلام** ، ع ٩ ، س ٢٢ ، ١٩٨٧/٩ ، ص ص ٩٩ ـ ١٠٣ . ولنا عودة قريبة إلى عبد المطلب صالح .

الفصل الثالث :

نحو التكامل والتنوع

المرحلة الثالثة (الثمانينات وما بعد)

تمهيد :

ماأكثر ما يجري الحديث لدى مؤرخي الأدب ومنظريه عن خطورة (المرحلة) أو (التعصير) ، ولا سيما حين يتعلق الأمر بظاهرات أدبية ناشئة لم تأخذ فرصتها الزمنية لاستكمال خصائصها المرحلية .

وفي رأينا ، واختصاراً للمناقشات ، أن المرحلة ـ مثل كثير من الأمور ـ شرّ لابدّ منه ؛ يزداد استفحالاً عندما تحدد سنواتها وخصائصها تحديداً حاسماً . فلْنقُلْ إذن أن ما نفعله هنا هو مجرد تسهيل للنقاش وأن الاعتماد يجري على ضوابط غالبية مستخلصة من طبيعة الظاهرة المدروسة ، ولكنها لاتنطبق على كل ماأنتج من دراسات مقارنية خلال الفترة المعنية ، كما أن هناك استباقات تقدمت في المراحل السابقة ، وكذلك هناك أمثلة ـ كما سوف نرى ـ تعدّ امتداداً لأوائل مرحلة التأسيس .

مع هذا التحوط الذي ينطبق على كل عملية (المرحلة) التي جرى تنظيم تطور الظاهرة المقارنية العربية من خلالها ، يمكن الاطمئنان إلى أن مطلع الثمانينات ، شأنه شأن مطلع الخمسينات ، يشكل نقطة بدء لمرحلة جديدة ذات خواص مشتركة . ويمكن إطلاق تسمية (التكامل والتنوع) على هذه المرحلة ، لأسباب خارجية وداخلية . مع التأكيد أن القرب الزمني لهذه المرحلة من تاريخ الاستنتاجات الحالية (أواخر ١٩٩١) يدفع بالمرء إلى التزام جانب الحذر ، والاكتفاء بالخطوط العامة جداً والوصفية بوجه خاص ، وترك التفصيل والتمحيص لفرصة أخرى ، على الأقل لأن تجربة هذه المرحلة الجديدة مازالت مفتوحة ، وتدل المؤشرات العامة لها أنها يمكن أن تستمر زمناً أطول ، قد يمتد إلى نهاية القرن وقد يتجاوزها بقليل .

أولاً : في المؤشرات الإطارية النوعية

تمثل مرحلة الثمانينات نهوضاً شاملاً في مجال الدراسة الجامعية والبحث الجامعي (ولم أقل العلمي) من الناحيتين الكيفية والكمية . وتحتل الظاهرة الأدبية ، ولا سيما الدراسة الأدبية والنقدية ، مكانة طيبة في مدرج هذا النهوض . فمن السهل أن يلاحظ المرء مثلاً توفر الدراسات المساعدة من تاريخية وسياسية واجتماعية عامة على نحو لم يعرف من قبل ، وغنى الأفكار النقدية والنظريات التحليلية ، والاتجاه بالبحث الأدبي من فكرة المقالة التجميعية إلى طريقة البحث المنهجي الموثق والتفحص التحليلي . كذلك من السهل أن يلاحظ المرء توسع المشاركة العربية في البحث الأدبي بحيث تعددت الجامعات والدوريات ودور النشر وبدأت تساهم في الحركة الثقافية الأدبية مناطق كثيرة في الوطن العربي كانت حتى الثمانينات مجرد متلقية . ومن ناحية الموارد المالية ازدادت نسب الإنفاق على الدراسات والبحوث ، ولكن يبقى ما ينفق في البلاد العربية على هذه الجوانب أقل بكثير من الحد الأدنى المفترض في مرحلة متحضرة .

وبالطبع كل هذه المظاهر يجب أن تؤخذ من منظار نسبي ، أي أن وضع الثمانينات تطور عن وضع المرحلة السابقة ، ولكنه وضع غير مرضٍ بوجه عام ، وفي بعض جوانبه يشكل مأساة ثقافية علمية ، كوضع البحث العلمي والأدبي الذي هو أقرب إلى الكارثة القومية ، وكوضع النشر ونشر الكتاب بوجه خاص حيث يزداد الأمر صعوبة وتتحول مغامرة النشر بالنسبة للمؤلف إلى باب من أبواب التضحية المرة أو الصدمة التي لا مفرّ منها .

وعلى أية حال يمكن القول إن الإطار العام الثقافي والأدبي والجامعي جعل مناخ الثمانينات مهيأ أكثر مما سبقه لولادة مرحلة جديدة في الدرس المقارن العربي تتصف بالتميز والتنوع والاتجاه إلى استنباط موقف متكامل أو تكاملي من نظرية المقارنة بل من النظرية الأدبية بوجه عام .

ومن المؤشرات الخارجية ذات التأثير المباشر في الظاهرة المقارنية يمكن ذكر ما يلي :

١ ـ **تعدد الجامعات العربية واكتمال عدد من الجامعات التي بدأت عملها في السبعينات ،** وبوجه خاص جامعات الخليج العربي والمغرب العربي ، حيث أظهرت ميلاً إلى تشجيع البحث والتأليف يفوق ما استطاعت تقديمه الجامعات الأقدم عهداً التي شغلت بالهموم التدريسية واستيعاب الطلبة بسبب ظروف النمو الديمغرافي وضعف الإمكانات المتاحة .

وبالنسبة للأدب المقارن نلاحظ مثلاً صدور ثلاثة أعمال مقارنية مهمة في المجال النظري وحده في رحاب جامعات مغربية ، وعمل آخر عن جامعة الرياض[٧٨] ؛ كما عقد أول تجمع للمقارنين العرب في جامعة عنابة الجزائرية عام ١٩٨٣[٧٩] .

٢ ـ ويتبع ماتقدم **ازدياد عدد المدرسين المتخصصين** بالأدب المقارن في الجامعات العربية بوصول عدد من المبتعثين الذين أوفدوا في الفترات السابقة . وفي المعتاد يستغرق تحضير رسالة دكتوراة في مجال الأدب المقارن وقتاً أطول من الفترة الزمنية المألوفة التي لا تتجاوز ست سنوات في مجال الدراسات الأدبية الأخرى . وقد سبق أن أشرنا إلى أن عدداً من هؤلاء غير قليل أوفدوا إلى جامعات لاتهتم اهتماماً خاصاً بنظرية الأدب المقارن وأعدوا رسائل جامعية في البحث التطبيقي المقارن ، ولذلك لم يتضح بعد إسهامهم في الجوانب النظرية من البحث المقارن .

٣ ـ وعلى أية حال تسبب ازدياد عدد الموفدين وتنوع الجامعات المقصودة في بروز ظاهرة مواتية جداً للبحث المقارني وهي **ظاهرة التعدد اللغوي** . فمن خلال الإيفاد إلى البلدان الأوربية المختلفة بدأت تغتني المنشورات العربية بأفكار مقتبسة أو مترجمة مباشرة عن لغات أخرى غير اللغتين السائدتين حتى الآن وهما الإنكليزية والفرنسية . ومن أبرز هذه اللغات الجديدة حسب أهميتها المقارنية : الألمانية ، فالإسبانية ، فالروسية ، فالبلغارية والبولونية وبعض اللغات الأوربية الأخرى . ويلاحظ تراجع في متابعة اللغات الكلاسية كالإغريقية القديمة واليونانية . كما يلاحظ تزايد لا بأس به في الاهتمام باللغة الفارسية (ربما نتيجة لتصاعد الوجود الثقافي الإيراني في بعض المناطق العربية) ، وتأتي التركية بعدها ثم الأوردية . أما لغات الشرق الآسيوي كاليابانية والصينية فهي غير معروفة حتى الآن ويتم النقل عنها أحياناً عن طريق لغات وسيطة كالإنكليزية فالفرنسية . وقد تقدمت الإشارات إلى ظهور انتعاش في الترجمة المقارنية ابتداء من الثمانينات مقابل الانكماش الذي لوحظ في مرحلة التأسيس ، وهو انتعاش نسبي لا يكاد يلبي الحاجة المتزايدة إلى الاطلاع على الأبحاث المقارنية في الخارج .

٤ ـ **كما شهدت مرحلة الثمانينات تنوعاً في الدوريات العربية المتخصصة بالثقافة والأدب ،** وارتقاءً في عمل هذه الدوريات ـ ولا سيما الفصلية منها ـ سواء في حسن اختيار المواد أو في سياسة

---

(٧٨) راجع القائمة الحولية .

(٧٩) سيرد الحديث عنه بعد قليل .

تكليف المتخصصين أو في التركيز على أعداد خاصة ذات محاور محددة ؛ ومن هذه الناحية الأخيرة أفاد الأدب المقارن إفادة واضحة ؛ وأصبح هناك مجال للمطارحة والمجادلة ، وأيضاً للتبسط في عرض المسائل المعقدة والمتداخلة للأدب المقارن بدلاً من الاكتفاء بالمقالات السريعة المقتضبة .

وتشير مراجعة الدوريات العربية المختلفة قبل الثانينات إلى ضآلة ما نشر في موضوع الأدب المقارن ونظريته ، وإلى عدم وجود أية أعداد خاصة في أي موضوع مقارني ، مع وجود بعض المقالات الخاطفة بين حين وآخر التي تتناول بعض النواحي المبدئية في الأدب المقارن ، وذلك باستثناء كتابات محمد غنيمي هلال في الدوريات المصرية وفي مجلة (**الأديب**) اللبنانية مطلع الخمسينات . وقد تقدمت إشارة إلى ومضة مهمة هي (**الدفاتر الجزائرية**) التي تخصصت في الأدب المقارن (١٩٦٦-١٩٦٧) وإلى جانبها وفي فترة مقاربة ومضت ومضة مقارنية أخرى في لبنان هي مجلة (**الدراسات الأدبية**) التي كانت تعنى بالعلاقة الإيرانية للأدب العربي[٨٠] .

ومن الحق أن تجري الإشارة هنا إلى بروز اهتمام واضح بالأدب المقارن في الدوريات السورية ابتداء من منتصف السبعينات ، في حين أنه لم يكن يذكر قبل ذلك إلا نادراً . ونخص بالذكر في السبعينات مجلة (**المعرفة**) التي نشر فيها كاتب هذه السطور عام ١٩٧٦ عرضاً مفصلاً لتجربته في المشاركة في المؤتمر الثامن للرابطة الدولية للأدب المقارن (بودابست ١٩٧٦) ، كما بدأ ينشر مقالات ومقابلات في **البعث والثورة** (الملحق الثقافي) غرضها نشر الوعي المقارني وتوسيع أفق المقارنة العربية والخروج من الشرنقة المدرسية وربط هذا الأفق بالتطورات العالمية . وكان من ذلك المقالات الثلاث التي نشرت في **المعرفة** عام ١٩٧٩ حول « الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الإنساني »[٨١] .

وقد تصاعد في الثانينات اهتمام الدوريات العربية الجادة بالأدب المقارن ، وصدر أكثر من عدد خاص أو محور خاص عن الأدب المقارن ، كما حدث في (**المعرفة**) و (**الآداب الأجنبية**) و (**الموقف الأدبي**) في سورية بوجه خاص . ومن أهم الأعداد الخاصة في أول هذه المرحلة عدد مجلة **عالم الفكر** عن الأدب المقارن . وقد تضمّن مقالة نظرية وافية ، ولكنه تميز ببحث د . شوقي

(٨٠) للتفصيل راجع علوش ، ص ص ٢٢٥ ـ ٢٣٠ . وكنت اطلعت على الأولى أما الثانية فلم أرها .

(٨١) جرت الإشارة سابقاً إلى هذه المقالات ، ويؤسف للمرء أن يضطر إلى تكرار الإشارة إليها خضوعاً لمتطلبات السياق . كما يشير المرء بأسف إلى تجاهلها من قبل بعض مؤرخي الأدب العربي المقارن .

السكري عن « مناهج البحث في الأدب المقارن » ، وفيه عرض تاريخي شامل (بانورامي) للخطوط الكبرى لتطور الأدب المقارن من الناحيتين التأليفية والجامعية في أوربا وأمريكا ، إلا أنه لم يتعرض لمناقشة الأفكار والمناهج[٨٢] .

وفي مطلع عام ١٩٨١ ظهرت في القاهرة مجلة (**ألف : مجلة الشعريات المقارنة**) **Alif: Journal of Comparative Poetics** ، عن قسم اللغة الإنكليزية في الجامعة الأمريكية بالقاهرة . وهي سنوية مزدوجة اللغة بين الإنكليزية والعربية ، رفيعة التخصص ، وبالتالي محدودة الانتشار . وكان عددها الأول خاصاً بالفلسفة والأسلوبيات . وعلى الرغم من عنوانها المقارني فإنها لم تحفل بأية مادة تمتُّ بصلة إلى الأدب المقارن كنسق معرفي .

وقد أتيح لي متابعة أعدادها حتى عام ١٩٨٦ فلم يتبين وجود سياسة مرسومة لهذه المجلة ذات المستوى العالي ، ولم يظهر فيها مايفي بعنوانها اللهم إلا ما كان من أمر الاهتمام أحياناً بموضوع الشرق والغرب في العدد السادس لعام ١٩٨٦ إذ ظهرت فيه مقالتان الأولى عن رفاعة الطهطاوي والغرب ، والثانية بعنوان : « المسافة والاستقبال : التاريخ الأدبي الإسلامي والقارئ الغربي »[٨٣] ، وهي ذات منهج مقارني .

ولعلها تسير على نمط بعض الدراسات الأكاديمية الأنكلو ـ سكسونية التي لاترى في المنهج المقارني أية خصوصية . إلا أن اسم المجلة لايوحي بذلك .

ويُعدُّ عام ١٩٨٣ عاماً مهماً جداً في السياق الحالي ، إذ أصدرت فيه مجلة **فصول** (القاهرة) عددين متعاقبين خاصين بالأدب المقارن (الثالث[٨٤] والرابع[٨٥]) ، ويعدّ هذان العددان أكبر إسهام منفرد للدوريات العربية في توثيق الأدب المقارن العربي ودفعه إلى الأمام ، على الرغم من عدم التوسع في المشاركة العربية والنقص في تغطية الجوانب المختلفة للظاهرة المقارنية وغلبة

---

(٨٢) د . شوقي السكري : « مناهج البحث في الأدب المقارن » ، **عالم الفكر** ، مجلد ١١ ، ع ٣ ، ١٠ ـ ١٢/١٩٨٠ ، ص ص ١١ ـ ٤٠ . وقد اعتمدنا على هذا البحث في القسم الأول من الكتاب الحالي .

(٨٣) انظر :

Michael Beard: Distance and Reception, Islamic Literary History and the Western Reader, «Journal of Comparative Poetics», American University, Cairo, No. 6, 1986, pp. 45-62

(٨٤) **فصول** ، عدد خاص بالأدب المقارن ـ ١ ، ع ٣ ، م ٣ ، ٤ ـ ١٩٨٣/٦

(٨٥) **فصول** ، عدد خاص بالأدب المقارن ـ ٢ ، ع ٤ ، م ٣ ، ٧ ـ ١٩٨٣/٩

الأبحاث التطبيقية (التي أصبحت تعجّ بها الدوريات العربية منذ السبعينات لأن معظمها مجتزأ أو ملخص عن رسائل جامعية) . وفيما يلي قائمة بأبرز الموضوعات النظرية في هذه التجربة التي كان لها صدى مهم في أوساط الدارسين العرب وأصبحت مصدراً يستقى منه :

- الأدب المقارن بين المفهومين الفرنسي والأمريكي ، عبد الحكيم حسان ص ١١ـ١٧
- التأثير والتقليد ، أولريش ڤايشتاين ، تر . مصطفى ماهر ص ١٨ـ٢٥
- مفهوم التأثير ، سمير سرحان ص ٢٦ـ٣٥
- فلسفة الأدب والأدب المقارن ، رجاء عبد المنعم جبر ص ٣٦ـ٤٧
- وضع الأدب المقارن في الدراسات المعاصرة ، أمينة رشيد ص ٤٨ـ٥٨
- نقد المقارنة ، جون فلتشر ، تر . نجلاء الحديدي ص ٥٩ـ ٧٠
- إشكالية الأدب المقارن ، كمال أبو ديب ص ٧١ـ ٨١

وباقي العدد مقالات تطبيقية عن العلاقات الأدبية العربية شرقاً وغرباً ، ومثل ذلك الجزء الثاني الذي يحتوي مقالة تأسيسية في « تاريخ الأدب المقارن في مصر » ، لعطية عامر ، (ص ١٣ ـ ٢٢) .

وإلى جانب الاهتمام الملحوظ في الدوريات المتخصصة يتزايد الاهتمام بالأدب المقارن ، ولو نسبياً في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية . وهذا الاهتمام المتصاعد يساعد كثيراً في اتساع الوعي المقارني خارج إطار التخصص الضيّق ، ويعطي مسوغاً إضافياً لاعتبار مطلع الثمانينات بداءة لمرحلة جديدة سمتها التكامل والتنوع .

٥ ـ ومن أبرز التطورات الإطارية في هذه المرحلة بدء تنظيم أعمال المقارنين العرب في شكل مؤتمرات وروابط ، وذلك تأكيداً لوعيهم أهمية النسق المعرفي الذي يلتفون حوله من جهة ، وضرورة تفاعل جهودهم من خلال قنوات تنظيمية تقوي موقفهم وتوحّد أصواتهم من جهة أخرى .

وفيما يتعلق بالمؤتمرات المتخصصة بالأدب المقارن يبدو أن مؤتمر الأدب المقارن الذي دعت إليه جامعة المنيا بمصر كان أول هذه المؤتمرات ، ومع الأسف لم نجد له أصداء في الأدبيات المقارنية . على أية حال تعدّ الدعوة إلى هذا المؤتمر عام ١٩٨١ استهلالاً داعماً لبداءة مرحلة (التكامل والتنوع) .

وبعد ذلك بسنتين توسعت الحلقة ، وتمّ عقد « ملتقى دولي حول الأدب المقارن عند العرب » في رحاب معهد اللغات والآداب بجامعة عنابة (الجزائر) من ١٤ ـ ١٩٨٣/٥/١٩ ، بحضور مجموعة من أساتذة الأدب المقارن من عدة جامعات عربية وبعض الجامعات الأوربية . وكان من أبرز المدعوين الأجانب : بيير برونيل ، الأستاذ في الصوربون ورئيس مركز البحث في الأدب المقارن التابع لها ، وميشيل باربو من الصوربون أيضاً ، ود . نوريس من مدرسة الدراسات الشرقية والإفريقية (لندن) .

وقد دارت الأبحاث والمناقشات حول المحاور التالية :

١ ـ تاريخ الأدب المقارن في الجامعات العربية .
٢ ـ الأدب المقارن في الصحافة ووسائل الإعلام العربي (ولم يقدم أي بحث في هذا المحور) .
٣ ـ قضايا بين الأدب العربي والآداب الأجنبية .
٤ ـ صور الشعوب الأجنبية في الأدب العربي الحديث .
٥ ـ صورة العرب في الآداب الأجنبية .

وكانت تغطية هذه البنود متفاوتة كمّاً وكيفاً ، ومن خلال المناقشات التي دارت والأوراق التي قُدمت إلى الملتقى تبين وجود تساؤلات متنوعة حول طبيعة الأدب المقارن ووظيفته ومصطلحه ومنهجه[٨٦] . ونظراً لما لهذه الأمور من أهمية فقد انتهى الملتقى إلى اعتماد موضوع مركزي واحد للملتقى القادم هو :

« الأدب المقارن : المصطلح والمنهج » .

وفي هذا التحديد دلالة قوية على الشعور بالبلبلة التي بدأت تسود في الثمانينات بعد سنوات الاطمئنان الطويلة خلال مرحلة التأسيس .

وقد أقرّ الملتقى جملة من التوصيات أبرزها ضرورة عقد لقاء سنوي للمقارنين العرب ،

---

(٨٦) للتفصيل انظر :
حسام الخطيب : « ملتقى الأدب المقارن في عنابة : هل يكون بداءة تاريخية » ، **المعرفة** ، ع ٢٥٧ ، ١٩٨٣/٧

وإنشاء رابطة عربية للأدب المقارن ومركز لدراسات الأدب المقارن ومجلة تابعة له . مع مقترحات أخرى تنظيمية وعلمية وتأليفية مهمة[٨٧] .

وبعد سنة واحدة ، وبناء على توصية هذا الملتقى ، الذي اصطلح فيا بعد على تسميته « الملتقى التحضيري للأدب العربي المقارن » ، سجل معهد اللغات والآداب بجامعة عنابة نجاحاً ثانياً بعقد (المؤتمر الأول للمقارنين العرب) في عنابة من ٨ ـ ١٩٨٤/٧/١٢ ، وأهم ما تمخض عنه هذا الملتقى التاريخي انبثاق (الرابطة العربية للأدب المقارن) وانتخاب مكتب للرابطة تكون جامعة عنابة مقره الدائم . وانتخب عبد المجيد حنون (الجزائر) أميناً عاماً للرابطة إلى جانب ممثلين عن جامعات في العراق وفلسطين ومصر والأردن ، مع عضوين احتياطيين من كل من ليبيا وعدن . (الأسماء في الملحق) . وأُقر في اجتماع الجمعية التأسيسية عشية اختتام المؤتمر (قانون الرابطة العربية للأدب المقارن) . وصدر عنها فيا بعد العدد الأول من نشرة الرابطة (١٩٨٥) بجهود أمينها العام ومبادراته .

وبعد سنتين تماماً عقد (المؤتمر الثاني) للرابطة ، بدعوة من جامعة دمشق ، في رحاب كلية الآداب من ٦ ـ ١٩٨٦/٧/٩ ، وشارك فيه باحثون من الجامعات العربية التالية : الكويت ؛ الأردنية واليرموك (إربد) ؛ الجزائر ووهدان وقسنطينة وعنابة ؛ القاهرة ؛ بغداد ؛ الرياض ؛ دمشق وحلب وتشرين (اللاذقية) .

ومن الأجانب حضر دوي فوكيا ، رئيس الرابطة الدولية للأدب المقارن (هولندي) ، وجون إيركسون ومايكل ضاهر (أمريكا) . وتلقى المؤتمر رسائل تأييد أهمها رسالة من هنري رماك وأخرى من ألرش ڤايشتاين . كما أرسلت بحوث كثيرة لم يستطع أصحابها الحضور بسبب الأعباء المالية للسفر[٨٨] . ودارت البحوث والمناقشات حول موضوع مركزي هو : « مجالات الأدب المقارن عند العرب نظريةً وتطبيقاً » .

---

(٨٧) مخافة أن يطول الكلام إذا جرى التوقف عند كل مؤتمر ، سوف يجري تلخيص لأهم الوقائع ، وتترك التفصيلات الأخرى للملحق التوثيقي .

(٨٨) من أجل التفصيل يراجع التقرير الوافي الذي قدمه حسام الخطيب بعنوان : « المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن » ، **مجلة جامعة دمشق** ، ع ٧ ، ١٩٨٩/٩ ، ص ص ١٠٧ ـ ١٢٥

واتخذ المؤتمر توصيات علمية وتنظيمية ، ومن أبرز التوصيات العلمية ضرورة ترجمة كتب نظرية في الأدب المقارن والاهتمام بإنصاف رواد الدراسات الأدبية المقارنة والاهتمام بموضوع « المذاهب الأدبية وتمثلاتها في الأدب العربي ونقده » .

ومن التوصيات التنظيمية أعطيت الأولوية لإنشاء مركز عربي للأدب المقارن ، وتأسيس فروع للرابطة العربية في مختلف الأقطار العربية .

وعشية اختتام المؤتمر عقدت الجمعية العامة جلسة تنظيمية ، وأقرّتْ عدداً من البنود لتنظيم عمل الرابطة ، وجرى توسيع مكتب الرابطة[٨٩] .

وفيما يلي فكرة عن أهمية المؤتمر :

أ ـ أتى عقد المؤتمر في منأى عن تظاهرات الممالأة السياسية وفي إطار أكاديمي خالص انتصاراً لقضية الأدب المقارن وللرابطة وتأكيداً لتطور الوعي العلمي والفكري في الجامعات العربية .

ب ـ حقق المؤتمر تعاوناً بين أقسام اللغات العربية والإنكليزية والفرنسية في الجامعات العربية ، وهذا ما يبشر بإمكان سدّ ثغرة كبيرة في الدراسات الأدبية العربية الحديثة ناجمة عن انقطاع الصلة بين هذه الأقسام .

جـ ـ أتت البحوث متنوعة ، وإن تكن متفاوتة القيمة المقارنية ، وساد المؤتمر جو علمي مفتوح .

د ـ في تعليقه على الحصيلة النهائية للمؤتمر كتب الأستاذ دوي فوكيما ، رئيس الرابطة الدولية للأدب المقارن ما يلي :

« نجح المؤتمر نجاحاً عظيماً ، فكرياً واجتماعياً على حدٍّ سواء ، وأعتقد أن الأدب المقارن ودراسة الأدب بوجه عام كسبا كثيراً في العالم العربي بفضل جهودكم الناجحة لجمع هذا العدد الكبير من الناس من حوالي عشرة بلدان مختلفة . فالآن هناك أساس يمكن الانطلاق منه لاتخاذ خطوات أكثر تقدماً . وكانت الموضوعات التي أثيرت ونوقشت شديدة التنوع . وقد جرى تفحص المسائل

---

(٨٩) أضيف إلى مكتب الرابطة الدكتورة رشا الصباح من (جامعة الكويت) وحسام الخطيب من (جامعة دمشق) ، وانتخب الأخير نائباً للأمين العام .

المطروحة ومناقشتها في جو منظم وبروح طيبة ، مثل مسائل التأثير ، والاستقبال ، والمركزية الأوربية ، ودراسة هجرة الأجناس الأدبية ، والقصة القصيرة ، والمسرحية ، والشعر » . (من رسالة شخصية إلى منظم المؤتمر في ١٩٨٦/٧/١١) .

هـ - ومن ناحية المضمون كشف المؤتمر الثاني عن غلبة قضايا (التأثر والتأثير) على مفهوم الأدب المقارن العربي ، إذ دار عدد كبير من الأبحاث حول هذه الناحية . وبالمقابل وقفت أصوات ضدَّ هذا المفهوم وتردّد تصنيف أصحابه بأنهم مروّجون للأفكار الدخيلة ولإفرازات (المركزية الأوربية) .

على أن معظم الأبحاث التي حاولت الخروج عن دائرة التأثر والتأثير أخفقت في تقديم بديل مقنع ، وكشفت عن ضعف في مجال الربط الجدلي للظاهرة الأدبية بالعوامل الاجتماعية والتحتية ، وارتباك بشأن ما يمكن أن يكونه البديل المقارني .

وقد برزت تطلعات إلى البحث عن الإمكانات الكامنة لتحقيق الطموح الأدبي العربي بالتوصل إلى العالمية من جهة ولرسم معالم الطريق العربي الخاص إلى المقارنة ، ولم يكن الغذاء الفكري لهذه التطلعات في المستوى المطلوب وإن كان أرسى بذور تفكير وسطي توفيقي يعكس حقيقة الزاد المقارني ، والأدبي بوجه عام ، الذي تقدمه الجامعات العربية لأساتذتها وطلابها .

☆ ☆ ☆

وقد تعثرت جهود الرابطة فيما بعد ، بسبب انعدام التمويل وصعوبة الاتصالات ، وتعذر عقد المؤتمر الثالث في موعده . ولكن أمكن عقده عام ١٩٨٩ في مدينة مراكش[٩٠] ، ولم نتوصل إلى أية مادة منشورة عن المؤتمر .

وبمناسبة الكلام على الناحية التنظيمية للمقارنين ، لابدَّ من الإشارة إلى وجود رابطتين قطريتين هما (الرابطة المصرية للأدب المقارن) و (الرابطة المغربية للأدب المقارن) . ويبدو أن معاناة هذه الروابط واحدة وهي ضعف الإمكانات وغياب الدعم من الحكومات والمؤسسات القطرية والقومية لعدة أسباب في صدارتها الطبيعة العلمية الخالصة لهذه الروابط وبعدها عن الجوانب السياسية والإعلامية التي تستدرّ التأييد والدعم .

(٩٠) من الناحية التنظيمية دخل مكتب الرابطة يوسف بكار (جامعة اليرموك) ، وأمينة رشيد (القاهرة) ، وعدنان وزان (الرياض) ، وسعيد علوش (المغرب) ، وخرج آخرون .

ويستفاد من مجمل هذا العرض أن المقارنين العرب في وضع لايحسدون عليه . والمشكلة أن عملهم البحثي يحتاج إلى تسهيلات علمية ومادية ومكتبية يصعب على الجامعات والمؤسسات توفيرها لهم في معظم الأقطار العربية .

ثانياً : في حركة التأليف وتنوع الأفكار

يصعب الكلام التعميمي على حركة الأفكار المقارنية في عقد الثمانينات ليس فقط بسبب تعدد الأفكار وتنوعها ـ خلافاً للمراحل السابقة ـ ولكن أيضاً بسبب عدم تبلور الأفكار والاجتهادات في تيارات كبيرة قابلة للتصنيف . وقد رأينا آنفاً كيف أن المؤثرات الإطارية (ولا نقول الخارجية) فسحت فرصاً متزايدة لتنوع الأفكار وإبرازها إلى المهتمين ، أي تعريضها لمختبر المناقشة العامة ولو نسبياً .

ومنذ البدء ، يمكن أن يلاحظ المتتبع لحركة الفكر المقارني تطوراً تقنياً مهماً يتمثل أول ما يتمثل في انتقال مركز الثقل التفحصي والبحثي من الكتاب إلى الدورية العلمية ، ومن قاعة الدرس الجامعي المغلقة إلى الصالات المفتوحة في الملتقيات والمؤتمرات . وهذا المؤشر وحده ينمّ عن مشروع للخروج من دائرة الدرس التلقيني الوظيفي المتواضع (كما تمثل بوجه عام في كتب المرحلتين السابقتين على تفاوت في ذلك طبعاً) إلى دائرة التساؤل والتمييز والتفحص والبحث عن الطريق (الخاص) المنشود . مع التأكيد أن الدرس العربي في الجامعات ظلّ في معظمه ـ ربما انسجاماً مع القاعدة العامة في المؤسسة الأكاديمية العربية ـ امتداداً للمردات السابقة ، وظلّ كتابا محمد غنيمي هلال وڤان تييغم المصدرين الأساسيين للمعرفة الجامعية ولأسئلة الامتحانات التي تتحكم عادة بمصير هذه المعرفة .

ومن هنا ينبغي ألا يضعنا عنوان هذه المرحلة (التنوع والتكامل) في وهم الاعتقاد بأن المرحلة السابقة قد وَلّت وانحسرت موجتها . وهذه بالطبع حقيقة واقعة في سجل الأفكار الأدبية وغير الأدبية ، وأعني حقيقة تداخل الاتجاهات العامة للمراحل والعصور ، ذلك أن العبرة في التقسيم الأدبي تتركز في منطق الضوابط الغالبية وتنأى عن صرامة القانون العام . وبهذا الصدد يلاحظ المرء أن التواليف الجامعية المقررة في الأدب المقارن لم تسجل تزايداً كمياً واضحاً ، فهناك حوالي عشرة عناوين جامعية في الثمانينات مقابل ثمانية في السبعينات ، بل إن عشرة الثمانينات منقوصة لأن فيها كتابين على الأقل لا يرتبطان ارتباطاً مباشراً بالمنهج التدريسي المقرر .

ولهذا التقارب الكمي تفسير مزدوج المغزى ، فمن جهة يكشف عن استمرار اعتماد الكتب المقررة السابقة على الرغم من دخول الأدب المقارن في مناهج الأغلبية الساحقة من الجامعات العربية وعودة عدد من الموفدين ، ولكنه من جهة أخرى يكشف عن حقيقة توافر حوامل جديدة للأفكار المقارنية خارج إطار الكتاب المصمم قسرياً ليناسب مفردات المقررات الجامعية شكلاً ، ومستويات الطلبة والامتحانات مضموناً . وقد سبقت الإشارة إلى هذه الحوامل التي أخذت على عاتقها احتضان الأسئلة الجديدة والاجتهادات الطارئة .

ولكن أيضاً يجب أن يتوقع الأمر استمرار تواليف النمط المدرسي ، ومعظمها ـ كما هو معروف ـ إما تطوير لأمليات الصف ومحاضراته وإما تلخيص لبعض أبحاث رسائل الدكتوراة التي أجيز بها المؤلفون . ومن الطبيعي أن تحمل معظم هذه التواليف الطوابع العامة للموقف الفكري الذي اتخذ شكلاً (مؤسسياً) من خلال مرحلة التأسيس السابقة .

العراقي :

ويصادفنا مثال واضح لهذه الظاهرة في منتصف الثانينات تماماً من خلال كتاب « الأدب المقارن : منهجاً وتطبيقاً » للدكتور السيد العراقي . والكتاب مريح جداً (لطالب) الجامعة و (لطالب) العلم أيضاً . ومن الصفحة الأولى يحدد الأستاذ المؤلف مفهوماته وخطته بوضوح نهائي على أساس المفهوم الفرنسي التقليدي :

« ٢ ـ لما كان (الأدب المقارن) في جوهره ليس إلا منهجاً من مناهج دراسة (العلاقات الأدبية العالمية) حرصت على أن ألقي بعض الضوء على مناهج تلك الدراسة ، منطلقاً في ذلك من أن تلك المناهج ، مهما تعددت أسماؤها ، واختلفت اتجاهاتها ، ترجع في النهاية إلى أصل واحد ، هو (العلاقات الأدبية العالمية) »[٩١] .

ويردف المؤلف هذا التأكيد القاطع بتأكيد ثانٍ جامع مانع هو أن المبحث الأول في كتابه « يتجه في جملته إلى الجانب النظري ، ويدور حول (العلاقات الأدبية العالمية) باعتبارها المدخل الأساسي لفهم جوهر كل من : (الأدب العام أو العالمي) و (الأدب المقارن) »[٩٢] .

وهذا بالطبع يتجاوز ما جزم به ڤان تييغم وغويار وكاريه ومحمد غنيمي هلال .

(٩١) السيد العراقي : الأدب المقارن منهجاً وتطبيقاً ، سابق ، ص ٣ ـ ٤

(٩٢) السابق ، ص ٥

ولولا إشارات في قائمة المراجع تذكر بعض المصادر المعاصرة كعدد مجلة (عالم الفكر) لعام ١٩٨٠ (الذي سبقت الإشارة إليه) لأمكن نسبة الكتاب من الناحية النظرية إلى أوائل مرحلة التأسيس . على أن الجانب التطبيقي ، وهو الأهم في الكتاب ، معروض بشكل يستحق الاهتمام ، ولكنه لا يدخل في نطاق المناقشة الحالية المتعلقة بتطور الفكر المقارني والبعيدة عن الإيحاء بتقييمات سلبية أو إيجابية .

عبد المطلب صالح :

ويقترب من كتاب السيد العراقي من ناحية الولاء المطلق للمدرسة الفرنسية وللاتجاه (الهلالي) في الأدب المقارن ، كتاب آخر من العراق ، سبق أن أشرنا لمؤلفه عبد المطلب صالح من خلال الحديث عن السبعينات . وفي كتابه الذي صدر في بغداد عام ١٩٨٧ بعنوان « مباحث في الأدب المقارن » يقدم المؤلف بياناً جديداً في دعم المدرسة الفرنسية عن سابق تصور وتصميم ودونما حاجة إلى تقديم الأدلة والبراهين ، وبذلك يشكل هذا الكتاب امتداداً صارخاً لمرحلة التأسيس .

ومن مظاهر هذا الدعم المبدئي :

أ ـ إهداء الكتاب إلى الدكتور محمد غنيمي هلال ، مع إيراد مقال كامل في تمجيده والإشادة بدوره .

ب ـ التأكيد في المقدمة ومنذ الأسطر الأولى أن المؤلف يعالج « موضوعات خاصة في منهج الأدب المقارن الذي درست أصوله الحديثة (١٩٥٣ ـ ١٩٥٩) دراسة منهجية في كلية الآداب (الصوربون) في باريس نحواً من ست سنوات من أجل دكتوراة الدولة ، بإشراف ثلاثة أساتذة متخصصين في هذا الميدان . أولهم : هو المرحوم الأستاذ جان ماري كاريه ، وثانيهم : الأستاذ شارل ديديان ، والثالث : هو الأستاذ رينيه إيتامبل»[٩٣] .

ويذكر أيضاً باعتداد أنه اتصل ببعض المستعربين مثل ريجي بلاشير وهنري ماسيه .

جـ ـ التبرّؤ من أستاذه إيتامبل لخروجه عن مقولة (التأثر والتأثير) وتأكيد استمرار الالتزام بهذا المفهوم للأدب المقارن ـ وها هو يؤكد ذلك في الحاشية الأولى من كتابه :

---

(٩٣) عبد المطلب صالح : مباحث في الأدب المقارن ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٧ ، أول المقدمة ص ٦

« (١) إن الباحثين الذين فضلوا مسألة التشابه والاختلاف على قضية التأثر والتأثير في دراساتهم (المقارنة) كانوا في رأينا قد اقتربوا من بحوث الأدب العام ، ولو أن قسماً منهم كان من أنصار مدرسة التأثر والتأثير فعدل عنها إلى إطار التشابه والاختلاف مثل أستاذنا رينيه إيتامبل ، فهذا من شأنه ... » . ثم يختتم الحاشية بالتصريح التالي :

« لكننا ما زلنا نعتقد بأن الأدب المقارن في جوهره هو دراسة التأثيرات المتبادلة بين آداب مختلفة ربطت بينها وشائج تاريخية »[٩٤] .

د ـ إخراج كتابات عربية عديدة من دائرة الأدب المقارن على طريقة الكرسي الكهربائي لعطية عامر . وأول هؤلاء صفاء خلوصي الذي أخبره المؤلف مواجهة أن بحثه في مقارنة بحيرة البحتري ببحيرة لامارتين « ليس من الأدب المقارن في شيء » ، بل هو مجرد « تصورات شخصية في النقد الأدبي »[٩٥] . وبعد أن يفنّد المؤلف هذا البحث يجرّ حكمه على مجمل كتابات صفاء خلوصي :

« إذ إن أغلب ما كتبه د . صفاء خلوصي وهو يتصور أنه من الأدب المقارن هو غريب عن هذا المنهج الذي هو دراسة التأثيرات التي يخلفها أدب في أدب من لغة أخرى ، وفق حقيقة التاريخ **بعلاقته** الموجودة فعلياً بين المؤثر والمتأثر »[٩٦] .

ويثني المؤلف على كتاب عبد الرزاق حميدة (في الأدب المقارن) ولكنه يستبعده من إطار الأدب المقارن ، ويقرر أن دراساته « لا يربطها بمنهج الأدب المقارن أية رابطة »[٩٧] . ويضع بالمستوى نفسه كتاب نجيب العقيقي (من الأدب المقارن) وينفي عنه أية صلة بالأدب المقارن ، وكذلك ينفي كتاباً بعنوان (الأدب المقارن) لعيسى الناعوري ، ويتهمه بالتعصب والجهل[٩٨] .

هـ ـ مصادر الكاتب هي حصراً مصادر المدرسة الفرنسية التقليدية ، وقد تصدرتها مؤلفات محمد غنيمي هلال . وفي ثنايا الكتاب مقالات مترجمة عن بول ڤان تييغم .

---

(٩٤) السابق ، ص ١٢ ، حاشية (١) .

(٩٥) السابق ، ص ١٢

(٩٦) السابق ، ص ١٢

(٩٧) السابق ، ص ١٢

(٩٨) السابق ، ص ١٣ . وكتاب الناعوري تطبيقي لذلك لم نشِرْ إليه في هذه الدراسة .

والحقيقة أن الإنسان ليس بحاجة إلى كل هذه الأدلة ، فعبد المطلب صالح يقدم بيانات ولاء متتالية للمدرسة الفرنسية ويبلغ به الأمر أن (يُهين) المدرسة الأمريكية . وفي نهاية مقاله المشار إليه سابقاً عن محمد غنيمي هلال يقرر بجسارة : « هذا المنهج الذي عرضنا لملامحه الرئيسية في كتابات د . محمد غنيمي هلال هو منهج المدرسة الفرنسية في الأدب المقارن وهو الأكثر علمية وأصالة من منهج المدرسة الأمريكية التي لا تهتم بإثبات الصلة التاريخية بين الآثار الأدبية ، بل تميل هذه المدرسة إلى دراسة مؤلفات الأدب كيفما اتفق على طريقة الموازنات التي تستند إلى إظهار التشابه والاختلاف بين تلك المؤلفات ؛ وذلك في نظري لا جدوى فيه ، بل هو إطار سطحي يحتوي على معلومات عامة لا يسندها المنهج العلمي »[٩٩] .

أخيراً ، إن عبد المطلب صالح لا يشير إلى كتابه السابق « **دراسات في النقد والأدب المقارن** » في المقدمة ، إلا أنه أحال إليه في إحدى المرات (ص ١٠٩) من خلال مقال « الأدب المقارن أداة للتفاهم العالمي » ، وهو مقال مترجم عن ڤان تييغم (فان تييكن كما ترد في كتاب صالح) أعاد نشره في الكتاب الحالي أيضاً[١٠٠] (ص ص ١٣٥ ـ ١٤٠) .

والخلاصة أن عقد الثمانينات شهد امتدادات تأليفية قوية جداً ومتشددة للفكر المقارني (الفرنسي ـ الهلالي) الذي ساد طوال مرحلة التأسيس ، ولكن في هذه المرة عن سابق إصرار وتصميم ، مع رفض للتعامل مع المدرسة الأمريكية التي جرى الحكم عليها بالاعتماد على مرددات عامة ودون الرجوع إلى مصادرها الأصلية . وهذا ما تنبئ به مؤلفات الثمانينات الجديدة . ولكن الخريطة الفكرية للأدب المقارن لا تقتصر على التضاريس الجديدة ، فهناك المؤلفات المتحدرة من المرحلة السابقة ، ولا سيما كتاب محمد غنيمي هلال ، وهناك المناهج الجامعية التي وضعت غالبيتها الساحقة من قبل أنصار هلال وتلاميذه ، وهناك الميل الأكاديمي العام إلى تأطير الأفكار ، وغير ذلك من العوامل التي تحمل تأكيدات أن تضاريس الخريطة المقارنية لم تتغيّر كثيراً في الثمانينات ، على الرغم مما بدأ يشوبها من تلوينات جديدة قد تحتاج إلى وقت طويل حتى تأخذ شكل تيارات فاعلة .

(٩٩) السابق ، ص ٩٤

(١٠٠) أي أنه أحال إلى المقال نفسه المنشور في كتابه ولكن من خلال كتابه السابق . وبالطبع السبب هو وجود مقالات متفرقة كتبت في أوقات مختلفة . =

علامات التنوع والانفتاح

ومن الطبيعي أن هذه التلوينات على المفهوم السائد لم تبرز فجأة عام ١٩٨٠ ، وإنما كانت حصيلة محاولات متتابعة (وإن تكن متقطعة وغير مترابطة فيما بينها) للخروج من إسار المقولات المتشددة للاتجاه (الفرنسي - الهلالي) ، أطلّتْ بأشكال متفاوتة في مرحلة التأسيس ، ويمكن القول إنها بدأت ضامرة حائرة عند صفاء خلوصي (١٩٥٧) وانتعشت في حديقة عبد السلام كفافي أوائل السبعينات ، ثم أخذت تعبيرها العلمي وتبلورت في نهاية المرحلة (١٩٧٩) من خلال ثلاث مقالات لحسام الخطيب (سبقت الإشارة إليها عند الحديث عن الترجمات المقارنية) . وهي تتألف من مقالتين تلخيصيتين ومقالة مترجمة ، وتحمل العنوان المعبّر التالي :

« الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الإنساني »(١٠١) . وقد تضمنت هذه المقالات المترجمة عرضاً للمشكلة المنهجية للأدب المقارن ، وإشارة لثورة إيتامبل على المدرسة الفرنسية التقليدية ، وبسطاً وافياً لنظرية هنري رماك ، وذلك للمرة الأولى في الأدبيات المقارنية العربية التي كانت حتى ذلك الحين تعرض الاتجاهات الأمريكية من خلال إشارات مختصرة لآراء رينيه ولك (المختصرة أيضاً) في مجال الأدب المقارن ، مع العلم أن ولك تناول الأدب المقارن من خلال تخصصه النقدي ، وهو علم شامخ في مجال النقد الأدبي . أما رماك فهو حجة الأدب المقارن في أمريكا ومحاميه الأول . وقد جرى توسيع هذه المقالات لتكون أساساً لكتاب (**الأدب المقارن**) الذي ستجري الإشارة إليه بعد قليل .

مناف منصور :

وإذا أتينا إلى عالم الكتبِ يصح اعتبار كتاب (**مدخل إلى الأدب المقارن**)(١٠٢) لمناف منصور (١٩٨٠) استهلالاً طيباً لاتجاه التنوع والانفتاح في مطلع الثمانينات ، للأسباب التالية على الأقل :

= يعد من هذا الباب كتاب تطبيقي للدكتور عشماوي يتضمن مقدمة نظرية تتبنى المفهوم الفرنسي - الهلالي حرفياً دون اكتراث بالنظريات الأخرى ، ولم يسمح تسلسل السياق الحالي بالوقوف عنده . د . محمد زكي عشماوي : **دراسات في** النقد المسرحي والأدب المقارن ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٨٣

(١٠١) نشرت في مجلة المعرفة الدمشقية (١٩٧٩) ، سابق .

(١٠٢) د . مناف منصور : مدخل إلى الأدب المقارن ، بيروت ١٩٨٠

١ ـ يظهر نضجاً في المعالجة واطلاعاً واسعاً ، كما يتبنى لغة علمية ذات مصطلح مستقر . فمثلاً تفريقه بين (المقارنة) التي تعتمد العلاقات أساساً لها و (المقابلة) التي تقوم على التماثلات معروف سابقاً منذ الخمسينات ، ولكنه هنا يستقر ويتأسس بوضوح .

٢ ـ يقدم مشروعاً كبيراً للنهوض بالدراسة المقارنة في لبنان ، له جانب فكري منفتح وله جانب جامعي تنظيمي ، وفيه جرأة (نظرية على الأقل) ، تذكر بمشروع إيتامبل في فرنسا ، بل لعلّ مشروع مناف منصور يبدو صدىً لمشروع هذا الثائر المقارني .

٣ ـ في أكثر من موضع يَعِدُ بالخروج من إسار المدرسة الفرنسية وثوبها الضيق ، ويظهر وعياً واضحاً بالأبعاد الانفتاحية للمدرسة الأمريكية . إلا أنه من الناحية التنفيذية يعود إلى التركيز على العلاقات الفعلية وآليات التأثر والتأثير ، ويجعل المنطلقات المعروفة لغويار أساساً لمفهومه المقارني .

وسنجد أن هذه الظاهرة الأخيرة تكاد تكون مشتركة في الفكر المقارني العربي الحديث ، مع استثناءات قليلة .

الخطيب :

وبعد كتاب مناف منصور ظهر في دمشق لأول مرة كتاب يحمل عنوان **(الأدب المقارن)**[١٠٣] . ويلاحظ فيه تركيز على النواحي التالية :

أ ـ تحديد طبيعة المشكلة المنهجية في الأدب المقارن (منطقه ومنطقته) .

ب ـ تقديم تيارات الأدب المقارن بما لها من حجج وما عليها من اعتراضات .

جـ ـ شرح مفهوم الأدب المقارن الأمريكي من منابعه الأصلية (رماك) .

د ـ تقديم (تفسير ورأي عربي) بشكل مبدئي ومبسط ، مع محاولة لتقديم حلّ متواضع متوسط :

« ويبدو لنا أنه من الممكن القول إن الأدب المقارن منهج خاص في المعرفة الأدبية يشترك مع سائر مناهج التقرب الأدبي كالتاريخ الأدبي والنقد في منطقة واسعة وفي منطق عام ، ولكنه

(١٠٣) د . حسام الخطيب : « الأدب المقارن » ، جـ ١ في النظرية والمنهج ، جـ ٢ تطبيقات ، جامعة دمشق ، ١٩٨١ ـ ١٩٨٢

يتميز عنها بما يؤهله لأن يكون فرعاً من المعرفة الأدبية ذا شخصية واضحة وذا منطقة خاصة هي منطقة التبادلات والامتدادات خارج الحدود المحلية ، سواء من ناحية المناطق الجغرافية واللغوية والقومية ، وهذا هو الأصل ، أم من ناحية المناطق الخاصة بأجناس الإبداع الفني بوصف ذلك نوعاً من البحث المكمل »[١٠٤] .

ويتناسب هذا الحل المتوسط مع اتجاهات التفكير المقارني الحديث عند العرب وعلى المستوى العالمي ، وهو يتكرر بأشكال مختلفة في الثمانينات بوجه خاص .

هـ - وفي الكتاب تعريج على تاريخ المقارنة العربية ، وشرح معلل لريادة روحي الخالدي في مجال الأدب العربي المقارن التطبيقي ، وإبراز لأهمية كتابه (تاريخ علم الأدب ...) في تاريخ المقارنة التطبيقية .

و - وهناك محاولة مبدئية لربط الأدب العربي المقارن بالتيارات العالمية الحديثة وتعريف بالرابطة الدولية للأدب المقارن[١٠٥] .

(سعيد علوش) :

ومن العلامات البارزة في اتجاه التنوع والانفتاح كتابان من المغرب لسعيد علوش حول **(مكونات الأدب المقارن في العالم العربي)** - ١٩٨٦ و **(مدارس الأدب المقارن)** - ١٩٨٧ .

ويقول المؤلف في تقديم الكتاب الثاني :

« ويتوخى هذا الكتاب إنجاز مقاربة منهجية واصطلاحية ، تحدد حقول كل مدرسة وتداخلاتها واختراقاتها ، مع إلحاق كل مدرسة بملاحق ، تمثل أهم نصوص ممثليها . لأن فكرة الكتاب في نهاية المطاف ، تنشد الخروج من السراديب المعتمة ، لتضارب المزايدات والخلط »[١٠٦] .

ويقدم شرحاً لمفهومات الأدب المقارن واتجاهاته ومدارسه ، ويقف طويلاً عند ما يسميه المدرسة العربية ، ويدخل تفصيلاً في (وضعية المقارنين العرب) و (تدريس الدرس المقارن بالجامعات العربية) . ويوثق المؤلف كتابه بملاحق مهمة ، ويطبق منهجاً تحليلياً انتقادياً ،

---

(١٠٤) السابق ، ص ٦٥

(١٠٥) اضطررنا للإشارة إلى هذا الكتاب والمقالات السابقة نزولاً عند مقتضيات السياق الحالي ، وضمن الحد الأدنى ، فعذراً .

(١٠٦) سعيد علوش : مدارس الأدب المقارن ، سابق ، ص ٥

لا يبدو من خلاله نزوع موقفي محدد ، أو اتجاه خاص في فهم الأدب المقارن ، اللهم إلا من خلال إشادته المسرفة بالمدرسة السلافية ، وقد سبقت مناقشتها في الباب الثاني أعلاه .

ومن ناحية الأدب المقارن العربي ، يستفاد من الكتاب أن رصيد المقارنة العربية بلغ مقداراً يستحق الدراسة والتحليل ، على الأقل من الناحية الكمية .

(الطاهر مكي) :

ويَعدّ كتاب (**الأدب المقارن**) للطاهر أحمد مكي ممثلاً أدق تمثيل للمقصود باتجاه (التنوع والانفتاح) . فهذه الموسوعة المقارنية التي بلغت حوالي سبعمئة صفحة تقدم نفسها أشبه بذاكرة عربية دولية لتجربة الأدب المقارن في الوسط الثقافي العربي . وهي حديقة متنوعة مفتوحة لمختلف الأفكار والتيارات والآراء ، وهي لا تفضل ولا تميز ولا تستبعد بل تحاول استيعاب شتى الدوافع والنزعات لغاية تشكيل موقف مقارني فعال قادر على التجاوب مع الحاضر والمستقبل . وهذا الكلام معنيٌّ هنا بحرفيته ، فهاجسا الماضي والحاضر لا يشغلان المؤلف عن المستقبل . وإن نوعية هذه التجربة لا تختلف جذرياً عن تجربة الأستاذ المؤسس محمد غنيمي هلال ، إذ تحاول أن تقدم من خلال أفق موسوعي كل ما جمعه المؤلف من معلومات واجتهادات في موضوع الأدب المقارن وكذلك ما يتصل بذلك من جوانب أدبية ونقدية ، مع الحرص على أمثلة متوازنة من الآداب العالمية وتاريخ الأدب العربي . وهنا التجربة واحدة والأفق مختلف من النواحي التالية :

١ ـ الموقف تكاملي ومفتوح لكل التيارات ، مقابل تزمت غنيمي هلال في إطار مدرسة التأثر والتأثير الفرنسية .

٢ ـ المادة غزيرة ومتنوعة مقابل أحادية النظرة عند هلال .

٣ ـ المراهنة على مستقبل الأدب المقارن مشروطة بالانفتاح والتنوع ، مقابل النزعة الاستبعادية من خلال منظور التخصص الضيق عند هلال .

٤ ـ أفق التنوع اللغوي ـ الأدبي شمل العالم بأسره مع التركيز على الآداب الأوربية ذات الانتشار الأقل في البلاد العربية كالإسبانية والإيطالية بوجه خاص .

٥ ـ بقيت الإشارة إلى أن تكاملية مكي ذات طابع مركزي . أي أنه يركز قدميه في تجربة هلال وينطلق منها للتوسع ويحرص في كل خطوة على أن تكون انطلاقته من فوق أرضية صلبة .

وليست هذه موازنة بين مكي وهلال ، ولكنها محاولة للفت النظر إلى ما طرأ على أفق الأدب العربي المقارن من تطورات باتجاه الانفتاح والتنوع ، فكأنها موازنة بين مرحلة التأسيس التي يمثلها هلال ، وبين مرحلة التنوع التي جمع أطرافها الطاهر مكي عن سابق تصور وتصميم ؛ فها هو يقدم كتابه على النحو التالي :

« كان وراء تأليفه الرغبة في أن نتقدم خطوة بعمل عظيم قام به المرحوم الدكتور محمد غنيمي هلال منذ أكثر من خمسة وثلاثين عاماً ، لتقدم تصوراً جديداً متكاملاً لعلم الأدب المقارن في ضوء المتغيرات التي أصابت عصرنا »(١٠٧) .

إن وصف مادة هذا الكتاب ـ الموسوعة عملية صعبة ، فهو يشمل كل ما يمت بصلة إلى تجربة الأدب المقارن عالمياً وعربياً ، ويؤرخ ويحلل ويستطرد إلى الأمثلة المطولة ، ويؤسس للمفاهيم الأدبية . وهذا أمر متعب طبعاً ولكنه أصبح سمة مميزة لمنهج التأليف العربي ، وإنه ليحدد ماهية الأدب المقارن واتجاهاته وتاريخه ومجالاته وعدته البحثية ومصادره ، ويدرس مسائله مثل التأثر والتأثير ، والنماذج الأدبية ، والأنواع الأدبية ، وتعصير الأدب والموضوعات والمواقف والبواعث ، ومجالات البحث الأخرى . ولا ينسى الأدب العام والأدب العالمي . ومما يميزه في هذا الجانب أنه يفرد دراسة عن (التأثيرات المتبادلة بين الفنون) ، ويستقصي أصولها في فرنسا وواقعها في الولايات المتحدة(١٠٨) .

ويؤكد هذا الكتاب اتجاه المؤسسة المقارنية العربية إلى البحث عن حلّ وسط لمعضلة الأدب المقارن ، مع التعلق المبدئي بمنطلقاته الأصلية . وهذا الهدف واضح تماماً عند الدكتور مكي ، إذ يصرح أنه يعمل على تقديم تحديد واضح لماهية الأدب المقارن يلزم « نهجاً وسطاً بين المدرسة الفرنسية المحافظة والمدرسة الأمريكية المتحررة »(١٠٩) . إلا أن هذا النهج الوسطي يؤول إلى مصالحة توفيقية تلفيقية على طريقة قرارات مجلس الأمن التي تبقي قسطاً معيناً من الغموض في الصياغة لتتوصل إلى إرضاء جميع الأطراف المعنية . فها هو بعد استعراض آراء الفرنسيين والأمريكيين يحاول أن يجمع وجهات النظر المختلفة في صيغة مرنة موحدة :

---

(١٠٧) الطاهر أحمد مكي : (الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه) ، سابق ، ص ٧

(١٠٨) السابق ، ص ص ٦٠٤ ـ ٦١٢

(١٠٩) السابق ، ص ١٩٤

« الأدب المقارن دراسة العلاقات بين أدبين قوميين أو أكثر » .

ويعلق على هذا التعريف بقوله :

« وهو تحديد يرضي الجميع ، ويتفق واقعاً مع مظاهر النشاطات المختلفة في مجالات الأدب المقارن »[١١٠] .

وبعد ذلك يعمل على تحديد مدلولات هذه الكلمات التي يتألف منها التعريف واحدة واحدة ، ويشرِّق ويغرِّب ، ويقف وقفة طويلة عند مفهوم العلاقات ويقسمها إلى ثلاثة مستويات :

أ ـ علاقة اتصال ، وهي مباشرة .
ب ـ علاقة تداخل أو تسرب ، وهي خفية غير ملموسة .
جـ ـ علاقة شيوع أو تداول أو رواج ، ويجيء الجزم بها عن طريق انتشارها بشكل لا يمكن معه إنكارها[١١١] .

والملاحظ أن المؤلف يقترب أكثر من المدرسة الفرنسية كلما دخل في التفصيلات المتعلقة بموضوعات الأدب المقارن ومجالاته . وتحت عنوان (مجالات الأدب المقارن) يؤكد مسألة الصلات :

« يهتم الأدب المقارن بدراسة الصلات التي تقوم بين الآداب القومية المختلفة ، وما أدّتْ إليه في الماضي والحاضر ، أو حتى ما يمكن أن ينتج عنها في المستقبل »[١١٢] .

ولكن يستمر إصراره على مرونة فهم الصلات والعلاقات . وفي كلامه عن « غاية الأدب المقارن » يعود إلى لعبة الصياغة التي تستند إلى الكلمات المفتاحية عند فان تييغم وتلامذته مع وضعها في سياق مرن توفيقي . فغاية الأدب المقارن :

---

(١١٠) السابق ، ص ١٩٧

(١١١) السابق ، ص‌ص ٢٠٩ ـ ٢١٠

(١١٢) السابق ، ص ٢٦٢

« أن يربط بين عمل أدبي وآخر ، وأن يوضح التأثيرات التي عانى منها أو تعرض لها ، أو مارسها ، مؤلف على آخرين ، وأن يتتبع سير الأفكار والأشكال الفنية على امتداد عصر بأكمله ، وأن يفسر ظاهرة أدبية بواسطة ظاهرة أدبية أخرى شبيهة »[113] .

وهذا الكلام يشمل بالطبع مختلف الاتجاهات ، مع المحافظة على مركزية الانطلاق من مقولة التأثر والتأثير .

والجدير بالذكر أن المؤلف يحرص دائماً على تقديم الآراء والتعريفات الأصلية بنصوصها ، وقد تابع المدرسة الأمريكية من خلال نصوص أساسية فأورد تعريف رماك وتعريفين لرينيه ولك وآخر لأولدريج ، وفعل الشيء نفسه بالنسبة للمدرسة الفرنسية فأورد تعريفات لڤان تييغم وغويار ، وقدم تعريفاً إيطالياً أيضاً[114] .

وفي نهاية هذا السفر المليء بالمعلومات يريح المؤلف نفسه من كل الأوزار ، فكل ما لا يمكن إدخاله في باب الأدب المقارن يحال إلى الأدب العام ، ولا سيما دراسة الظواهر الأدبية العامة والمشابهات غير المستندة إلى العلاقات[115] .

وبذلك يسدل الستار على حلّ سعيد للمعضلة . ويبدو هذا الاتجاه غاية ما تستطيع المؤسسة الأكاديمية العربية تقديمه من إسهام في حلّ معضلة الأدب المقارن .

ولدى تفحص الكتاب من حيث علميته ومنهجيته ، يتذكر الإنسان ملاحظة (سبقت الإشارة إليها) أوردها المؤلف بشأن كتاب (**الأدب المقارن**) لهلال ، إذ لامه لأنه أحال كل ما فاض عنده من مادة في النقد الأدبي إلى كتابه المقارني ، وبذلك تضخم الكتاب . فهل نسي الدكتور مكي هذه الملاحظة القيمة عند تأليف كتابه ، فإذا هو لا يترك شاردة ولا واردة ويحشو ويستطرد . وهل من الضروري كلما ألّف الإنسان كتاباً أن يثير كل المشكلات الأساسية للظاهرة الأدبية دفعة واحدة ؟ ولنأخذ مثالاً واحداً . لكي يتحدث المؤلف عن (دور الأدب المقارن ومكانته في الاتحاد السوڤييتي) ، قدم مقدمة عن تاريخ المجتمع الروسي والأدب والثقافة في روسيا

---

(١١٣) السابق ، ص ص ٢٤١ ـ ٢٤٤

(١١٤) السابق ، ص ص ١٩٤ ـ ١٩٧

(١١٥) السابق ، ص ص ٦١٤ ـ ٦٣٠

من ١٥ صفحة[١١٦] تحدث فيها عن حكم بطرس الأكبر والقيصرة كاترين والاتجاهات الاجتماعية والصراع العقائدي والحزبي ، ثم عن ثورة (مارس الاشتراكية العظمى عام ١٩١٧) ، والمعروف أنها تسمى ثورة أكتوبر ، ثم عن ستالين . وأخيراً قال :

« كانت المقدمة التي سبقت ضرورية لكي نعرف دور الأدب المقارن ومكانته في الاتحاد السوفييتي » . وإذا بدور الأدب المقارن يتلخص في صفحة وخمسة أسطر فقط[١١٧] ، ويقف أيضاً عند نهاية الخمسينات ، ويبحث المرء عن هذا الدور فلا يجده .

ولكن يوجد في كتاب مكي ما هو أخطر من ذلك . إنه كتاب قرر منذ البدء التخلي عن ادعاءات الإحالة والمرجعية ، ومن النادر أن تجد فيه إحالة إلى مصادر المعلومات الغزيرة الغنية التي يقدمها . إنه يتدفق كالسيل ماراً ببلدان وقارات وظواهر وآراء وتعريفات وأقوال مقبوسة بحرفيتها دون أن يشير إلا نادراً وفي حالات غريبة إلى مصادر معلوماته .

ونحن هنا لا نقيّم ، كما ذكرنا سابقاً . ونؤكد التقدير العالي للمجهود المبذول في هذا الكتاب ؛ ولكن نعبر عن خشية من أن تكون المؤسسة الأكاديمية العربية (ذات التخصص الأدبي على الأقل) تفضل الرجوع إلى الطرق الجاحظية بعد كل تلك الأشواط التي قطعها البحث الأدبي العربي . وإن ربط كتاب مكي (القيّم مرة أخرى) بكتاب السيد العراقي الذي عرضناه قبل قليل ، وكتاب أحمد شوقي رضوان الذي سنعرضه مباشرة بعد مكي ، قد يضعنا أمام ظاهرة تستدعي قرع ناقوس الخطر ، ولا سيما إذا وضع ذلك في موازنة حرص الرائد محمد غنيمي هلال على الإحالة إلى المراجع والتدقيق في المادة العلمية ، قبل عقدين أو ثلاثة عقود من الزمن .

المصالحة في أوج تحققها المدرسي (رضوان) :

وعند نهاية عقد الثمانينات (١٩٩٠) ، يبلغ الدرس المقارني الجامعي أوج تحققه المدرسي ، ويتخلى عن أية ادعاءات علمية أو بحثية ويتجه إلى المصالحة المريحة ، في تجاوب مباشر ، بعيد عن أية مواربة ، مع المتطلبات اليومية لما آل إليه الدرس الجامعي العربي من اقتصار على تلبية حاجة قاعة المحاضرات وقاعة الامتحانات دون غيرها من المهات الأكاديمية .

---

(١١٦) السابق ، ص ص ١٤٧ ـ ١٦٢

(١١٧) السابق ، ص ص ١٦٢ ـ ١٦٣

وهذه الواقعة تعكس حالة عامة غير مقتصرة على الدرس المقارن أو الأدبي الأوسع أو حتى العلمي العام ، وليس هذا مجال التوقف عندها وإن كان من الضروري التذكير بأن هذا التطور المقارني ليس إلا عارضاً بسيطاً من عوارض التواضع العلمي المستمر في الإطار الأكاديمي العربي .

وتتمثل هذه الظاهرة في كتاب لطيف خفيف على نفوس الطلاب ، يقترب كثيراً من كتاب السيد العراقي في هذه الناحية ، وإن كان يقدم خطوة متطورة عنه في مجال الاطلاع العام والتنوع والتوفيقية المبسطة . وذلك هو كتاب أحمد شوقي رضوان الذي حمل عنوان « **مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن** » ، ١٩٩٠ ، وحمل بوضوح المؤشرات التالية :

١ ـ وضوح الهدف في العنوان . وهذا حق لا مراء فيه . فأقصى ما يمكن أن تقدمه المناهج والإمكانات الجامعية (وكذلك المستوى التحصيلي) **هو مدخل** ، **ودرس** بالمعنى الجامعي المحدد .

٢ ـ مباشرة العرض وفقاً للمنهج الجامعي المحدد والمدة الزمنية المحددة ، ومراعاة مستوى الطالب وفقر تأهيله :

« ومراعاة لقدرة الطالب المحدودة في استيعاب هذا اللون الجديد من الدراسة الأدبية اكتفيت بفصول أربعة : »[١١٨] .

٣ ـ الفصول الأربعة المقصودة هي : تعريف مصطلح الأدب المقارن ، ومناقشة قضية التأثر والتأثير ، وقضية التقبل والانتشار ، وأخيراً قضية المراحلية .

وقد عمد المؤلف إلى التقديم لكل فصل بجملة أفكار عريضة مختصرة واضحة لا تتعدى أن تكون تمهيداً مبسطاً لما يليها من عرض تطبيقي لأمثلة من القضايا المعروضة تتعلق بالأدب العربي شرقاً وغرباً .

٤ ـ في القسم التطبيقي ، وهو الأهم شأنه شأن كتاب السيد العراقي ، هناك شبه توازن بين علاقات الأدب العربي الغربية وعلاقاته الشرقية . ويبدو أن هذه المسألة استوت في الدرس المقارن العربي .

---

(١١٨) أحمد شوقي رضوان : **مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن** ، دار العلوم العربية ، بيروت ١٩٩٠ ط ١ ، المقدمة ص ٥

٥ ـ يتخلى المؤلف عن أية ادعاءات علمية كما ذكرنا في مطلع الكلام ، فلا يوثق ولا يحيل في القسم النظري (ص ١ ـ ٤٠) وكذلك في الصفحات التمهيدية لكل فصل تطبيقي . ولكنه عند الدراسة التطبيقية يورد إحالات وظيفية خالية من الاستعراضية العلمية .

٦ ـ وبعد كل هذا يبقى الأهم ، وهو طبيعة الموقف الفكري الذي يرتضيه مؤلف لا يجهل وجود اختلافات واجتهادات في نظرية الأدب المقارن . وهنا يتجه الدكتور رضوان أيضاً اتجاهاً مباشراً مخلصاً :

« وكان لابدَّ من موقف توفيقي بين ما يسمى بالمدرسة الفرنسية الصارمة منهجاً والضيقة أفقاً والمحدودة نتيجة ، وبين ما يسمى المدرسة الأمريكية المتحررة منهجاً والمتوسعة مجالاً والطموح غاية »[١١٩] .

ولكن هنا أيضاً لا يتسلح الدرس العربي المقارن بالتجربة العربية القديمة ، ولا بالواقع الراهن للدراسات العربية ، ولا بالرؤية المستقبلية للموقف الثقافي العربي ، وإنما يسارع (لاستيراد) المصالحة بين أوربا وأمريكا و (إسقاطها) على رأس الأدب العربي المقارن ، وهكذا يستعير المؤلف توفيقية أولريخ ڤايشتاين :

« وخير مثال لهذه المحاولة التوفيقية ماقام به الأستاذ الكبير أولريخ ڤايشتاين ـ رئيس الجمعية الدولية للأدب المقارن سابقاً ـ في كتابه (الأدب المقارن ونظرية الأدب) . وقد حدد ڤايشتاين نقاط الخلاف بين المدرستين وحاول التوفيق بينهما في إطار نظرية للأدب تحدد الظاهرة الأدبية وتحدد مبادئها ومعاييرها ومجالات دراستها »[١٢٠] .

ويتابع المؤلف بطريقة تلخيصية مبسطة مصالحات ڤايشتاين في مجالات : ١ ـ الأدب القومي ، ٢ ـ العلاقات التاريخية الموثقة ، ٣ ـ الأدب المقارن والأدب العام ، ٤ ـ الأدب العالمي .

ويشير المؤلف إلى الحلّ الذي اقترحه ڤايشتاين ، وهو تبني مصطلح جديد هو (الدرس الأدبي المقارن) يكون قطاعه على ثلاثة مستويات هي :

ـ التاريخ الأدبي المقارن .

---

(١١٩) السابق ، ص ٢٣

(١٢٠) السابق ، ص ٢٣

ـ النقد الأدبي المقارن .
ـ النظرية الأدبية المقارنة[١٢١] .

وتسمح هذه المستويات الثلاثة بتوسيع دائرة اهتمام الأدب المقارن إلى حقول أخرى أبعد من التأثر والتأثير ، ولا سيما في مجال التماثلات العامة والنواحي النقدية والفنية . وهي نظرة تنطلق أصلاً من فكرة التأثر والتأثير أي من المفهوم التاريخي الوضعي ، وتبقي للأدب المقارن جانبه الأساسي كما عرفته المدرسة الفرنسية ، ولكنها لاتحرم نفسها من بحبوحة الأفكار الأمريكية (هنري رماك) ولا سيما من ناحية التوسع في المقارنة لتشمل التماثلات من الناحية النقدية ، والمزاوجة بين التنظير النقدي والتنظير المقارني . ويقوم جوهر محاولة ڤايشتاين على الحدِّ من البحبوحة المطلقة لنظرة زميله رماك والإبقاء على نواة الأدب المقارن وبعض الضوابط التي تمنعه من أن يكون كل شيء ولا شيء في وقت واحد . على أن هذه المحاولة تبقى في إطار التوفيقية الشكلية[١٢٢] .

وهكذا يبدو أن كل محاولات الهرب من لعبة التأثر والتأثير تظل مسدودة أمام المقارن العربي ، وربما غير العربي أيضاً . ذلك أن الاختيارات الأخرى التي تقدمها المدرسة الأمريكية ليست سهلة ولا مأمونة ، سواء من ناحية المقارنة القائمة على التماثل غير المشروط بالعلاقة التاريخية أم من ناحية المقارنة بين الأدب والأنساق المعرفية الأخرى ولا سيما الفنون والفلسفة .

ويمثل موقف رضوان امتداداً للموقف الذي لمسناه عند سابقيه من ناحية محاولة الانفلات من قيود العلاقات (التأثر والتأثير) مع الاعتراف بأنها أساس الموقف المقارني . وهاهو يعلق عليها في المقدمة :

« وفي الفصل الثاني ناقشت بقدر أكبر من التفصيل النظري والمنهجي لقضية التأثير والتأثر ، التي تعد حجر الزاوية والمنطلق الأول للدرس الأدبي المقارن »[١٢٣] .

---

(١٢١) السابق ، ص ٢٨

(١٢٢) الملاحظة الأخيرة من عندي . والمؤلف لايوثّق ولا يحيل في هذا القسم النظري كما ذكرنا ، وهو ينتقي أبسط الأفكار ويطعّمها بشواهد من الأدب العربي وعلاقاته . وتمكن مراجعة نظرية ڤايشتاين في :

Ulrich Weisstein: **Comparative Literature and Literary Study,** Indiana University Press, Bloomington-London, 1973

وهو كتاب واسع الانتشار بين الطلاب الجامعيين في أمريكا . وقد تقدمت الإشارة إلى ڤايشتاين .

(١٢٣) رضوان ، السابق ، ص ٦

على أن هذا التأكيد لم يمنع المؤلف من شرح قضية التأثر والتأثير بمرونة ذاكراً ما لها وما عليها (الفصل الثاني) .

وأخيراً ، لابدَّ من الاعتراف بأن كتاب رضوان يثير مخاوف كثيرة في قضية الأدب العربي المقارن ، فإذا كان الدرس العربي المقارن في الجامعات أقنع نفسه ، بعد تجارب حوالي نصف قرن ، بأن يتحسس الطريق « خطوة خطوة بعقلية الدارس غير المتخصص ، بعيداً عن المصطلحات الغامضة والمعاظلات الكلامية والتعقيدات الفكرية » ، وقنع بتقديم وجبة مُلطَّفة للعقول الجامعية غير النهمة ، فإن هذا الموقف المتكيِّف المبني على واقعيّةٍ مشوبة بالمرارة يشير بوضوح إلى أن الدرس المقارن بدأ يفقد تحديات الجدّة والإدهاش ، وأخذ ينخرط في المصير نفسه الذي آلت إليه الدراسات الجامعية الأخرى في قاعة المحاضرات وبين دَفتي الكتاب المقرر .



ملحق وثائقي

١ ـ ببليوغرافيا حولية للأدب العربي المقارن (المؤلفات النظرية).

٢ ـ فهرس العدد الأول من مجلة (دفاتر جزائرية في الأدب المقارن) .

٣ ـ لوائح (الجمعية الجزائرية للأدب المقارن) ١٩٦٦/١/١

٤ ـ توصيات الملتقى التحضيري للمقارنين العرب (عنابة في ١٤ـ١٩٨٣/٥/١٩) .

٥ ـ الأعضاء المؤسسون للرابطة العربية للأدب المقارن .

٦ ـ توصيات الملتقى الأول للمقارنين العرب .

٧ ـ وثيقة فريدة: مقال إيتامبل في مجلة « الكاتب المصري »، ١٩٤٨.

١ - بيليوغرافيا حوليَّة للأدب العربي المقارن (المؤلفات النظريَّة)

السنة	الكتاب	المؤلف	دار النشر	مكان النشر	الطبعات	تاريخها	عدد الصفحات	ملاحظات
١٩٤٨	في الأدب المقارن	عبد الرزاق حميدة	مطبعة العلوم	القاهرة	١		١٦٠	
١٩٤٨	من الأدب المقارن	نجيب العقيقي	دار المعارف	القاهرة - مصر	١		١٨٣	
				القاهرة	٢			
	من الأدب المقارن جـ ١	نجيب العقيقي	مكتبة الأنجلو مصرية	القاهرة	٣	١٩٧٥	٤٣٩	الأجزاء الثلاثة
	من الأدب المقارن جـ ٢		مكتبة الأنجلو مصرية	القاهرة	٣	٢٩٧٦	٤٦٦	في ١٢٢٥ ص
	من الأدب المقارن جـ ٣		مكتبة الأنجلو مصرية	القاهرة	٣	١٩٧٦	٣٢٠	
١٩٥١	تيارات أدبيَّة بين الشرق والغرب : خطة ودراسة في الأدب المقارن	إبراهيم سلامة	المكتبة الأنجلو مصريَّة	القاهرة	١		٢٦٧	معظمه تطبيقي
١٩٥٣	الأدب المقارن	محمد غنيمي هلال	مط - مخيمر	القاهرة	١		١٥٠	عدَّة طبعات في
				القاهرة	٢	١٩٦١	موسعة	بيروت ودمشق
				القاهرة		١٩٦٢		بعضها لا يحمل
			دار نهضة مصر	القاهرة		١٩٧٧		رقم الطبعة
			دار العودة	بيروت - لبنان		١٩٨٧	٤٦٩	
١٩٥٣	الأدب المقارن	محمد محمد البحيري	دار الطباعة المحمدية بالأزهر	القاهرة	١			ذكره محمد عبد المنعم خفاجة في الفهرس
١٩٥٧	دراسات في الأدب المقارن والمدارس الأدبية	صفاء خلوصي	مط - الرابطة	بغداد - العراق	١		٢٤٦	معظمه تطبيقي

السنة	الكتاب	المؤلف	دار النشر	مكان النشر	الطبعات	تاريخها	الصفحات	الملاحظات
١٩٦٣	دراسات في الأدب المقارن	محمد عبد المنعم خفاجي	دار الطباعة المحمدية بالأزهر	القاهرة	١		١٦٠	
				القاهرة	٢	١٩٧٠	٢٠٨	
				القاهرة	٣	١٩٧٢	٢٥٠	
١٩٦٧	الأدب المقارن	حسن جاد حسن	دار الطباعة المحمدية بالأزهر	القاهرة	١		٣٠٦	
			دار الطباعة المحمدية بالأزهر	القاهرة	٢	١٩٧٥	٣٠٦	
١٩٧١	الأدب المقارن	محمد عبد السلام كفافي	دار النهضة العربية	بيروت	١		٥٥٥	
١٩٧٢	الأدب المقارن والأدب العام	ريمون طحان	دار الكتاب اللبناني	بيروت	١		١٤١	
١٩٧٣	دراسات في الأدب والنقد المقارن	عبد المطلب صالح	مطبعة الشعب	بغداد	١		١٣٣	مقالات تطبيقية
١٩٧٥	الأدب المقارن	طه ندا	دار النهضة العربيّة	بيروت	١		٢٣٩	
			دار النهضة العربيّة	بيروت	٢			
			دار المعارف	القاهرة	٣	١٩٨٠	٢٨٤	
١٩٧٦	الأدب المقارن بين النظرية والتطبيق	إبراهيم عبد الرحمن محمّد		القاهرة	١		٢٢٢	ترقيم الطبعات مضطرب
				القاهرة	٢	١٩٧٨		
	النظرية والتطبيق في الأدب المقارن		دار العودة	بيروت	٢	١٩٨٢	٢٩٣	تغيير في العنوان وإضافات
				القاهرة	٢	١٩٨٤		
١٩٧٧	نظرية الأدب ومناهج البحث الأدبي	عبد المنعم إسماعيل	الناشر العربي	القاهرة	١			

السنة	الكتاب	المؤلف	دار النشر	مكان النشر	الطبعات	تاريخها	عدد الصفحات	الملاحظات
	نظرية الأدب ومناهج الدراسات الأدبية	عبد المنعم إسماعيل وأحمد بشاوي	مكتبة الفلاح	الكويت	ربما طبعة ثانية	١٩٨٠		
١٩٧٨	دراسات في الأدب المقارن	بديع محمد جمعة	دار النهضة الأدبية	بيروت	١		٣١٧	معظمه تطبيقي
				بيروت	٢	١٩٨٠		
١٩٨٠	مدخل إلى الأدب المقارن	مناف منصور		بيروت	١			
١٩٨١	الأدب المقارن				١			
	جـ ١ في النظرية والمنهج	حسام الخطيب	جامعة دمشق	دمشق	١		٢٠٠	
	جـ ٢ تطبيقات				١		١٧٦	
١٩٨٢	في الأدب المقارن	عبد الدايم الشوا	دار الحداثة	بيروت	١	١٩٨٣ ط٢	١٥٩	مقارنة بين الأدبين العربي والإنكليزي
١٩٨٢	دراسات في الأدب المقارن	د. محمد ألتونجي		حلب	١		٢١١	
١٩٨٣	الأدب المقارن: دراسة في العلاقة بين الأدب العربي والآداب الأوربية	عبد الوهاب علي الحكمي	مطبوعات تهامة	جدة - السعودية	١		١٨٤	
١٩٨٣	دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن	محمد زكي عشماوي	دار النهضة العربية	بيروت	١		٣٢١	معظمه تطبيقي
١٩٨٤	الأدب المقارن: النظرية والتطبيق	أحمد درويش	مكتبة الزهراء	القاهرة				
١٩٨٥	الأنواع الأدبية، مذاهب ومدارس: في الأدب المقارن	شفيق البقاعي	مؤسسة عز الدين	بيروت			٤٣٢	
١٩٨٥	الأدب المقارن منهجاً وتطبيقاً	السيّد العراقي	دار الفكر العربي	القاهرة	١		١٩٢	

السنة	الكتاب	المؤلف	دار النشر	مكان النشر	الطبعات	تاريخها	عدد الصفحات	الملاحظات
١٩٨٦	مدخل إلى الأدب المقارن	محمود طرشونة		تونس	ط ١		١٦٣	
١٩٨٦	مكونات الأدب المقارن في العالم العربي	سعيد علوش	الشركة العالمية للكتاب وسوشريس	بيروت الدار البيضاء	١		٨٣٠	
١٩٨٧	مدارس الأدب المقارن	سعيد علوش	المركز الثقافي العربي		١		٣٤٤	
١٩٨٧	مباحث في الأدب المقارن	عبد المطلب صالح	دار الشؤون الثقافية	بغداد	١		١٧٣	معظمه تطبيقي وفيه مباحث من الكتاب السابق ١٩٧٣
١٩٨٧	الأدب المقارن في أصوله وتطوره ومناهجه	الطاهر أحمد مكي	دار المعارف	القاهرة	١		٦٩٢	أنجز في ديسمبر ١٩٨٥
١٩٨٨	بحوث تجريبية في الأدب المقارن	حلمي بدير	الدار الفنية	القاهرة	١		١٥١	
١٩٨٨	نظرية المقارنة العربية	عز الدين المناصرة	دار الكرمل	عمان	١		٢٩٧	
١٩٨٩	دراسات في الأدب المقارن	عطية عامر	مكتبة الأنجلو المصرية	القاهرة	١		١٩٤	
١٩٨٩	الأدب المقارن، قضايا ومشكلات	نبيل رشاد نوفل	منشأة المعارف	الاسكندرية	١		١٢٥	
١٩٩٠	مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن	أحمد شوقي رضوان	دار العلوم العربية	بيروت	١		٢٣٢	

١ ـ جرى الاقتصار على المؤلفات المخصَّصة لنظريَّة الأدب المقارن واستبعاد المؤلَّفات ذات التركيز على التطبيق ولو حملت عنواناً مقارنيّاً إلاَّ إذا كانت تتضمن اهتماماً واضحاً بالتطبيق على أساس نظريَّة متماسكة .

٢ ـ جرى إدخال كتاب واحد في القائمة لا يحمل عنوان (الأدب المقارن) بسبب اهتمامه الخاص بمنهج الأدب المقارن .

٣ ـ هناك اضطراب شديد في الطبعات وإغفال لتسلسلها ولا سيَّما بين بيروت والقاهرة ، والضحية الأولى لهذه الظاهرة هو محمد غنيمي هلال الذي نهب كتابه النّاشرون .

٢ ـ فهرس العدد الأول من مجلة (دفاتر جزائرية في الأدب المقارن)

١٩٦٦

CAHIERS ALGÉRIENS
DE
LITTERATURE COMPARÉE

Annuels.

Directeur : J. E. BENCHEIKH

SOMMAIRE

FACULTÉ DES LETTRES ET SCIENCES HUMAINES
ALGER

٣ ـ لوائح (الجمعية الجزائرية للأدب المقارن) ١٩٦٦/١/١

CHRONIQUE

STATUTS
DE LA
SOCIÉTÉ ALGÉRIENNE DE LITTÉRATURE COMPARÉE

I. — BUT DE LA SOCIÉTÉ.

. La Société Algérienne de Littérature Comparée est la section algérienne de l'Association Internationale de Littérature Comparée. Les membres de son bureau la représentent au sein de cette association, dont ils sont également membres du bureau. La Société Algérienne de Littérature Comparée a pour buts principaux :

— Encourager le développement de la Littérature Comparée en Algérie ;

— Organiser et coordonner les efforts des comparatistes algériens, afin de faciliter leur travail d'enseignement et de recherche ;

— Organiser la participation algérienne aux activités comparatistes internationales, en particulier à celles de l'Association Internationale.

II. — COMPOSITION DE LA SOCIÉTÉ.

La Société est ouverte à toutes les personnes qui, par leurs travaux scientifiques, leur enseignement, ou toute autre forme d'activité intellectuelle, s'intéressent, en Algérie et à l'étranger, aux études de Littérature Comparée. Ces personnes constituent les membres adhérents et ne peuvent faire partie du Comité tel qu'il est défini au titre III que si elles remplissent les conditions fixées au même titre.

III. — COMPOSITION DU COMITÉ ET DU BUREAU.

Sont membres de droit du Comité, toutes les personnes enseignant ou ayant enseigné la Littérature Comparée en Algérie, les membres des sections de Langue et de Littérature arabes, de Littérature française, de Linguistique et de Langues Vivantes, de l'Université algérienne qui désirent participer à ses travaux.

Le Comité peut admettre par cooptation, parmi ses membres, toutes les personnes, universitaires ou non, qui lui paraissent compétentes. [illegible]

Une assemblée générale trisannuelle désigne un bureau comprenant : un président, un secrétaire général, un trésorier, un secrétaire administratif, choisis parmi les membres du Comité.

Le Bureau a qualité pour prendre, dans l'intervalle des assemblées générales et des réunions du Comité, les mesures les plus urgentes. Il contrôle la gestion des fonds de la Société et en rend compte aux assemblées générales. Il assume, conformément aux statuts, tous actes juridiques engageant la société.

IV. — SIÈGE DE LA SOCIÉTÉ.

Il est fixé à la Faculté des Lettres et des Sciences humaines, 2, rue Didouche Mourad, Alger.

V. — ACTIVITÉ DE LA SOCIÉTÉ.

La Société de Littérature Comparée :

— Centralise tous les renseignements concernant les études de Littérature Comparée en Algérie et à l'étranger, et les fait connaitre parmi ses adhérents ;

— Coopère étroitement avec le Comité de Rédaction de la Revue algérienne de Littérature Comparée ;

— Prend toutes les initiatives susceptibles d'aider la recherche et l'enseignement de la Littérature Comparée en Algérie ;

— Organise des congrès ou des colloques.

VI. — COTISATIONS.

Le montant des cotisations est fixé et éventuellement modifié par l'Assemblée générale.

VII. — APPROBATION ET MODIFICATION DES STATUTS

Les présents statuts ont été approuvés par l'Assemblée générale du 15 novembre 1964. Le Bureau ou le Comité pourront proposer des modifications aux statuts lors des réunions de l'Assemblée générale. Celle-ci, seule, a qualité pour adopter ou rejeter, à la majorité des suffrages exprimés, ces modifications.

VIII. — DISSOLUTION DE LA SOCIÉTÉ.

En cas de dissolution de la Société, qui pourrait être décidée par l'Assemblée générale sur proposition du Bureau ou du Comité, ou qui interviendrait automatiquement si l'Assemblée générale ne se réunissait pas pendant six années consécutives, les fonds en caisse seraient versés au Centre de la Recherche scientifique.

---

٤ ـ توصيات الملتقى التحضيري للمقارنين العرب

(عنابة من ١٤ ـ ١٩٨٣/٥/١٩)

أ ـ عقد مؤتمر دوري للأدب المقارن في كل عام ، على أن يكون موضوع المؤتمر القادم ، (الأدب المقارن المصطلح والمنهج) .

ب ـ إنشاء رابطة عربية للأدب المقارن .

جـ ـ إنشاء مركز لدراسات الأدب العربي المقارن ومجلة بحث تابعة له .

وتدعو الندوة جامعة عنابة إلى النظر في عقد هذه الأنشطة في رحابها .

٢ ـ انطلاقاً من دور الجامعات الطبيعي في تشجيع دراسة الأدب المقارن تدعو الندوة جامعات الوطن العربي إلى ما يلي :

أ ـ تشجيع تدريس الأدب المقارن في الجامعات العربية وتطوير دراسته .

ب ـ تسهيل التبادل بين الجامعات العربية ولا سيا من ناحية الكتب والدوريات .

جـ ـ تسهيل التعاون بين الجامعات العربية من جهة والجامعات الأجنبية من جهة أخرى في حقل تحديد المناهج وغير ذلك من السياسات المتعلقة بالأدب المقارن .

د ـ تشجيع إرسال أعضاء الهيئة التدريسية في الجامعات للمشاركة في مؤتمرات الرابطة الدولية للأدب المقارن والمؤتمرات الدولية الأخرى التي لها صلة في هذا الحقل .

٣ ـ في مجال المشروعات العلمية رأت الندوة إعطاء أولوية للأمور التالية :

أ ـ إعداد مسح ببليوغرافي للكتابات المتعلقة بالأدب المقارن في البلاد العربية .

ب ـ تشجيع ترجمة الأعمال العالمية المهمة في مجال الأدب المقارن إلى اللغة العربية .

جـ ـ تشجيع تنظيم برنامج لترجمة مختارات مناسبة من الأدب العربي الحديث إلى اللغات الحية كالإنكليزية والفرنسية .

٤ ـ في مجال البحوث والدراسات رأت الندوة ضرورة إعطاء أفضلية للدراسات التالية :

أ ـ العلاقات العالمية للأدب العربي الحديث .

ب ـ تأثير الأدب العربي القديم في الآداب الأخرى .

جـ ـ صورة العرب في العالم من خلال الآداب الحديثة .

د ـ صورة العالم في الأدب العربي الحديث .

وقرر المشاركون في الملتقى توجيه تحية تقدير إلى الرواد الأوائل للدراسات المقارنة في الأدب العربي الحديث وفي مقدمتهم روحي الخالدي رائد الأدب العربي المقارن والدكتور محمد غنيمي هلال مؤسسه وحجته .

٥ ـ الأعضاء المؤسسون
الرابطة العربية للأدب المقارن

	الجامعة	القطر	ملاحظات
١ ـ عبد المجيد حنون	عنابة	الجزائر	
٢ ـ عز الدين المناصرة	قسنطينة	فلسطين	
٣ ـ جميل نصيف التكريتي	بغداد	العراق	
٤ ـ بديع محمد جمعة	القاهرة	مصر	
٥ ـ حسام الخطيب	دمشق	فلسطين	غائب بعذر
٦ ـ ريمون طحان	اللبنانية	سورية	غائب بعذر
٧ ـ صلاح فضل	القاهرة	مصر	غائب بعذر
٨ ـ عبد الرحيم علي نصر الله	اليرموك	الأردن	
٩ ـ خالد عبد العزيز الكركي	عمان	الأردن	
١٠ ـ فاطمة الصافي	عدن	اليمن الديمقراطية	
١١ ـ نسيبة عيلان	عنابة	الجزائر	
١٢ ـ المهدي مأمون البشير	الخرطوم	السودان	
١٣ ـ محمد عبد الحي	الخرطوم	السودان	غائب بعذر
١٤ ـ ميشال باربو	باريس	فرنسا	
١٥ ـ رشيد بوشعير	قسنطينة	الجزائر	
١٦ ـ نسيب نشاوي	عنابة	سورية	
١٧ ـ محمد عيلان	عنابة	الجزائر	
١٨ ـ عصام محمود الخطيب	الموصل	العراق	
١٩ ـ مختار نويوات	عنابة	الجزائر	
٢٠ ـ عبد الحكيم الأربد	طرابلس	ليبيا	

عنابة ١٩٨٤

٦ ـ توصيات الملتقى الأول للمقارنين العرب

جامعة عنابة ، من ٨ ـ ١٩٨٤/٧/١٢

أولاً: قبول دعوة جامعة دمشق لاستضافة الملتقى القادم ، وتوجيه الشكر العميق على هذه الدعوة .

ثانياً: أن تدور أعمال الملتقى القادم حول موضوع : « مجالات الأدب المقارن عند العرب ، نظرية وتطبيقاً » .

ثالثاً: أن يضع المقارنون العرب ، بالتنسيق مع الرابطة ، إمكاناتهم في خدمة تطوير تدريس الأدب المقارن في الجامعات العربية ، في مجالات وضع المناهج ، ومناقشة الرسائل الجامعية ، وعقد الندوات والملتقيات .

رابعاً: إن المشاركين في الملتقى إذ يؤكدون على ضرورة تدعيم الرابطة العربية للأدب المقارن ، فإنهم يتوجهون إلى الباحثين العرب في هذا الميدان ، وإلى الجامعات والمؤسسات العربية بالمبادرة للانضمام إلى عضوية الرابطة لإغناء هذا المجال من الدراسات بما يساعد على تعزيز موقع أدبنا العربي بعلاقاته مع الآداب العالمية المختلفة ، وتعميق دور الباحث العربي وزيادة نصيبه مما يجري من بحوث . كما يساعد على بلورة مفهوم عربي للأدب المقارن في جانبي النظرية والتطبيق .

خامساً: ضرورة ترجمة عيون الأدب المقارن إلى العربية ونشرها ثم التعريف بأشهر مدارسه العالمية .

وقد عبر الملتقون عن شكرهم العميق وتقديرهم الصادق للجهود التي بذلتها جامعة عنابة ، ومعهد اللغات والآداب فيها ، لما بذلوه من جهد ، وما وفروه من إمكانات لإنجاح هذا الملتقى .

التوقيع

الجمعية التأسيسية للرابطة
العربية للأدب المقارن

٧ ـ وثيقة فريدة: مقال إيتامبل في (الكاتب المصري)، ١٩٤٨م.

من كتب الشرق والغرب

RENOUVEAU DE LA LITTÉRATURE COMPARÉE

ÉTIEMBLE

نهضة الأدب المقارن*

حين انتوى مونتانى Montaigne أن يرحل إلى إيطاليا، لم يكن عليه إلا أن يعد كيسا مليئا، وحصانا وخادما. أما عن جواز السفر فلا تسل. وقبل حرب ١٩١٤ كان يستطيع من يريد رؤية الدنيا أن يراها دون عائق يعوق حريته اللهم إلا ما كانت تفرض عليه تركيا وروسيا من قيود. أما فى عام ١٩٣٦، فما أكثر الأختام والمرور بالجمارك التى تفرض على من يريد السفر من باريس إلى هولندا. وعندما كنت أقيم بشيكاجو عام ١٩٤٠، أردت أن أمضى بضع أسابيع فى المكسيك، فكان على أن أعد فى حقائبى حقيبة خاصة للوثائق اللازمة لتلك الحملة. ولقد وجد المتصنعون snobs فى هذا فائدة لهم ومسرة: فهم يعددون تراخيص السفر إلى البلاد الأجنبية كما لو كانوا يحصون أجدادهم من الأشراف، ويصطنعون الكثير من ذلك العبث الذى كان يدفعهم إلى جمع بطاقات الفنادق. أما الآخرون، أولئك الذين يريدون أن يحيوا حياة الرحالة، حياة بسيطة ومليئة أيضا، فما برحوا يسائلون أنفسهم لم تكون الصلات اليوم من وطن إلى آخر أكثر صعوبة مما كانت فى زمن الحريات.

ولا يصح الادعاء بأن كثرة تلك التراخيص والأوراق قد منع اللصوص الدوليين، أو الجواسيس الأعداء من تأديتهم مهمتهم فى سلام. فان أى رجل من رجال الشرطة، وأى عضو من أعضاء الأحزاب الثورية يعرف كيف يصنع أوراقا مزيفة. وقد أثبت التاريخ الحديث لجماعات مقاومة الاضطهاد النازى، أن رجالا أقوياء قد استطاعوا أن يجوسوا خلال أوربا ساخرين من رجال الجستابو. ولم يكن عبثا تقسيم الأرض وتفريقها بهذه الصرامة وخاصة فى عهد الاستبداد. فما كان تقطير الأجانب إلا لوقف الآراء التى سرعان ما تنتشر بانتشار الكلمات السيارة mots-voyageurs (ولنذكر تاريخ الكلمة الصينية تشا tch'a التى صارت فى الروسية تشاى tchai وفى العربية شاى، وفى الفرنسية، تيه thé الخ). فالحواجز الجمركية تستخدم إذن فى وقف الكتب والمجلات والأفكار. وقد ساعد تشويش الأمواج اللاسلكية (أو بمنع استخدام أجهزة الراديو التى تستطيع التقاط المحطات الضعيفة والبعيدة) على جعل حدود الدول أسوار سجن بدلا من أن توحد بين الشعوب.

* كتب هذا المقال خاصة لمجلة « الكاتب المصري ». مجلد ٧ ـ العدد ٢٨، يناير ١٩٤٨م.

فليست مصادفة إذن أن تختفى فى سنة ١٩٤٠ مجلة الأدب المقارن *Revue de Litt. comparée* التى أنشئت عام ١٩٢٠ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى لتؤكد حاجات العقل وضرورات الاتحاد الثقافى ضد ما كان يسود الناس من بغض . «فما هو الأدب المقارن إذا لم يكن دراسة التبادل الحر ؟ فلو قد ظهرت هذه المجلة أثناء الاحتلال ، لقضت على نفسها بأن تقطع أوصالها ، وألا تفحص من المؤثرات إلا ما يسير فى اتجاه واحد ، وألا تدرس من الآراء إلا ذات الاتجاه الواحد . ولو قد فعلت ذلك لفرضت على نفسها أن تصمت عما يحدث فى انجلترا وفى أمريكا. كلا ! لم يكن هناك مكان لهذا النوع من الدراسة ، لا مكان لدراستنا فيما دعى « النظام الجديد » ، لا مكان لها فى نظام من الأوتوقراطية الفكرية حيث كان المرء يلقى فى كل طرق المدينة اللافتة « ممنوع » Verboten التى تحدد ما يسمح للمرء برؤيته . وما أكثر ما كرر العهد الألمانى بباريس دعواته لى ، ولكن عبثا ! كانت ترسل لى باستمرار فى السوربون الكراسات الفرنسية الألمانية *Cahiers Franco allemands* ، والكتيبات التى كانت تصدرها جماعة التعاون Collaboration وعديد من المطبوعات الأخرى الآتية رأسا من برلين . لقد صمتنا» [1] وليست مصادفة أيضا أن يكون مارسيل باتايون ، وجان مارى كاريه J. M. Carré ـ وهما المديران الحاليان للمجلة واللذان أبانا عن حبهما للدراسات البشرية الأجنبية humanismes étrangers أحدهما بكتاباته عن جوته Goethe والآخر ببحوثه عن أرزمس Erasme فى أسبانيا — أثناء فترة احتجاب المعرفة ، فى قمة النضال الجامعى .

أسفاً ! إن أول كراسة من المجلة هى رثاء لبول هازارد P. Hazard (الذى مات قبل أن يرى عودة المجلة التى أسسها وأدارها طيلة عشرين عاما . مات قبل أن يقرأ التجارب الأخيرة لكتابه : « الفكر الأوربى فى القرن الثامن عشر » *La pensée européenne au XVIIIe Siècle*) وتقرأ فيها آخر دراسة أعدها هذا الأستاذ العالم ، وهى مقدمة لكتاب إرزمس « ثناء على الجنون » *Eloge de la folie* وفيها يمتدح روح النقد . وإنه لأمر « رائع ومنقذ » فى نفس الوقت أن تظهر روح النقد فى ساعات التاريخ التى تكون فيها الآراء التقليدية قد استنفدت أغراضها . وإنه لمن الخير أن تعود مجلة الأدب المقارن إلى الحياة لتحيا فى إرزمس « هادم الآراء الزائفة » ، ذلك لأننا اليوم فى حاجة إلى اثنين أو ثلاثة من طراز إرزمس .

وقد ظهرت أربع من تلك الكراسات : ديدرو وهولانده ، برانجيه فى ألمانيا Béranger en Allemagne ؛ جوته وفاليرى Goethe et Valry ؛ كاسونس فى ألمانيا Camoëns en Allemagne ؛ بوكاس والقصة الفرنسية فى عهد النهضة ؛ ريلكه وفان جوج Rilke et Van Gogh ؛ رسكين وبروست Ruskin et Proust ؟ فنكلمان وأندريه شنييه Winckelman et Chénier كوستيس بالاماس وأوربا Costis Palamas et l'Europe ؛ مونتانى عند أصدقائه الأنجلوسكسون Montaigne chez ses amis anglo-saxons ؛ جوته والأدب فى العالم Goethe und die

(١) هذا ما كتبه كاريه J. M. Carré فى مقدمته للعدد الأول من المجموعة الجديدة.

Weltliteratur ؟ مانزونى فى فرنسا Manzoni en France ؟ بنـوا بيـكار أنموذج شيلر ؛ بوشكين المدافع عن مدام دى ستال . وماذا عن الشرق ؟ هناك كتاب للانسة دفرنوا Dufrénoy عن الشرق الأسطورى فى فرنسا (وهناك جزء آخر فى طور الاعداد وسيشمل المراجع الخاصة une bibliographie) ؛ وهناك كتـاب عن بارس والشرق *Barrès et l'Orient* ؛ وهنـاك كتاب عن « السعدى فى فرنســا » *Saadi en France* للكاتب بنشنب Bencheneb [(1)] :

رسكن وبروست ، جـوته وفالـرى ، السعدى وفرنسا . كل شئ يتوقف على هـذا الحـرف : « و » ؛ حـرف العطف المتواضع هـذا ، لا يصل بين كلمتـين من الجمـلة ، ولا بـين فعـلين ولا بين جملتين ، وإنما بين رجلين ، بين عملين ، بين نوعين ، بين بلدين ، بين عالمين .

كثيراً ما أخـذت على الأدب القـارن تحفظـات حقة : من المؤكد أن هـذه الدراسة لا تلغى المتعة الأدبية وأنها لا يمكن (ولا هى تدعى ذلك) أن تقـوم مقـام الدراسـة التحليلية للأعمـال الأدبية . واليوم ، وقـد أخذت الخـلافات الوطنية يساء استخدامها فتصبح قطيعة أدبيـة ، نخطىء إذا قللنا من قيمة الدراسات فى الأدب المقـارن ومن المثل الذى تضربه . فهـذه الدراسـات تدلنا على أن الصـلات بين فرنسا وبين الثقافة العربية لم تكن قط أكثر منها يوم كان الاسلام والمسيحية يتصارعان على السيادة فى البحر المتوسط ، وأن الصراع بـين فرنسا والأسرة المالـكة النساوية لم تمنع كتابنا الكلاسيين من حبهم للأدب الأسبانى ، وأن الجزويت

---

(١) يدهشنى ألا يحصى حتى الآن من بين تلك المؤلفات ، كتاب بريفو Briffault عن « التروبادور والشاعر الأسطورية » . فهل سننتظر حتى تطبع فى كتاب الرسالة التى قدمها حديثاً الدكتور محمد عبد الحميد عنبر إلى السوربون وعنوانهـا : « مشكلة التأثير العربى فى شعراء التروبادور الأول» *Le problème de l'influence arabe sur les premiers troubadours* . وكلمـات الأستاذ عنبر الأخيرة ، تؤيد ما قاله ج . م . كاريه Jean Marie Carré فهى تدمغ التعصب الشائع فى أعمال الأدب المقارن : وبهذه المناسبة أقول إن رسالة الأستاذ عنبر تدعونى إلى أن أعـدل عبارة من المقـال الذى سبق أن نشرته هنـا عن بريفو Briffault : (فيما عدا الحب الجسدى ، كشف العرب لشعراء التروبادور بعض قواعـد الحب الفاضل) . وهى تؤيد نظرية بريفو فى كتابه : «التروبادور والشاعر الأسطورية » . ويقول الأستاذ عنبر إنه من العدل أن نقول إن أسبانيا المسلمة فى القرن الحادى عشر كانت السبب فى انبثاق كل هذه الأغنيات فى بروفانس Provence .

نشر حديثا مقالان فى عدد خاص لمجلة « الكاييه دو سود » *Les Caliers du Sud* عن الاسـلام والغرب يثبتان تأثير الشعراء الأندلسيين فى نشأة الشعر فى البروفانس . إن الفكرة صحيحـة إذن . ولكن ، لكى لا نغالى فى التأكيد كما فعل مسيو جانروا الذى كان ينكر أى تأثير عربى ، يستحسن أن نذكر أن اللغـة اللاتينية فى العصور الوسطى كانت تستبدل القافية بالوزن المعتاد خاصة فى التراتيل الدينية وأن التروبادور قد استمدوا ميلهم المتجدد لنظام القافية من مصادر عدة .

الذين رحلوا لغزو الصين فى القرن السابع عشر قد كشفوا لأوربا عن حكمة كونفشيوس — رغم إخفاقهم فى حملتهم الدينية — وقد أتاحوا لفولتير موضوع كتابه : « يتيم الصين » *Orphelin de la Chine* . وهذه الدراسات تعلمنا أيضاً أن كل أدب يفرض على نفسه حدوداً وطنية إنما يشوه ويفنى ، وأنه كلما فتحت الحدود العقلية كان نتاج ثقافة ما أعذب وأكثر أصالة . إن ما وهبه مونتانى لشكسبير (١) قد أعاده شكسبير بعد قليل إلى فرنسا . الحقيقة كما كان يقول الحكيم لاو تسى Lao-tseu ، هى حركة ذهاب وحركة إياب . والأدب المقارن يؤيد صحة ذلك .

وإذ كانت دار النشر Guillaume Budé تعد مجموعة من الأدب العربى بنصوصه الأصلية وترجمته الفرنسية ، فى حين تقوم دار الكاتب المصرى والآداب الفرنسية Lettres Françaises بنقل آثار بعض الكتاب الذين يمثلون فرنسا الحديثة (٢) أعظم تمثيل ، فلنرج ولنعمل لأن تكون عودة هذه الصلات دائمة ونهائية . ولا خوف من مضار المؤثرات . لنذكر قول بول فاليرى : «صنع الأسد من خروف مهضوم » .

اتيامبل

نقلها عن الفرنسية مصطفى كامل فوده

---

(١) بترجمة فلوريو Florio .

(٢) ظهر فى العربية ترجمة : برجسون *Essai sur les données immédiates* ، «سلامبو» لفلوبرت Flaubert, *Salammbo* وذلك فى طبعة : (الآداب الفرنسية ، بيروت) . وظهر أيضاً « الباب الضيق » ، « أوديب — ثيسيوس » لجيد فى طبعة الكاتب المصرى (القاهرة) . . . وقد أعلنت طبعة Budé عن نصوص عربية وترجمة فرنسية لشعر عربى من الجاهلية ، وعدة مختارات أخرى (شعر أندلسى ، شعر أموى ، شعر معاصر) . وأعلنت أيضاً عن طبع المتنبى ، وابن سينا ، وابن خلدون ، والغزالى ، الخ .

المراجع العربية

أبو السعود ، فخري :

- « الأثر الأجنبي في الأدبين العربي والإنجليزي » ، **الرسالة** ، ع١٦٨ ، س٤ ، ١٩٣٦/٩/٢١
- «الرومانسية والكلاسية في الأدبين العربي والإنجليزي » ، **الرسالة** ، ع١٩٢ ، س٥ ، ١٩٣٧/٣/٨
- وسلسلة مقالاته في **الرسالة** ، ١٩٣٥ ـ ١٩٣٧

إسماعيل ، عبد المنعم :

نظرية الأدب ومناهج البحث ، جـ١ ، دار الناشر العربي ، القاهرة ١٩٧٧

أمين أحمد ـ محمود ، زكي نجيب (تصنيف) :

قصة الأدب في العالم ، عدة أجزاء متسلسلة ، القاهرة ١٩٤٥

إيتامبل ، رينيه :

- « التروبادور وشعراء الأندلس » ، **الكاتب المصري** ، ع١٧ ، م٥ ، ١٩٤٧/٢ ، ترجمة : عبد العزيز الأهواني .
- « نهضة الأدب المقارن » ، **الكاتب المصري** ، ع٢٨ ، م٧ ، ١٩٤٨/١

البستاني ، سليمان :

الإلياذة ، مطبعة دار الهلال ، مصر ١٩٠٤

الجاحظ ، عمرو بن بحر :

الحيوان ، تحقيق وشرح عبد السلام هارون ، القاهرة ١٣٥٧ هـ ، ط٢

جمعة ، بديع محمد :

دراسات في الأدب المقارن ، دار النهضة ، بيروت ١٩٧٨

حسن ، حسن جاد :

الأدب المقارن ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ، القاهرة ١٩٦٧ ، ط١ ، ١٩٧٥ ، ط٢

الحمصي ، قسطاكي :

منهل الوراد في علم الانتقاد ،

ـ جـ١ ، جـ٢ ، القاهرة ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧

ـ جـ٣ ، حلب ١٩٣٥

حميدة ، عبد الرزاق :

في الأدب المقارن ، القاهرة ، فبراير ١٩٤٨

الخالدي ، روحي :

تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو ، دار الهلال ، القاهرة ١٩٠٤ ط١ ، ١٩١٢ ط٢ ، دمشق ١٩٨٤ ط٤ ، تحرير حسام الخطيب مع مقدمة .

خشبة ، دريني :

« دانتي ألليجييري والكوميديا الإلهية وأبو العلاء المعري » ، **الرسالة** ، ع١٥٩ ، س٤ ، ١٩٣٦/٧/٢٠

الخطيب ، حسام :

ـ **محاضرات في تطور الأدب الأوربي ونشأة مذاهبه واتجاهاته النقدية** ، جامعة دمشق ، دمشق ١٩٧٥

ـ **الأدب المقارن** ، **جـ١ في النظرية والمنهج** ، **جـ٢ تطبيقات** ، جامعة دمشق ، دمشق ١٩٨١

ـ **روحي الخالدي رائد الأدب العربي المقارن** ، دار الكرمل ، عمان ١٩٨٥

ـ **سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية** ، القاهرة ١٩٧٣ ط١ ، دمشق ١٩٩١ ط٥

ـ « رسالة لندن » ، **المعرفة** ، دمشق ، ع٦٥ ، س٦ ، تموز ١٩٦٧

ـ « الأدب المقارن بين التزمت المنهجي والانفتاح الإنساني » ، **المعرفة** ،

جـ١ ، ع٢٠٤ ، ١٩٧٩/٢

جـ٢ ، ع٢٠٥ ـ ٢٠٦ ، ٣ و ١٩٧٩/٤

جـ٣ ، ع٢٠٧ ، ١٩٧٩/٥

ـ « **ملتقى الأدب المقارن في عنابة : هل يكون بداءة تاريخية ؟** » ، **المعرفة** ، ع٢٥٧ ، تموز ١٩٨٣

- « **باريس وظاهرة العواصم الأدبية** » ، **الآداب الأجنبية** ، ع٤٠ ، س١١ ، خريف ١٩٨٤
- « المؤتمر الثاني للرابطة العربية للأدب المقارن » ، **مجلة جامعة دمشق** ، ع٧ ، ١٩٨٩/٩
- « الأدب العربي المقـارن ، المصطلح الأول والنص الأول » ، **فصول** ، ع٣ ـ ٤ ، م٩ ، فبراير ١٩٩١

خفاجة ، محمد عبد المنعم :

دراسات في الأدب المقارن ، دار الطباعة المحمدية بالأزهر ، القاهرة ١٩٦٣

خلوصي ، صفاء :

دراسات في الأدب المقارن والمذاهب الأدبية ، مط الرابطة ، بغداد ١٩٥٧

الدقاق ، عمر وإخلاصي، وليد:

خليل الهنداوي ، مختارات من الأعمال الكاملة ، جـ١ـ٢ ، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٠

دياب ، عبد الحي :

التراث النقدي قبل مدرسة الجيل الجديد ، وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٨

الديدي ، عبد الفتاح :

أدبنا والاتجاهات العالمية ، الدار القومية ، القاهرة ١٩٦٦

رضوان ، أحمد شوقي :

مدخل إلى الدرس الأدبي المقارن ، دار العلوم العربية ، بيروت ١٩٩٠ ط ١

السكري ، شوقي :

« مناهج البحث في الأدب المقارن » ، مجلة **عالم الفكر** ، الكويت ، م١١ ، ع٣ ، أكتوبر ـ نوفمبر ـ ديسمبر ١٩٨٠

سلامة ، إبراهيم :

- **تيارات أدبية بين الشرق والغرب ، خطة ودراسة في الأدب المقارن** ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥١
- **بلاغة أرسطو بين العرب واليونان** ، دراسة تحليلية نقدية تقارنية ، القاهرة ، ١٩٥٢ ط٢

شحيد ، جمال :

« رينيه إيتامبل : من إعلام المدرسة الفرنسية الحديثة في الأدب المقارن » ، **ملحق الثورة الثقافي** ، دمشق ، ع٢٧ ، س٢ ، ١٩٧٧/١٢/١

الشنتناوي ، أحمد :

« الأدب الياباني » ، **الرسالة** ، ع٥ ، س١ ، ١٩٣٣/٣/١٥

شميل ، ماريوس بك :

« لامارتين في ربوع الشرق » ، **المقتطف** ، م٨٣ ، جـ٢ ، يونيو ١٩٣٣

الشوباشي، محمد مفيد :

رحلة الأدب العربي إلى أوربة ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٨

شوقي ، أحمد :

الشوقيات جـ١ ، مطبعة الاستقامة ، القاهرة ١٩٥٨

صالح ، عبد المطلب :

- **دراسات في الأدب والنقد المقارن** ، مطبعة الشعب ، بغداد ١٩٧٣
- **مباحث في الأدب المقارن** ، دار الشؤون الثقافية ، بغداد ١٩٨٧
- « تلاقي الآداب في ضوء الأدب المقارن مع نموذج تطبيقي » ، **الأقلام** ، ع٩ ، س٢٢ ، ١٩٨٧/٩

طحان ، ريمون :

الأدب المقارن والأدب العام ، دار الكتاب ، بيروت ١٩٧٢

عامر ، عطية :

« تاريخ الأدب المقارن في مصر » ، **فصول** ، الأدب المقارن جـ٢ ، ع٤ ، م٣ ، ١٩٨٣

عباس ، إحسان :

- **تاريخ النقد الأدبي عند العرب** ، بيروت ١٩٧١
- **ملامح يونانية في الأدب العربي** ، بيروت ١٩٧٧

العراقي ، السيد :

الأدب المقارن منهجاً وتطبيقاً ، دار الفكر العربي ، القاهرة ١٩٨٥ (حسب تاريخ المقدمة) .

عزام ، عبد الوهاب :

« الأدب الفارسي والأدب العربي » ، **الرسالة** ، ع٢ ، س١ ، ١٩٣٣/٢/١

عشماوي ، محمد زكي :

دراسات في النقد المسرحي والأدب المقارن ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨٣

العقيقي ، نجيب :

من الأدب المقارن ، ـ دار المعارف بمصر ١٩٤٨ ط ١

ـ مكتبة الأنجلومصرية ، القاهرة ط ٣ ، جـ ١ ١٩٧٥ ، جـ ٢ و ٣ ١٩٧٦

علوش ، سعيد :

مدارس الأدب المقارن ، المركز الثقافي العربي (٢) ، ١٩٨٧

ـ **مكونات الأدب المقارن في العالم العربي**، الشركة العالمية للكتاب (بيروت) وسوشبرس (الدار البيضاء)، ١٩٨٧.

عوض ، لويس :

ـ **المؤثرات الأجنبية في الأدب العربي الحديث .**

١ ـ قضية المرأة ، القاهرة ، معهد البحوث والدراسات العربية العالية ، ١٩٦٢

٢ ـ الفكر السياسي والاجتماعي ، (القسم الأول من الحملة الفرنسية إلى عهد إسماعيل) ، ١٩٦٣

ـ **على هامش الغفران** ، كتاب الهلال ، القاهرة، يونيه ١٩٦٦

غويار ، م . ف :

الأدب المقارن ، ترجمة د . محمد غلاب ، سلسلة الألف كتاب ، القاهرة ١٩٥٦

ڤان تييغم ، بول :

ـ **الأدب المقارن** ، دار الفكر العربي ، القاهرة (٢) بلا تاريخ ، (ترجمة سامي الدروبي) .

ـ **الأدب المقارن** ، ترجمة سامي مصباح الحسامي ، صيدا ـ بيروت ، بلا تاريخ .

القسوس ، جريس :

« شكسبير والأديب العربي » ، **الرسالة** ، ع ٢٠٧ ، ١٩٣٧/٦/١٢

كفافي ، محمد عبد السلام :

الأدب المقارن ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧١

ليفن ، هاري :

انكسارات : **مقالات في الأدب المقارن** ، ترجمة عبد الكريم محفوض، وزارة الثقافة ، دمشق ١٩٨٠

محمد ، إبراهيم عبد الرحمن :

النظرية والتطبيق في الأدب المقارن ، دار العودة ، بيروت ١٩٨٢ ط ٢

محمد ، محمد عوض :

الشرق والغرب ، سلسلة كتب للجميع ، القاهرة ، ع ٧ ، يوليه ١٩٤٨

المصري ، حسين مجيب :

في الأدب العربي والتركي ، دراسة في الأدب الإسلامي المقارن ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ١٩٦٢

مكي ، الطاهر أحمد :

الأدب المقارن ، أصوله وتطوره ومناهجه ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٧

منصور ، مناف :

مدخل إلى الأدب المقارن ، بيروت ١٩٨٠

موسى ، فاطمة :

بين أدبين : دراسات في الأدب العربي والإنجليزي ، مكتبة الأنجلوالمصرية ، القاهرة ١٩٦٥

نجم ، محمد يوسف :

« الفنون الأدبية » و « الأدب المقارن » في كتاب :

الأدب العربي في آثار الدارسين ، صالح العلي وآخرون ، بيروت ١٩٦١

ندا ، طه :

الأدب المقارن ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٥

نور ، حسن رشيد :

« مصر في الأدب الألماني » ، **المقتطف** ، م ٨٣ ، جـ ٣ ، ١٩٣٣/١٠ و ١٩٣٣/١١

هلال ، محمد غنيمي :

- **الأدب المقارن** ، القاهرة ١٩٥٣ . دار العودة ، بيروت ١٩٨٧
- **دور الأدب المقارن في توجيه دراسات الأدب العربي المعاصر** ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٥٦ . معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢
- **في النقد التطبيقي والمقارن** ، دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٥
- **الموقف الأدبي** ، دار العودة ، بيروت ١٩٧٧

هنداوي ، خليل :

« اشتغـال العرب في الأدب المقـارن ... ، في كتـاب تلخيص أرسطـو في الشعر لفيلسـوف العرب أبي الوليد بن رشـد » ، **الرسـالـة** ، سلسلـة من أربع مقـالات في الأعـداد ١٥٣ و ١٥٤ و ١٥٥ و ١٥٦ ، س ٤ ، و ١٧ و ٢٢ و ١٩٣٦/٦/٢٩

ولك ، رينيه وأوستن ، وارين :

نظريـة الأدب ، ترجمـة محيي الـدين صبحي ، مراجعـة د . حسـام الخطيب ، المجلس الأعلى للآداب والفنون والعلوم الاجتماعيـة ، دمشق ١٩٧٢ ط ١ . المؤسسـة العربيـة ، بيروت ١٩٨١ ط ٢

ياغي ، هاشم :

النقد الأدبي الحديث في لبنان ـ ١ ، الحركة النقدية حتى نهايـة الحرب الأولى ، دار المعـارف بمصر ، القاهرة ١٩٦٨

ملاحظة:

جرت الإشارة حصراً إلى المراجع التي استُقيَت منها مادة الكتاب، ولم أجد ضرورة لذكر الكتب العامة والكتب المقارنية التي وردت في الببليوغرافيا الحولية (ملحق ـ ١).

المراجع الأجنبية

Aldridge, A. Owen,

Comparative Literature: Matter and Method, Illinois University Press, 1969, USA.

Beard, Michael,

"Distance and Reception, Islamic Literary History and the Western Reader", **Journal of Comparative Poetics,** American University, Cairo, No. 6, 1988.

Brunel, P., Pichois, CI., Rousseau, A. - M.,

Quest - ce que la littérature comparrée? Armand Colin - collection U, Paris, 1993.

Clements, R. J.,

Comparative Literature as Academic Discipline; A Statement of Principles, Praxis, Standards; Modern Language Association of America, 1978.

Comparative Literature Symposium - 8th,

Albert Camus Literary Milieu: Arid Lands, Texas Tech. University, 1975, USA.

Etiemble, René,

The Crisis in Comparative Literature, Michigan State University Press, 1966.

Gifford, Henry,

Comparative Literature, Routledge and Kegan Paul, London 1969

Hilal, M. Gh.,

"Les étûdes de littérature comparée dans la Republique Arabe Unie", Yearbook of Comparative and General Literature, No. 25 - VII, The University of North Carolina, chapel Hill, 1959, pll.

Al Khateeb, Hussam,

" The European Relations of Modern Arabic Literature ", **VIII th ICLA Congress,** Budapest 1976. English and Hungarian texts.

"Ruhi Al - Khalidi, an Early Example of French Influence on the Be-

ginnings of Arabic Comparative Literature", Congrés International de la Littérature Comparée, Paris - Sorbonne, 1984, Also in: **Journal of Arabic Literature,** Leiden, XVIII, 1987.

"Political Factors Influencing the Rise of the Syrian Short Story in the Fifties", I CLA Colloquium on Literature andValues, Sussex University, 1985. Also in: **Neo - Helikon,** Budapest, XIV - 2, 1987.

Levin, Harry,

Refractions: Essays in Comparative Literature, USA, 1965.

Nutahara, Nobuaki,

"Some Aspects of Understanding Arab Culture", 2nd International Symposium on Arab - Japanese Relations, 1981, Michima - Japan.

Prawer,

Comparative Literary Studies, An Introduction, USA, 1973.

Remak, Henry H.H.,

" Comparative Literature: Its Definition and Function ", in: **Comparative Literature: Method and Perspective,** edited by Newton Stalknecht and Horst Frenz, Arcturus Books, Oct. 1973, USA.

Schultz, H-J. Karl,0

Comparative Literature, the Early Years, Chapel Hill, 1973.

Tutungi, Gilbert,

"Comparative Literature in the Arab World", **Yearbook of Comparative and General Literature**, 1964, USA.

Weisstein, U.W.,

Comparative Literature and Literary Theory: Survey and Introduction, Tr. by W. Riggan in collaboration with the author, Bloomington, Indiana University Press, 1973.

الدوريات

أ ـ باللغة العربية :

ـ الآداب الأجنبية ، دمشق ، ١٩٧٣ ـ ...	المجموعة الكاملة
ـ الأديب ، بيروت ، أعداد متفرقة	
ـ الثقافة ، القاهرة ، ١٩٣٩ ـ ١٩٥٣	المجموعة الكاملة
ـ الرسالة ، القاهرة ، ١٩٣٣ ـ ١٩٥٣	المجموعة الكاملة
ـ الطليعة ، دمشق ، ١٩٣٥ ـ ١٩٣٩	متقطعة
ـ عالم الفكر ، الكويت ، أعداد متفرقة	
ـ فصول ، القاهرة ، ١٩٨٠ ـ ...	الكاملة
ـ الكاتب المصري ، القاهرة ، ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨	الكاملة
ـ المعرفة ، دمشق ، ١٩٦٢ ـ ...	الكاملة
ـ المقتطف ، القاهرة ، ١٨٧٦ ـ ١٩٥٢	الكاملة
ـ الموقف الأدبي ، دمشق ، ١٩٧١ ـ ...	الكاملة
ـ ملحق الثورة الثقافي ، دمشق ، أعداد متفرقة	

ب ـ باللغات الأجنبية :

- **Alif, Journal of Comparative Poetics,** American University, Cairo, 1981 - ...
- **Cahiers Algériens de Littérature Comparée,** I - 1966, II - 1967, III - 1968
- **ICLA Bulletin,** University of Toledo, Ohio, U.S.A.
- **Yearbook of Comparative and General Literature,** Indiana University, U.S.A.
- **Néo - Helikon,** Akademiai Kiado, Budapest.

الفهـــــرس

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
- ألمانيا	٧٢
- إيطاليا	٧٤
٢ - تطور الدراسات المقارنية في القرن العشرين	٧٥
- بريطانيا	٧٧
- ألمانيا	٧٩
٣ - ازدهار الأدب المقارن في أمريكا	٨١
٤ - امتدادات أخرى	٨٦
- أوربة الشرقية ، آسية واليابان بوجه خاص	٨٦
الفصل الثاني - اهتمامات معاصرة للأدب المقارن	٩٢
١ - الرابطة الدولية للأدب المقارن	٩٢
٢ - المؤتمر الثامن أساس للتطورات المعاصرة	٩٣
- الموضوع الأول	٩٥
- الموضوع الثاني	٩٨
- الموضوع الثالث	٩٩
- جلسات اللجان المختصة	١٠١
- الأدب العربي في المؤتمر	١٠٢
٣ - مؤتمرات لاحقة واهتمامات مستجدة	١٠٣
- النمسا	١٠٣
- سسكس	١٠٥
- طوكيو	١٠٧
٤ - أنموذج لنشاط مقارني خارج الرابطة	١٠٨
- باريس وظاهرة العواصم الأدبية	١٠٨

الموضوع الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

إنتاج المؤلف

أ. مؤلفات مطبوعة:

- **الوافي في الأدب العربي الحديث**- مع د. جودت الركابي وعبد الكريم إسماعيل ، مكتبة أطلس دمشق1963؛ 1964- ط 2 .
- **في التجربة الثورية الفلسطينية** ، وزارة الثقافة ، دمشق 1972؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 2 .
- **الأدب الأوروبي، تطوره ونشأة مذاهبه** ، مكتبة أطلس ، دمشق 1972 .
- **أبحاث نقدية ومقارنة** ، دار الفكر، دمشق 1973 .
- **سبل المؤثرات الأجنبية وأشكالها في القصة السورية الحديثة** ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 1973- ط1 ؛ اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1974- ط2 ؛ جامعة دمشق 1981- ط3 ؛ 1985- ط 4 ؛ المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر 1991- ط5 (مزيدة ومعدلة) ؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 6 .
- **الرواية السورية في مرحلة النهوض** ، المعهد العالي البحوث والدراسات العربية ، القاهرة 1974 .
- **محاضرات في تطور الأدب الأوروبي ونشأة مذاهبه واتجاهاته النقدية** ، دمشق 1975- ط 1 ؛ وطبعات متتالية .
- **ملامح في الأدب والثقافة واللغة** ، وزارة الثقافة ، دمشق 1977 – ط 1 ؛ رام الله 2018 – ط 2
- **القدس- دمشق- القدس** ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1981 . وزارة الثقافة ، دمشق 2011 - ط 2 ؛
  المؤلف ، رام الله – ط 3 .
- **القصة القصيرة في سورية** ، تضاريس وانعطافات ، وزارة الثقافة ، دمشق 1982 .
- **الأدب المقارن نظرية وتطبيقاً** ، **ج1-2** ، جامعة دمشق 1983 . وطبعات متتالية
  .
- **جوانب من الأدب والنقد في الغرب** ، جامعة دمشق 1982 . وطبعات متتالية 2003 - ط 9 ؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 10 .
- **الثقافة والتربية في خط المواجهة** ، وزارة الثقافة ، دمشق 1983 ؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 2 .
- **روايات تحت المجهر** ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1983 .
- **ظلال فلسطينية في التجربة الأدبية** ، دار الأهالي ، دمشق 1990 . مركز الأبحاث ، رام الله 2013 .

- **فؤاد الشايب، المؤلفات الكاملة** ، م1-4 ، (إشراف مع مقدمة ودراسة لكل مجلد) ، وزارة الثقافة ، دمشق 1984-1990 . (مشاركة مع عبد السلام العجيلي وعيسى فتوح) .
- **تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو** ، تأليف روحي الخالدي ، (تحرير ومقدمة) اتحاد الكتاب الفلسطينيين ، دمشق 1984 .
- **روحي الخالدي رائد الأدب المقارن** ، دار الكرمل ، عمان 1985 . مركز الأبحاث ، رام الله 2013 – ط 2 .
- **آفاق الأدب المقارن عربياً وعالمياً** ، دار الفكر – دار الفكر المعاصر ، دمشق - بيروت 1992 ، 1999 ط2 (منقحة) ؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 3 .
- **اللغة العربية : إضاءة عصرية** ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة 1995 .
- **حركة الترجمة الفلسطينية : دراسة وببليوغرافيا** ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، بيروت ، عمان 1995 ؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 2 .
- **النقد الأدبي في الوطن الفلسطيني والشتات** ، المؤسسة العربية ، بيروت - عمان 1996. مركز الأبحاث ، رام الله 2013 – ط 2 .
- **المنهل في الأدب العربي** ، جامعة قطر، الدوحة 1996 (مشاركة) .
- **الأدب والتكنولوجيا، وجسر النص المفرع** ، المكتب العربي لتنسيق الترجمة والنشر ، الدوحة - دمشق 1996؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 2 .
- **القصة القصيرة في سورية ، نصوص وارتيادات** ، دار علاء الدين ، دمشق 1998 .
- **الترجمة في قطر: الواقع ومؤشرات المستقبل** ، المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث ، الدوحة 2000 .
- **آفاق الإبداع ومرجعيته في عصر المعلوماتية** ، (بالاشتراك مع د. رمضان بسطاويسي محمد) ، سلسلة حوارات القرن جديد، دار الفكر المعاصر ، دمشق-بيروت ، 2001 .
- **الأدب المقارن من العالمية إلى العولمة** ، المجلس الوطني للثقافة ، الدوحة 2001 .
- **التعليم العالي في إسرائيل** ، مركز الوثائق والدراسات الإنسانية ، جامعة قطر، 2003 .
- **دور الجامعات العربية في تعزيز الهوية العربية** ، (تحرير وإعداد) ، وقائع المؤتمر العلمي المصاحب لمجلس اتحاد الجامعات العربية السادس والثلاثين ، جامعة قطر، الدوحة 2004 .
- **الأدب العربي (المقارن) وصبوة العالمية**، المجلس الوطني للثقافة، الدوحة 2005 ؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 2.
- **نزار قباني ، أمير الحرية وفارس العشق** ، منشورات ضفاف ، بيروت والرياض ، 2014.

ب. **ترجمات مطبوعة:**

- **عصارة الأيام The Summing Up**، سمرست موم، وزارة الثقافة، دمشق 1964- ط1؛ دار الفكر، دمشق 1973- ط2 ؛ المؤلف ، رام الله 2018 – ط 3 .
- **العالم الثالث The Third World** ، بيتر ورسلي ، وزارة الثقافة - دمشق 1968 .
- **في انتظار غودو Waiting for Godot** ، ساموئيل بيكت، مراجعة ، وزارة الثقافة، دمشق 1968.
- **نظرية الأدب Theory of Literature** ، رينيه ولك واوستن وارين ، مراجعة الترجمة ، المجلس الأعلى للآداب، دمشق 1972 ، وطبعات متتالية .
- **النقد الأدبي، تاريخ موجز Literary Criticism: A Short History** ، تأليف ويمزات وبروكس ، مترجم عن الإنكليزية (مع محي الدين صبحي) ، المجلس الأعلى للآداب ، دمشق ، ج1- 1973 ؛ ج2 – 1974 ؛ ج3 – 1975 ؛ ج4 – 1977 .
- ترجمات وإعداد لليونسكو (ولاسيما ما يتعلق بحقوق المرأة) ، الدوحة – خبير يونسكو .
- إشراف ومراجعة لمنشورات مركز الترجمة ، وزارة الثقافة والفنون والتراث ، الدوحة .

ج. **دراسات** ميدانية ومشروعات عامة بتكليف من اليونسكو وأليكسو ووزارة التعليم العالي بدمشق

د. يضاف إلى ذلك عدد كبير من الدراسات المعمقة والمقالات والمقابلات المنشورة في المجلات المتخصصة والدوريات العربية.

أ. د. حسام الخطيب

الدوحة	**دمشق**
ص. ب. 14966	
منزل وفاكس : 4590 4487 974 +	مكتب : 4088 613 96311 +
جوال : 4396 5585 974 +	منزل : 0247 611 96311 +
2279 5513 974 +	
hussamkh@hotmail.com	www.hussamkhateeb.com